سحر خليفة

ربيع حار

ربيع حار

رحلة الصبر والصبار

سحر خليفة

1

كان فنانا بالفطرة، فكل مشهد يستوقفه ويتخيله لوحة، امرأة تنشر على حبل غسيل، طفل يلعب، قط نائم،طياره ورق، وفراشه تحوم فوق زهرة ومروج ربيع .

قال له أستاذ الرسم:

- هذا جميل . لكن ، لكن ، أهذا ما ترى؟ لماذا لا ترسم ما حولك، يعني الواقع؟

اهتزت عضلة في صدغه وانحرفت نظرة من عينيه لجهة اليمين، وظل الجفنان مرخيان بشبه نعاس، لكن النظرة المورووبه كشفت سره: ولد رقيق، ولد حساس، ولد ناعم. وهذا بالذات ما فسره أستاذ الرسم لوالده بياع الكتب. لكن الأب وقف يرمش ويحك رأسه ويتمتم: "طيب وبعدين؟" فعاد الأستاذ يهدئ روعه:

- ابنك ممتاز، أحسن واحد عندي في الصف.

فعاد الوالد يرمش ويحك ويتساءل:

- بس الولد دايما سرحان!

قال الأستاذ بحرارة:

- لأنه موهوب، لأنه حالم. لكنه أحسن واحد عندي في الصف.

وهذا ما جعل الأب يعود إلى بيته ذاك المساء وفي يده ساعة جديدة كان رآها عند جاره بائع الساعات والنظارات قرب الجامع. لكن الولد قال بحيرة: سع سع ساعة؟ وأخذ يقلبها ويشقلبها وينظر إليها بطرف عينه تلكالنظرة التي تجعل من وجهه شبه معاق. فقال الوالد: ساعة سويسرية معتبرة . ساعة ديجيتال.

قال الولد وهو مطأطئ:

- عن عن عندي سع سع ساعة.

اندفع الأب:

- ساعة عتيقة، لكن هذه، هذه ديجيتال، لا تقدم ساعة ولا تؤخر.

لم يجب الولد وظل يقلبها بين يديه ويدمدم بكلمات مبهمة بصوت خافت. وأخيراً ضاق به الوالد فقال بسرعة:

- يعني شو بدك؟

ظل الجفنان مرخيان بشبه نعاس ، والعضلة تهتز في صدغه وقال همسا:

- نظاره شمس.

نظر أبوه إليه بدهشة لأنه لم يفهم لماذا يرفض الولد ساعة سويسرية معتبرة ويطلب نظاره شمسيه بعشرة شيكل تصنيع الصين كان رآها قبل يومين ووقف يشاهدها كالمذهول. ألأن الولد. . . لا ليس لأن ، فهو كما قال الأستاذ، أحسن واحد

عنده في الصف. يعني الولد ليس غبياً أو شبه معاق ، يعني نافع في مدرسته، يعني ممكن أن يتخرج ويحصل على بعثة لكن هذا؟! هذا لا يصلح للداخل فكيف الخارج؟! دوما حالم، دوماً سارح، دوماً نعسان ويثأثيء! لكن لا بأس، ولد نافع، ولد موهوب، وأحسن واحد عنده في الصف. إذن النظارة مع الساعة.

وهكذا اشترى له ساعة ديجيتال وكذلك نظارة شمسيه. لكن الولد لم يتغير . ظل يتأخر ويثأثيء وينظر من تحت النظارة بشكل موروب ساع ة يميناً وساع ة شمالاً وساع ة يبدو كأنه نائم أو شبه ضرير. لكنه ظل يداوم خلف الكاونتر يقرأ مجلات وجرائد ويبيع الكتب والدفاتر من غير ضجيج. فأبوه صاحب مكتبة الجليل بدأ حياته بالمكتبة، أي بعد احتلال48، كموزع جرائد على بسكليت. وبعد النكسة، أي بعد احتلال باقي فلسطين، تطور جداً لأن بلد ة عين المرجان كبرت فجأ ة بسبب الهجرة، هجرة أخرى أكبر من تلك. فكبر الجامع وازداد عدد المصلين وبنت الأوقاف صف دكاكين اختار أصغرها وأقربها تحت الدرج وبسعر زهيد لا يذكر. وهكذا أصبح معروفا في البلدة بأنه فهيم ومثقف لأنه يبيع المطبوعات ولأن اسمه ينزل في جريدة القدس كمراسل. فأحياناً نقرأ بشغف شديد أخبار بلدتنا النكرة وقد بات اسمها على كل لسان بفضل مراسلنا المقدام فضل القسّام. نقرأ مثلاً: جاءنا من مراسلنا فضل القسام أن بلدية عين المرجان قد قررت نقل مزبلة البلدة لخارج حدود البلدية وذلك بناء على إلحاح الأهالي والمصطافين بسبب الناموس والبرغش وروائح كريهة وزواحف في فصل الصيف. أو نقرأ مثلاً: جاءنا من مراسلنا فضل القسام أن سكان مخيم عين المرجان هجموا على مستوطنة كريات شيبع وكسروا الأنابيب والمجاري ففاضت الأوساخ على الشارع وكروم اللوز واشتبك الناس بالمستوطنين وقوات الجيش.

وهكذا صرنا نعرف أن مراسلنا فضل القسام صاحب مبدأ لا يخاف الجيش والاحتلال ويقول كلمة الحق ولا يعبأ. وهذا يفسر خيبة أمله بابنه أحمد لأن الآخر لا يعبأ بكلمة حق أو باطل أو أي كلام. فهو في العادة قليل الكلام ودوماً سرحان ويثأثيء وله نظرات موروبة تشي بالحذر والترقب وكأن الولد يخفي سرا أو عادة غريبة لا سمح الله. لكنه ليس كذلك، فهو ولد لطيف ومهذب ويقول " شكراً " بغزارة ثم يبلع باقي الكلمات وهو يغمغم بأصوات غامض ة مكتومة قبل أن ينزوي خلف الكاونتر يقرأ أو يرسم ويخربش. وإذا جاء أحدهم يطلب جريد ة أو دفتر رسم يناوله المطلوب بدون كلام ويمد يده ليعد القروش بطرف عينه قبل أن يضعها في الدرج ويعود إلى ما كان يفعله قبل دقائق، يقرأ أو يرسم ويخربش .

وحين ناوله أبوه النظارة ابتسم بحذر وأمسك بها مثل التحفة ومسحها ثانية وثالثة وهو ينفخ ببخار الفم ثم لبسها بتأن شديد. ومنذ ذاك الحين لم ينزعها إلا للنوم أو الاستحمام .

وفي يوم ما، أخذه أبوه إلى الهضبة حتى يصور مزبلة البلد لأن المزبلة الجديدة باتت سبباً في نزاع جديد بين البلدية ومخيم عين المرجان. فالبلدية نقلت مزبلة عين المرجان إلى خارج حدودالبلدية، لكن مخيم عين المرجان يقع تماماً على تلك الحدود، ودخان المحرقة والروائح تصل المخيم مع كل نسمة وهبة ريح. فتذمر سكان المخيم لكن البلدية لم تصغ فقرروا نشر الخبر في الجريدة. وهذا بالذات ما جاء بمراسلنا مع كاميرته وابنه أحمد في ذاك العصر إلى الموقع لتصوير الوضع.

نظر أحمد في ساعته ثم نظرإلى ساعة الكاميرا الرقمية ورأى فرقاً بين الأرقام. ففسر أبوه أن ساعة الكاميرا تعد اللقطات أما ساعته السويسرية فتعد الوقت. وأشار بإصبعه للفتحة وقال ببطء كي يفهم:

- أترى هذه ؟ هذه الأرقام لعد الصور، وهذه في الوسط هي العدسة. وإذا ضغطنا على هذا الزر يبتعد الزوم وإذا ضغطنا يقترب الزوم. ألقِ نظره. مالك؟ مالك؟!

وكان الولد قد دفع الكاميرا عن عينه بحركة مفاجئه مذعورة. فقد تصادف مرور كلب أمام الكاميرا أثناء توسيع العدسة فبدا ضخما وقريباً جداً ومخيفاً. فوضع الرجل عينه في الخرم ورأى ما رأى فأدرك أن الولد خاف من الكلب. وهذا يعني أن الولد خرع جداً، طري جداً وبحاجة للدعك والتصليب . فما معنىأن يعيش في هذا الجو ولد مثله؟وهذه البلد صعبة جداً فيها احتلال ومحاكم، فيها رجال تحت الأرض وفوق الأرض وعمليات ومآتم. فيها مخيم عين المرجان حيث لجأ هو وأهله قبل أكثر من خمسين سنة، وكان مازال بعد صبياً، وبدأ حياته ككل أبناء المخيم على تراب الأرض، ثم كرتونة علكة، ثم صينية حلاوة، ثم جريدة وهو يقفز من هذا الرصيف لذاك الرصيف الى الشارع عبر المارة والسيارات ويصرخ ويقول بدون كلل ، "اقرا الأخبار طازة وسخنه اقرا الأخبار!" ومن هنا قرش وهناك قرش حتى افترش أول بسطة، ثم كشك صغير أمام الجامع، ثم الدكان. لكن أثناء تلك القفزات والمراحل جاع وعطش ونشف من البرد وواجه كلاب الحارات وقططها، ولولا جلده المبطن بجلد التماسيح لكان الآن مثل كثيرين في الشارع خلف البسطات. إذن هذا ما تحتاج إليه في هذه البلد، جلد التماسيح وقلب جامد وعين صاحية لا ترمش. فكيف سيعيش ابنه هذا بقلب خرع كقلوب البنات ولسان مربوط ويتأتئ وعين من خلف النظارة؟نادى ابنه بصرخة قوية:

- شيل النظارة وتعال عندي.

وكان يقف فوق صخرة تطل على المزبلة وكروم اللوز ومستوطنة كريات شيبع على طرف الأفق. نظر الولد بحيرة وقلق ولم يتجاوب، فصاح أبوه ثانية "بقول لك تعال!" فمشى ببطء وبلادة وهو ينظر تحت قدميه ويختار مواقع أقدامه ببطء شديد. فاحتد أبوه وفقد صبره، " يالله تحرك!" وظل يحدجه بصبر نافذ حتى اقترب ومد يده فسحبه إليه بقوة شديدة حتى كاد أن يقع فوقه. لكنه استعاد توازنه وأمسك بابنه لصق صدره ووجهه للأفق وكروم اللوز وقال بلهاث وهو ينظر فوق رأسه، "شوف وتطلع." وكانت النظارة ما زالت فوق عينيه فنزعها عنه بحركة مفاجئة عصبية فارتعد الولد. أحس الأب برعشة ابنه فازداد غيظاً ونفاذ صبر. لكن دقات قلب الولد تحت كفه جعلته يذوب اشفاقاً، فاهتز صوته وترجرج وامتلأ بالحزن والعواطف. وقال بأسى، "شوف وتطلع." وأشار إلى المزبلة من تحته ثم مستوطنة كريات شيبع ثم امتداد المخيم وهو يدفع بالكاميرا ليدي ابنه ويضغط عليه وعليها:

- شوف بالكاميرا. شوف وصور. الصورة بالكاميرا زي الرسم. شوف وصوّر.

ونظر الولد ورأى الأشجار والأفق البعيد وفضاء رحبا وعصافير ورأى أزهار كروم اللوز والمشمش ومن تحتها مروج الدحنون والخبيزة وعصا الراعي، والكلب هناك بين الخضار يبتعد عنه ويتجه نحو مستوطنة كريات شيبع وساحة خضراء من خلف السياج، ووسط الساحة أرجوحة وبنت تتمرجح. بنت شقراء مثل اللعقة شعرها مربوط ذيل فرس والذيل يطير مع الهزات ويرتفع لفوق ثم يسقط على كتفيها ويعود ليرتفع ثانية كذيل طيارة ورقية. وبدت البنت كالفراشة، عصفورة صغيرة بجناحين.

ورأى أبوه الكاميرا تتجه نحو الغرب فشد بابنه ودوّر كتفيه لجهة الشرق وقال بحدة:

- الصورة هناك.

وفي المساء قال لزوجته أم أحمد، وهي امرأة بيضاء سمينه تحب الأكل وتحب ابنها حب عباده:

- يا أم احمد ، يمكن أنا وأنت دلعناه.

لم تنظر إليه وظلت تمضغ وتشتغل الصوف وقالت ببطء وبلادة:

- كيف دلعناه! ابنك ما شا الله اسم الله عليه، نظيف وعاقل وشاطر بالصف وقميصه دايماً زي الفل.

قال بحيرة:

- بس الولد زي البنات ناعم وخوّيف وعمره ما يقول لا آ ولا لأ!"

نظرت إليه ببلادة وقالت بهدوء: " بكره يتعلم من ابنك." وكانت تقصد ابنه مجيد ، فلم يجبها وظل يلعب بالريموت كنترول وينتقل من قناة إلى أخرى حتى وجد فيلماً قديماً للريحاني وهو يغني مع ليلى مراد في "غزل البنات." فابتسم وتحسر وترحم على أم مجيد وأيام زمان. كانت سمراء بلون الخبز وعيناها صغيرتان مثل اليابان، لكنها حين تضحك وتبرز أسنانا كاللؤلؤ تصبح عيناها كالألماس. ولها ضحكه كالحشاشين تخرج من قعر معدتها وتسحب نفساً وهي تشهق وتضرب بكفها على فخذه فيحس النار تلفح بدنه. وتغني له بصوت آسر "ايمتى الزمان يسمح يا جميل؟" فيصيح بمزاج وسعادة "الله الله !" وفرش معها أول بسطه، وانجب منها أول ابن له، وذاق معها مرارة العيش في المخيم في غرفه صغيره بحجم الخم وأصوات الناس وأسرار الناس وفضلات الناس على الشارع. لكنه رغم القلةكان سعيداً لأن شهير ة وأم شهيرة،كانتا تغنيان في الأفراح والليالي الملاح وتنقران الدف والطبلة كالجنكيات. ثم تطور حال شهيرة وصارت تغني على العود. ولهذا تزوجها رغم انف ابيه لأن الأب قال لابنه أن من ترفع صوتها بالغناء في بيوت الناس فهي جنكيه قليلة أصل ولا تستحق اسم العيله". أي عيلة؟!" قال لأبيه، "يابا احنا ون في المخيم!" لكن أبوه ابن حيفا ووادي النسناس كان ما زال يحتفظ بمفتاح الدار وصورة معرض سجاد حيفا لأغلى سجاد وأحلى سجاد من ايران.

وهز برأسه وهو يضحك للريحاني ويتحسر على أيامه وأيام زمان وهذا الزمن . ونظر إليها تشتغل الصوف فرأى طارات من شحم ولحم ولغاليغ مثل إعلانات "ميشلن" فتذكر تلك وهي ترقص، وهي تغني، وهي تقهقه، وتشرق بالضحك فتلمع عيناها كالألماس والخصر يهز كما الزنبرك. ابنها مجيد أخذ عنها خفة دمها وحلاوة الصوت والحركة، أما ابن هذه فهو ثقيل مثل أمه، ثقيل الظل ثقيل اللسان ثقيل الخطو والحركة فكيف إذن ينجح في السوق؟ وهل يجد مكانا في الدنيا؟ لكنه، قال الأستاذ، أحسن واحد عنده في الصف!

3

مساء الخميس جاء مجيد من جامعته فشجعه أبوه على أخذ أخيه لنادي الأثقال والبلياردو، فهذا الولد بحاجة للدعك حتى يصبح مثله، أي مثل أخيه ابن شهيرة، يضحك ويفرفش ويتعفرت. " الدنيا يا ابنيهدها رجال مثل الصوان، وهذا الولد مثل البنات عضلاته لبن ولازم له شد، خذه وشده." فلم يكذب الأكبر خبرا وأخذأخاه إلى النادي وأوقفه هناك لصق الحائط يتفرج عليه وهو يلعب ويشاهد عضلاته في المرآة.

وقف الولد خمس دقائق، عشر دقائق، ثم انتحى في زاوية وأخذ يقرأ في جريدة القدس كانت ملقاة على الكرسي. وقرأ الولد اسم الوالد وصورة مزبلة عين المرجان التي صورها بإشراف أبيه وعمودا طويلا عن المزبلة وشكاوى الناس. لم يكن قد قرأ ذاك المقال ولا رأى الصورة لأن أباه ما عاد يحضر الجريدة معه إلى البيت ولا يأخذه معه إلى الدكان وصار يشجعه على اللعب مع أولاد الحي ومدرسته ويقول له أن الكتب والقراءة أشياء جميلة ومفيدة لكن الحياة " بدها نطة." وحين رأى ابنه ساهما كعادته يفكر بالمعاني اخذ يفسر، "يعني الأرزاق بدها نطة، وحياة الناس بدها نطة، والعيشة في بلد صعبة وقاسية بدها نطة، ولما تتظاهروا وترشقوا حجار ممكن تهرب من غير ما تنط؟"

لم يجب السؤال لأنه لا يتظاهر ولا يرشق الحجارة ولا ينط ولا يركض، فقط يهرب. ففي كل مرة يشتغل الضرب ويخرج الأولاد إلى الشارع في مظاهرة تبدأ بالهتاف ثم الفوضى ورشق الحجارة وغاز الدموع كان يتسلل من غير ضجيج ويختبئ بعيدا في مكان ما، في المراحيض، تحت الدرج، خلف الحاوية،أو مقبرة عين المرجان. وهناك يظل بدون نفس حتى تهدأ معركة اليوم الصغيرة فيرجع للبيت دون أن يلاحظه أحد. وحين تراه أمه معفرا بتراب القبور ووسخ الحاوية وشعشبون الدرج كانت تلطم وتنادي أباه وهي تصيح، "شوف ابنك شوف!" ويدعي الأب عدم السماع ويدعها تولول حتى تصيح، "أنا مش فاهمة. إذا ابنك طخوه أو اعتقلوه ايش بتعمل؟" ويظل الرجل في موضعه لا يتحرك، يقرأ الجريدة ويدخن ثم ينظرإلى ابنه تلك النظرة ذات المغزى وكأنه يقول "وله يا نصّاب!" فينسحب ذاك إلى الحمام ويدع أمه تولول وتدعو الله أن يأخذها ويأخذ المظاهرات والتنظيمات والمدارس لأنها تقود الأولادإلى هذا. فيفز الرجل عن مقعده وهو يحوقل، "لا حول ولا قوةإلا باللهإ!"

نظر مجيد إلى أخيه فرآه يقرأ الجريدة ولا يلتفت إليه ولا إلى الأجهزة والآلات والعضلات ولا يتعلم. فهز رأسه يائسا وتمتم بقرف، "أما واحد لوح!" وتأمل بياضه واحمراره وثقل جفنيه وانتفاخ خديه وتذكر مخاوف أبيه. فهذا بالفعل من غير عضل ودب سمين مثل أمه. لكنه ليس سمينا، ما عاد سمينا كالسابق. أو أن الطول المفاجئ في هذا العمر جعله يبدو اقل سمنة عما يعرفه. ففي العطل السابقة كان يراه اسمن. هل كبر الولد؟ هل بلغ الحلم؟ ابن14 يبلغ الحلم؟ هو لم يبلغ إلا متأخرا، أما هذا بسبب سمنه وطوله وعرضه وأمه تحشوه كما الخنزير بلغ سريعا وأصبح صوته شبه مبحوح وصارت ملامحه اقرب لسمات الشباب رغم أن أباه ما زال يشكو ويتذمر "مثل البنات. يا الله تحرك." لكنه لا يتحرك، يظل جالسأمام التلفزيون يشاهد الأفلام المتحركة وMTV وكل رقصات مايكل جاكسون.

وتذكر نفسه في تلك السن. هل كان يشاهد MTV ؟ أيام طفولته ما كانت هناك MTV ولا MBC ولا CNN. لكن بالطبع كان هناك رقص وغناء وموسيقى. لكنه كان يتيما وبعهدة رجل وحيد حزين بسبب ال رملة، والدار كانت كالإسطبل. أحيانا تحن جدته عليه وتأخذه ليضعة أيام ثم تعيده وهي تنفخ وتقول لأبيه كما الشامتة "الحمد لله على الكبر وقلة الحبل." وهذا يعني أنها ما عادت تطيق الأولاد وهم الأولاد وما يتطلبونهمن احتياجات ومسؤوليات. وهي وقد صارت "عجوزا" كما كانت تقول، بالكاد تقوم بحالها من غير عكاكيز. لكن بالنسبة للأفراح وأعراس الناس، سبحان الله، تجد القوة! تذهب هناك وهي تركض مثل العنزة وتأخذ معها شابة صغيرة تلبس دشداشة لامعة وصاجات الرقص. وفي آخر الليل تعود للمخيم وفي جعبتها حلوان العرس وأجر الزفة وأكلا كثيرا وكنافة. وكم أخذته لتلك الأفراح. يحمل الطبلة ويلحق بها وهي تهرول، وحين تقول الصبية وهي تشير إلى الأضواء وتقرص خده "شايف الكهارب يا مج مج؟" يركض بحماس نحو الأضواء فتصيح جدته خلفه "أوعى الطبلة." فيصيح بدوره دون التفات، "ولا يهمك، ماسكها منيح." ويهرع ليقف بباب العرس حتى لا تفوته قروش الحلوان والملبس.

هذا إذن ما كان عليه ابن شهيرة، طفل يتيم بشعر منكوش وأظافر طويلة كدجاجة ويلعب في الحارة مع الأولاد ويتظاهر، أو بالأحرى لا يتظاهر، يلعب في الحارة "عرب ويهود." وحين تنطلق مظاهرة في جهة ما يلحق بها بحماس شديد كما لو كانت زفة عرس، والفرق الوحيد أن الزفة فيها الحلوان، أما هذه ففيها غازات وضرب رصاص ومعتقلات. وهذا هو الفرق بين طفولته وطفولة أخيه، وبين جدته وجدة أخيه التي تركت لابنتها دارا وزيتونا وقطعة ارض. ويتحسر أبوه ويتذمر لأن الولد من غير عضل؟ ماذا يظن حضرة أبيه؟ أيجيء العضل من أكل العسل و الزبدة وشرب الحليب؟ العضل لأبناء الحارات على شاكلته، أما هذا ابن الزبدة، فلينعم بعضلات اللبن وأكواب الحليب.

سأله أبوه بعد رجوعه برفقة أخيه من النادي، " ها شو تعلمت؟" نظر يمينا ونظر شمالا وظل صامتا يتطلع إلى الشاشة ليرى الأخبار. فنهره أبوه، "أقعد مظبوط وقل لي شو عملت؟"

جاءت أمه بصحن الفتوش وقالت برجاء، "طيب، طيب، على مهلك عليه!" فالتفت إليها وصاح بها، "بس يا حرمة، خليني أعرف شغلي معه." والتفت اليه وقال بحدة، "قل لي شو عملت؟ يا الله تحرك." فقال الولد وهو يتأتئ "قرقرقرقرأت الموضوع." فتح الرجل عينيه وأذنيه وسأل بعجب، " أي موضوع؟" قال الولد ببطء وبرود، " الزز الزز .." "احك، تحرك." "الزز الزز زبالة." انفعل الأب فصاح عاليا ينادي ابنه، "تعال يا مجيد." وحين لم يسمعه صاح ثانية بعصبية، "تعال يا مجيد ، يا الله تحرك!" فجاء الشاب راكضا وبيده منشفة الحمام وشعره يقطر ماء، "نعم يابا؟" ووقف ينظر من هذا لذاك وقد أحس أن في الجو ما يهدد راحة باله. "نعم يابا، خير انشا الله؟" حدجه أبوه بنظرة غاضبة ممتعضة وخيبةأمل وقال بعتاب، "أنا قلت لك تاخده وتشده مش يقرا جرايد ومجلات!" حاول مجيد أن يقول شيئا لكن أباه نهره بحزم، "هذا الولد مطلوب منك. خذه للنادي، خذه للقهوة، خذه لجهنم، المهم ما يظل قاعد بطّال بخلقتنا زي البنات، فهمت الكلام؟" "حاضر يابا." "رجله ع رجلك." "حاضر يابا." "وفي الصيفية تاخده معك على كل مكان تروح عليه." فحملق مجيد ولم يناقشه لأن النقاش في جو مشحون مثل هذا يسبب له أقسى النكسات ويعيق خروجه للسهرة. وحاول تغيير الجو بنكتة صغيرة لم يضحك لها أبوه الغاضب، فقال بخفة، "وآخذه بالليل مع الفرقة؟" همهم أبوه وهو يأكل، "بلا سماجة!" وبلع اللقمة وقال بقرف، "لازم له عضل. لازم له شد." والتفت إلى الولد وقال بغضب، " وأنت يا ولد، هات الساعة." وحين لم يجبه صاح بحدة، "هات النظارة والساعة. يا الله تحرك." وحين عاد الولد من غرفة النوم وبيده النظارة والساعة وجد الكاميرا بيد الوالد. سحب النظارة والساعة وناوله الكاميرا وقال لأخيه، "بكرة تاخده لمزبلة البلدوخليه يصورها كمان مرة، فهمت الكلام؟" "حاضر يابا." "يا الله تفضل، مالك واقف؟" وأشار بيده لطاولة الأكل. فجلس الجميع بلا حركة.

بعد العصر ذهبا لمزبلة عين المرجان، وقاد أحمد أخاه الكبير إلى الصخرة حيث علمه أبوه التقاط الصور. وبدأ يصور غير كلام ومجيد يتلفت بملل ويقول "يا الله، وبعدين؟!" كان مجيد يعرف المخيم عن ظهر قلب، فجدته ما زالت هناك، طفولته كانت هناك، وله أصدقاء وأقارب، ولهذا لم يجد في منظر المخيم شيئا مثيرا للاهتمام، ولا المستوطنة البعيدة مسافة فقد كانت هناك منذ سنوات، وما زالت هناك. حين أقيمت في البدء قامت طوشة وضرب ورصاص واعتقالات. ثم هدأ الناس حين يئسوا وملوا واعتادوا وتناسوا، وبعض الشباب عملوا فيها كعمال بناء ونظافة وفي المزروعات. حتى مجيد عمل فيها قبل سنتين في الصيفية ونال قرشين دون علم أبيه. وأشياء كثيرة يقوم بها دون علم أبيه، فهو يغني ويدبك ويعزف في الأفراح والمهرجانات. زملاؤه في الفرقة من الطلبة. أحدهم على الأورج وآخر على ناي وثالث على طبل افرنجي وهو يغني على صوته جميل وطوله اجمل ودبكته شهيرة بين الطلاب في جامعته وفي بيت لحم ورام الله.أبوه سأله عما يسمعه عن الفرقة فقال "فرقة طلبة وتغني أغان وطنية في المهرجانات." فقال الأب بلهجة ساخرة تشي بالهزء، "أنعم وأكرم." لكنه لم يجادله ولم ولم يردعه. صحيح أن بعضهم قالوا له بغمزة خبيثة "ورث الكار؟" وكانوا يقصدون كار سته، لكن الوالد قال لهم، "الولد بجامعته، والغنا والرقص ما يعيبوا الشباب" قالوا "داير." "داير على مين؟ على النسوان؟ طيب وماله؟ والا يقعد زي وسمع مجيد تعليق أبيه فانشرح صدره وتشجع وصار يفكر بامتهان الغناء والسفر لمصر وتسجيل كاسيت، فهل هاني شاكر منه؟ وهل مصطفى قمر اجمل منه؟ وهل كاظم الساهر أطول منه؟؟ وهكذا بات شهيرا في أوساطه، لكنها أوساط صغيرة

ومحصورة، فسكان الضفة بأكملها بعدد سكان شارع في مصر الجديدة، وجامعة بيرزيت بضخامتها تقعد في زاوية من زوايا الهرم ومحمد علي.

قال لأخيه، "خذ لي صورة." التفت الصغير وسأل بعينيه دون لسانه فضحك الأكبر وقال لأخيه إذا فزت في مسابقة الغناء والموسيقى وصورتي طلعت في الجريدة لك عندي مفاجأة معتبرة." ابتسم أحمد وأشار إليه أن يقف بعيدا عن المزبلة، فوقف مجيد وظهره للغرب. قرب الزوم وبعد الزوم ورأى المستوطنة خلف أخيه كما لو كانت من حوله. فهذه شجرة وهذا قرميد وهذه مرجوحة وهذه بنت، بنت شقراء بذيل فرس مثل اللعبة، حلوة وجميلة كما الصورة. هل تحكي عربي أم عبري؟ هل تفهم عليه إذا كلمها؟ لن تفهم عليه ولن تعرف أن لسانه يتعثر به. هل تخجل مثله من الناس؟ في مثل عمره أو اصغر. في أي صف؟ ألديها ساعة سويسرية، ساعة ديجيتال؟ هل تحكي معه إذا حاكاها؟ هي مستوطنة يهودية وأبوها مستوطن يهودي وهذا يعني أن أباها لديه رشاش وسوالف وهو أيضا من وسخ البشر. أبوه يقول، من وسخ البشر. المستوطنون هم اوسخ بشر. يعني أبوها من أوسخ بشر؟ وهي أيضا من اوسخ بشر. لكنها ليست وسخة، لا تبدو وسخة ولا قبيحة، بل هي حلوة، وحين تهوي بالمرجوحة تضحك وتكزّ بأسنانها على شفتها فتبدو وجنتاها كمشمشتين بيضاوين مشربتين بالحمرة، فهل هذا وسخ؟ هل هذا قبيح؟ أخوه، "مالك؟ يا الله." فالتقط الصورة ومشى معه حتى النادي، وهناك وقف يتفرج على العضلات والتمرينات، لكن عقله كان هناك في المرجوحة، والمشمشتين البيضاوين وذيل الفرس.

5

كافأه أبوه بأن اشترى له كاميرا جديدة وأعاد له الساعة الديجيتال والنظارة. كانت صوره ناطقة وفيها حياة. حين تراها تحس بالشمس تطلع منها وحفيف الشجر ورائحة الزهر وأنت في الوسط في قلب المكان عبر العدسة وتكبير الزوم. وصورة مجيد كانت تحفة! صورة شاب مثل عمر الشريف في شبابه وربما أجمل. نظر الوالد إلى صورة الشاب واستغرب من أين جاء بتلك العينين رغم أمه! عينان مثل عيون البقر لهما أهداب حالكة والتماع البرق. والشاب جميل كالصورة ويصلح للسينما والتلفزيون، لكنه هنا في الضفة وعين المرجان . ولو كان هناك في القاهرة أو في بيروت لأصبح مشهورا ومرموقا مثل عبد الحليم. مات عبد الحليم. بل مثل مارسيل خليفة يغني للأرض والبلد والناس ويصبح معروفا في الضفة وفي كل مكان من القاهرة حتى عمان. لكنه هنا في الضفة. وهذا الجمال، أهو الواقع؟ لم يره جميلا بهذا الشكل كما في الصورة. فهل كان السر في الكاميرا أم في التصوير؟ وهذه العيون الناطقة والحيوية، أهي الكاميرا أم من يقف خلف الكاميرا؟! وابتسم بحزن لأنه يعرف أن ابنه ذاك الخامل، ذاك البليد ثقيل الظل ثقيل الخطو ابن "ميشلن" لا يتحرك. وأن التصوير من الواقع هو نقل حرفي للواقع. لكنه – الأب – حين يصور لا تأتي صوره بهذا الجمال وهذا الإشراق والحركة. إذن فالولد فعلا موهوب. ومن الآن فصاعدا سيكون المسؤول عن التصوير. وأخوه مجيد قال بفرح إن صورته ستتكبر وتصبح بوستر لحفلات الغناء. وربت رأسه ونبش شعره وسأل [illegible] وهو يفكر "يع يع يعني، يعني أصور؟" قال الأب باندفاع سريع، "طبعا صوّر. صوّر صوّر قد بدك." سأل بتفكير، " إش إش اصور؟" اندفع الأب، "صور الناس وأمك ودارنا وولاد الحارة ودوّار البلد. اعمل لوحات. قال الأستاذ انك شاطر." سأل بحيرة، "أص أص أصور الدد الددّ الدوّار؟" طرأت الفكرة على رأس أبيه مستمدة من بوستر مجيد وإعلانات الغناء وصورة مكبرة للقدس يحفظها الناس في كل مكان فقال بحماس" صور البلد ودوّار البلد عند الجامع، صورها

الهضبة ووسع الزوم خليها تطلع زي القدس. فاهم علي؟ وإذا الصورة طلعت حلوة كثير نكبرها ونعملها بوستر زي بوستر القدس. يا الله يا شاطر."

ومنذ ذاك الحين بدأت مشاويره شبه اليوميةإلى الهضبة يصور البلدة من جهة الغرب ثم من الشرق ومنأعلى. ثم ارتقى فوق الصخرة وصوّر أزهار البريّة ونوّار اللوز وتفتيح الخوخ والمشمش وصخور الجبل والمرجوحة والبنت اللعبة وذيل الفرس.

6

أزهار الربيع تجعله يطير. شقائق نعمان وبابونج وقرن الغزال وشومر وزعتر. يمشي على ارض كالسجاد صوفه أعشاب وزنابق وسنابل قمح برية وزهر اصفر، احمر، ازرق وشمس ساطعة كالنرجس وبياض الغيم. شعرها يطير مثل القصب وخيوط الذهب وموجات الحرير. كانت أمه حين تمشطه تغني له أغنية حلوة، تنشدها بصوت متهدل، " يا قصب يا نصب، يا شعر الحرير، يا شعرات أحمد، حلوين كثير كثير." وكان يبكي حين يسمع نغمات الغناء، بل أي غناء، فتتوقف، وتتوقف يدها عن التمشيط. كانت تظن أن التمشيط يشد شعره، وحين تسلّكه بدون غناء وبحذر شديد يتوقف. لكنها تعود إلى الغناء وشعر الحرير فيعود هو لبكاء حزين يسحب قلبها من جذوره، فتستغرب. وصارت تعرض ذاك الإحساس، تراه غريبا وعجيبا. تقول لأبيه، "شوف ابنك، شوف." وتفتح الراديو فينطلق الغناء، فيجعد الطفل بين عينيه ويلوي شفتيه ثم يبكي. توقف الغناء فيتوقف، ينطلق الغناء فيبكي ويرتجف ويشهق بألم. هز الأب رأسه وهمهم بعجب ، "سبحان الله!" فتشجعت الأم وأخذت تعرض أعجوبة الطفل الباكي والموسيقى لكل الأصحاب والأقارب، وهؤلاء عجبوا أيضا لطفل يبكي للموسيقى. ثم كبر الطفل وما عاد يبكي للموسيقى، إلا انه ظل يثأثيء، ويسرح وينكمش على نفسه. لكنه في عمق العمق، ظل يبكي للموسيقى ولرؤية أشياء صغيرة ذات إحساس، عصفور صغير، قطة صغيرة، شمس غاربة حزينة، وطفلة حلوة، طفلة شقراء كما اللعبة والشعر الحرير كخيوط القصب يلمع في الضوء. وتذكر أهزوجة أمه وهي تمشطه فأخذ يدندن وهو يصور ويمشي ببطء بين الأزهار والحشائش، "يا قصب يا نصب، يا شعر الحرير... يا شعرات...؟" يا شعرات من؟ يا شعرات من؟ وكبّر العدسة ووسعها وقرب الوجه حتى اصبح لصق وجهه. والوجه الجميل ابيض ناعم والأنف صغير كالفستق وفمها مرسوم بالأحمر وشقيق الربيع. لماذا شفتاها حمراوان بهذا الشكل؟ ألأنها بيضاء وشعرها أشقر؟

سمع اسمه من خلف السياج وثغاء الغنم وناي الراعي. سمعه بعيدا وعميقا فاستدار بالعدسة حيث الصوت ورأى عيسى قريب شقيقه في المخيم يعمل في حقل المزروعات خلف السياج حيث الطفلة في المرجوحة.

لوح عيسى بيده السمراء وناداه عاليا فارتد الصدى فوق الهضبة وضاع مع الشمس. كور يديه حول فمه وناداه طويلا "يا أحماااد." التفتت البنت ورأته هناك مع الكاميرا ورأى عينيها في العدسة مثل السماء، مثل النرجس، مثل شبابيك مفتوحة على أفق الغرب حيث الأزهار والنسائم وسحاب الصيف. أحس بنفسه في مرجوحة وجسمه يتماوج ويرفرف مثل عصفور. تروح وتجيء أمام العدسة كبندول كبير فيدق قلبه كالساعة وحيتار أخيه. تك تك بم بم، تك تك بم بم. وعيناها عليه كشباكين صيفيين بدون ستائر. ما أجملها! ما أحلاها. وغرّة قصيرة تطير مع الريح وهي تعبر ثم ترتد فتتساقط شعرات الحرير. يا أحمد شو بتعمل هون؟!"

التفت إليه. أصبح الصوت قريبا جدا. كان عيسى قد صعد الدرج نحو القطانات العلوية واقترب كثيرا من السياج حتى اصبح على مرمى ذراع في العدسة، لكنه ظل بعيدا خلف السياج وأسلاك الشوك تفصل المستوطنة عن الهضبة.

أجفل أحمد وراجع ما قاله والده عمن يعملون في مستوطنة كريات شيبع. حين عرف أبوه أن مجيد يعمل هناك في الصيفية عمل طوشة ورفع صوته وهدد بالضرب والتبرؤ. قال له " اتبرأ منك. أقول للناس لأنت ابني ولا اعرفك. انشرها في الجريدة على مدى أسبوع حتى يعرف كل العالم انك منبوذ. فاهم شو بقول؟" كان ذلك قبل سنتين. وكان أحمد يسمع ويسجل في عقله ويرتعد بخوف. لكن مجيد حمل الجيتار وخرج من الدار وذهب لجدته في المخيم. وحين ذهب أبوه لإحضاره كان عيسى يجلس معه على العتبة يدخن سيجارة ويشرب الشاي ويطقطق بأظافره على بطن الكوب. كانت أظافره سوداء ووجهه اسمر بلون محروق وملابسه قذرة ومهترئة ورائحة العرق تحت إبطه مثل الكمون. وكره الكمون وأكل الكمون وكل أكله فيها الكمون لأن الكمون مثل عيسى ورائحة العرق.

قال الوالد، "يعني فهمنا تشتغلوا هناك في مصانعهم، لكن في الأرض، بعين المرجان عيني عينك؟!" لم يجبه مجيد وظل مطأطئا ينظر للأرض. لكن عيسى نظر لفوق نظرة وقحة وقال ببرود ، "يعني شو الفرق؟" خرجت الجدة ووقفت في الباب وقالت مهدئة بذعر ظاهر، "طيب، طيب،أولاد صغار!" مد يده وصفع ابنه على قفا رقبته وقال بغيظ،أولاد صغار؟ كل واحد فيهم قد الثور، أولاد صغار! قم يا ابن الكلب. هات الجيتار. ملعون أبوك وأبو الجيتار. يا الله تجهنم. قدامي قوام. وإذا عمرك عدتها وشفتك هناك بكسر راسك." والتفت إلى الأصغر، وعاد يكرر حتى يفهم الطفل أبعاد الدرس. "بشتغلوا لليهود بأراضينا عيني عينك! يا اولاد الكلب!" ثم نهر مجيد وهو يمشي مطأطىء الرأس بلا جيتار، "فاهم شو بقول؟" ثم للصغير وهو يتعثر بجيتار أخيه، "وأنت كمان، فاهم شو بقول؟" وحين لم يجبه أي منهما صاح بحنق، "وهذا العيسى هالإبن الكلب، والله إذا شفتك تحكي معه لأكسر راسك، فاهم شو بقول؟"

وها هو عيسى يتودده ويتطلع إليه عبر الشعاع ويده السمراء فوق جبينه، "وله يا احمد شو بتعمل هون؟"

واقترب كثيرا من السياج وهو أيضا اقترب كثيرا بلا وعي منه. قادته قدماه للمرجوحة و إحساس غريب بالا نشدا ه والانشداد ودبيب النمل في جسمه وقلبه يدق كما الساعة وجيتار أخيه.

تأتأ بخجل وخوف ونفور،

- بص بص بص.
- كاميرا رهيبة!

قال عيسى وهو يرمقه ويرمقها بنظرات شرهة مفتونة،

- خليني أشوف.

ابتعد احمد خطوة للخلف مع أن السياج يفصل بينهما وأصابع عيسى مشبوكة في الفتحات الصغيرة وأسلاك السياج.

- مالك؟ مالك؟ من مين خايف؟

ونظر خلفه نظرة خاطفة نحو البنت وعاد إليه وابتسامة قبيحة على وجهه،

- خايف منها؟

ولوح بيده تلويحة حادة تشير إلى الهزء وعدم الخوف وقال همسا،

- ولا يهمك. انا بعرفهم. بتخاف منهم؟

لم يجبه أحمد وظل واقفا وبيده الكاميرا و إحساس غريب بالا نشدا ه والإثارة ودبيب النمل في جسمه ورفيف القلب. يريد أن يتكلم، أن يحكي معه ويقترب منه، منه ومنها، وان يعبر إليه واليها وخط الأسلاك، ويسأله عنها وعن اسمها وفي أي واسم أبيها. وأبوها ذاك ألديه رشاش على كتفه؟ ألديه سوالف وطاقية؟ هل يصلي مثل الحردون أمام الأسوار كما يفعلون في

التلفزيون؟ هل يكره العرب ويطخ العرب أم هو لطيف مثل ابنته؟ وابنته هذه هل تحكي مع عيسى وتناديه؟ وكيف تناديه؟ أتخاف منه لأنه عربي؟ ماذا تناديه وكيف تناديه؟ وبأية لغة؟ وهل تلفظ العين مثل الألف؟ واسمها هي، ما اسمها هي؟

واقترب قليلا من السياج ونظر بالورب وقال برهبة،

- إش إش إش إش.

ضحك عيسى وصاح به،

- بس تأشئش. مالك؟ خايف؟

طبعا خائف، لكن من عيسى ومن أبيه وليس من البنت. لكن اندفاعه نحو البنت في المرجوحة جعله يقترب ويؤشئش اكثر وأكثر،

- إش إش إسمها؟

التفت عيسى نحو البنت وقال بسخرية واستهزاء،

- خايف منها؟

والتفت إليه وقال بثقة،

- بنت صغيرة بنفخة بتطير...

وفرك السبابة والإبهام وقال بثقة،

- زي القملة.

وفرك إصبعيه ثانية ولوح كفه وعاد إلى الكاميرا يرمقها بافتتان حسود،

- خليني أشوف. قرّب، قرب. ارفعها لفوق.

لم يرفعها وظل واقفا لا يتحرك. أراد أن يهرب من عيسى لكن البنت ومعرفة البنت واسم البنت وهو يريد أن يعرف ما اسم البنت بأي ثمن، والثمن التحدث مع عيسى وعصيان أبيه وتكسير الرأس. كما أن عيسى يقول عن البنت مثل القملة، وفرك أصابعه كما لو كان يفرك قملة. وأحس بالبغض وبقرف شديد من عيسى، لكنه لم يتحرك، واقترب ثانية وهمس،

- إش إش اسمها؟

- مالك ومالها!

صاح عيسى،

- إرفعها لفوق. بقول لك ارفع.

رجع للخلف ببطء شديد، ثم بخطوات أوسع، ثم استدار وبدأ يركض، يركض يركض وكأن عيسى من خلفه يقتفي أثره ويمد يديه ويفرك أصابعه ويقول "زي القملة."

حرص على استرجاع الصور بنفسه. ابوه قال "عفارم عليك. أنا بدي تكون شاطر ونشيط وعندك احساس وناوله النقود لاحضار الصور. فأسرع بالخطو على غير عادته ودخل الاستوديو وقال بسرعة وهو يلهث، "إص إص إص إص." ابتسم الشاب خلف الكاونتر وردد خلفه، "إص إص إص إص؟" إحمر وجهه حتى صار بلون الشمندر وورب عينيه وكور كفيه

وبلع ريقه. خرج المصور من خلف الستار وسأل بدوره، "ابن ابو مجيد؟ أهلا أهلا، كيف حال ابوك؟" ابتسم بصعوبة ان يبدو طبيعيا، "مب مب مبسوط." التفت المصور نحو الستار لأن صوت زبون هناك صاح ينادي، "يا الله، جاهز." فاستدار المصور وهو يقول، " سلم لي عليه وقل له ييجي يشرب فنجان قهوة." هز رأسه ولم يجبه ونظر نحو الشاب ومد يده. حرك الشاب رأسه وقال همسا، "إص إص إص إص؟" أحس بالدم يرتفع لرأسه وأذناه تنملان وتحكانه فحك واحدة وترك الأخرى أمل ان يحكها حين يخرج وبيده الصور. لكن الشاب كان لئيما ويريد ان يتسلى قليلا مع الصبي ذي الوجه الناعم مثل البنات فأمسك بمظروف الصور وأخذ يهزه وهو يهمس "إص إص إص إص." أحس بالدموع تغبش عينيه فلم ينظر وظل الجفنان مرخيان ويده ممدودة كيد شحاذ. انحنى الشاب فوق الكاونتر واقترب منه حتى كاد أن يلمس وجهه وقال همسا، "إص إص إص إلصورة لمين؟ مين الشقرا؟" لم يجبه الولد فعاد يهمس بخبث ضاحك، "مين الشقرا؟" اندفعت موجة من البكاء الى حلقه ثم عينيه فهجم على الصور واختطفها وأخذ يركض، يركض، يركض، ثم توقف ومسح عينيه وحك أذنيه ونظف أنفه وخبأ الصور تحت الكنزة وضغط عليها بكلتي يديه كما لو كان يخبئ أشياء مسروقة وهرع نحو ممر الدار فالحديقة واختبأ خلف وجلس على الأرض وأخرج الصور وأخذ يقلب ويبحث عنها حتى وجدها. وجه محاط بهالة شعر مثل القمر وشعاع الشمس. بروفيل صغير لوجه جميل لطفلة كبيرة، فلا هي طفلة ولا هي فتاة، بين البينين مثله هو. هل تخجل مثله من عمرها؟ هل تكذب أحيانا وتزيد سنة أو سنتين حين يسألونها "كم عمرك؟" هل تخجل من التغير في جسمها وفي صوتها وتحت إبطيها وهناك، في ذاك المكان؟ هل تدع أمها تحممها؟ هل تخجل وتصيح "لا" إذا حاول أحد دخول الحمام وهي عارية بلا ملابس؟ هل أحد من صوتها كما يسخر منه اخوه؟ لكن البنات بصوت واحد لا يتغير، يتغير قليلا لكنه لا ينفلق ويصبح صوتين. هل لها أشياء تخفيها؟ لكن اليهود لا يخفون أشياءهم مثل العرب ويكشفون ما لديهم لعيون الناس وعيون الشمس حتى تصبح جلودهم مثل البطاطا المشوية وبنمش غريب. هل هي نمشاء؟ ونظر إلى الصور يتأملها، ورأى نمشات قليلة حول أنف صغير كالفستق أحمر مثل الشقيق وأسنان بيضاء كبيرة أكبر مما يستوعب فك صغير. لكن الفك حين يكبر ويكبر الوجه ستصبح أسنانه معقولة كما قال أبوه. لم يقل عنها بل قال عنه، وهي مثله في هذا العمر.

وتحسس أسنانه وأضراسه وقال لنفسه، "أكيد أكيد لم تبدل طواحينها بعد." وتحسس رقبته حيث الجوزة وابتسم بسخرية من نفسه فحتى هو لا جوزة له. وكذلك البنات لا جوزة لهن. لكن لهن جوزات هناك، جوزتان اثنتان، ثم تصبحان كبطيختين مثل أمه. وضحك للشبه والتشبيه فأين صدر هذه من صدر تلك! وحاول ان يبحث في الصورة عن الجوزتين ولم يجد إلا فستانا مزهّرا منبسط الصدر بلا ملامح. لكن في الغد سيتأكد.

وفي الغد صعد ليتأكد، ورأى جوزتين صغيرتين بحجم زيتونتين تثيران العاطفة والإشفاق. لكن شعرها مثل القصب، وخداها ملسوعان بشمس الربيع واحمرار التعب. كانت تلعب لعبة الإكس وحدها من غير رفيق. تقفز على رجل واحدة فينط الثوب المزهّر وذيل الفرس ينسدل ناعما مرة على الصدر ومرة على الظهر، وهي تقفز وتعد البيوت. آحاد، اشنايم، شالوش، ارباع. فردد خلفها من غير صوت: واحد، اثنين، ثلاثة، أربعة. واقترب كثيرا من السياج وهي تكرر: آحاد، وتقفز، اشنايم، وتقفز، شالوش، وتقفز، اربع، وتقف. ثم استدارت من جديد وواصلت العد. وهذه المرة، أثناء القفز، كان يردد بصوت مرتفع حتى تسمعه: آحاد. اشنايم. شالوش. اربع. التفتت إليه ووقفت لحظة تتأمله من تحت لفوق وحطت عيناها على الكاميرا عادت للقفز من غير عد، فرفع صوته: آحاد، اشنايم، شالوش، اربع. ورآها تبتسم خلسة فرفع صوته: آحاد اشنايم شالوش وادعت أنها لم تسمعه وظلت تنط ورأسها للأرض. فأمسك بالكاميرا وصوبها نحوها وادعى انه يقوم بالتصوير فخبأت وجهها كفيها وهزت رأسها وقالت " لو، لو." فقال ضاحكا "لو لو: لا لا؟" واقترب كثيرا من السياج حتى أصبحت أصابعه بين الفتحات. نظرت إليه من بين كفيها ورأت الكاميرا معلقة على صدره فحدقت فيها مبهورة وقالت همسا، "كاميرا ديجيتال!"

مباهيا وهو يمسك بها ويشير لها، "كاميرا ديجيتال." فلم تعلق وظلت تتطلع للكاميرا. ومد معصمه ورفع كم كنزته وأشار في يده وقال باعتزاز، " ساعة ديجيتال." همست مرددة وهي تنظر للساعة باهتمام، "شاعة ديجيتال!" قال مصححا، " ساعة، ساعة." قالت مؤكدة، "شاعة، شاعة." فأسرع يخرج النظارة من جيبه ووضعها على عينيه وقال ضاحكا، "ونظارة ديجيتال." بهتت لحظة وهمست، "ديجيتال؟!" وبدأت تضحك، تضحك، تضحك، والذيل يموج، ساعة يمينا وساعة شمالا وساعة وهي تخبئ أسنانها الكبيرة بيديها وتقول، " ديجيتال، " وهو يقول "ديجيتال، ديجيتال." وكلما رفع النظارة وأعاد وضع النظارة وردد "ديجيتال،" تطلق ضحكة أقوى وأقوى حتى سمعا صرخة عيسى وهو ينادي، "وله يا احمد شو بتعمل هون؟!" فالتفتت مبهوتة نحو الصوت ثم إلى أحمد والكاميرا لكنه ابتعد قليلا، أكثر، أكثر، ثم انطلق نحو الهضبة وبدأ يركض.

8

أشارت إلى عينيه حين خلع النظارة وقالت "عينايم." قال مصححا، " عينان، عينان." أشارت الى اذنيها باسمة وقالت بوضوح كما لو كانت تعلمه " أذنايم." قال مؤكدا "أذنان، أذنان." مدت يديها نحو السياج والكاميرا وقالت "يدايم." شد على الكاميرا والكلمات وقال بثقة وكأنه يكتشف الشبه بين اللغتين ويكتشفأيضا انه لا يأتي ء حين يتحدث إليها لأنها لا تفهم عليه، أو ربما لأنه يلفظ الكلمات ببطء شديد، فسر كثيرا وازداد ثقة بنفسه ووضع كفه على صدره وقال ببطء "أنا أحمد." تأملته وابتسمت وقالت "آمد؟" عاد يكرر "أحمد، أحمد." اتسعت ابتسامتها ورددت "آمد، آ مد." هز رأسه نفيا ووضع يده على صدره وقال بوضوح "أنا ..." وأراد أن يتبعها بكلمة أحمد لكنه سمعها تقول "آني ميرا." فهز رأسه وابتسم لها وهو يشير إلى صدره "أنا أحمد، أنت ميرا ." قالت مرددة خلفه "آني ميرا، آتا آ مد."

وهكذا صارا صديقين، أو ربما مشروع صداقة، سر صداقة . سر لا يجرؤ على البوح به حتى لأخيه ولا لأمه. فمن هي صديقته هذه؟ ابنة مستوطن بطاقية ورشاش ضخم وأبوه يقول من أوسخ بشر، من وسخ البشر. هو يعرف تمامأن ميرا ليست وسخة وليست قبيحة، بل هي للحق اجمل مخلوق رأته عيناه. وهي لطيفة ونغشه وحِركة وتحب الإكس ونط الحبل بعكسه هو لا يحب إلا الكاميرا ودروس الرسم والقراءة والMTV. كما انه لا يحب الكلاب، بعكسها هي، فلديها كلب إفرنجي لونه ابيض اسمه "بوبو" تلعب معه وتطعمه الخبز وعلب التونة. تحضر له علبة صغيرة فيها تونة لونها غامق مغطاة بمادة شمعية. تونة؟ لكن التونة لونها فاتح وغالية الثمن وتضعهاأمه على العشاء حين يجيء مجيد من جامعته أو يأتي ضيف على العشاء بدون توقع، فيأكل التونة بشهية ويتسابق عليها مع مجيد. لكن مجيد يسبقه ويغرف أكثر لأن اللقمة في فمه أكبر وأكبر فينهره أبوه "مالك مفجوع؟" فيختلس مجيد نظرة نحو الأصغر فيجده يبتسم ويأكل ورأسه في صحنه فيقرصه تحت الطاولة ويقول "دب." يقولها همسا فيسمعه أبوه فينهره "ايمتى تكبر؟" لكن مجيد لا يكبر. بل أحيانا يحس بمجيد اصغر منه، ولد مثله، ولد صغير، كبير يحلق ذقنه. وهو أيضا سيحلق ذقنه، لكن متى؟ وجهه ما زال مثل وجوه البنات ، مثل ميرا، وصوته ما زال مشقوقا مثل المبحوح، وحبوب صغيرة وقبيحة بدأت تظهر عند ذقنه وفوق جبينه. أمه تقول "هذا حب الشباب" فيتفاءل لأن الحبوب دليل الشباب أو بدء الشباب، أي انه بدأ يكبر. وهو فعلا بدأ يكبر. البنطلون صار اقصر، وأكمام القميص صارت اقصر، وحذاء العيد صار اصغر مع أن العيد ليس بعيدا، منذ بضعة أشهر، وكان الحذاء على قياسه، لكنه الآن يضايق رجله. وأبوه قال "هذا

الولد رجله كبيره، طالع مليان ." همس مجيد ساخرا "طالع دبدوب." فرفسه بقدمه وقال بغيظ " إن إن إنت." فنهرهما وهو يمضغ "بس أنت وهو، كلوا عالسلئيت."

طالع دبدوب؟ لا لم يطلع. فها هو يرى خصره ينحف وبطنه يضمر وطوله أطول مما كان عليه قبل أشهر، كما انه بدأ يفهم ما معنى الحب. في التلفزيون يرى القبلات ويتساءل ما إذا كان التقبيل بهذا الشكل للأجانب أم أن العرب يفعلون ذلك مثل الباقين. وهل أبوه يفعل هذا؟ وهل أخوه؟ وهل أمه؟ لكنه أبعد أمه عن خياله لأن أمه ليست كالناس، فهي أمه، وهي من كانت تغني له "يا قصب يا نصب، يا شعر الحرير." وهي من كانت ستغني لميرا أيضا لو رأتها، يا قصب يا نصب. لكنها لن تغني لها، لأن ميرا ليست منهم، بل منهم هم. فأمه أيضا تقول بحقد وغضب أن اليهود ليسوا أوادم، وطبعا ميرا هي بنت يهود، وهي وإن كانت لا تعرف أو لا تأبه أو خارج المسألة كليا إلا أنها أيضا منهم حتى وإن كانت لا تعبأ إلا بالإكس والمرجوحة وكلبها بوبو. ولاحظ أيضا انه لا يخاف من كلبها بوبو. ربما لأنه صغير جدا بحجم القطة وشعره طويل مثل الريش وذيله مفروش كالنخلة وهو مرفوع ويتحرك حين يناديه. بل انه لحس كفه. مد أصابعه من خلف السياج فلحس أصابعه ونظر نظرة غريبة مثل الإنسان. هل الكلاب مثل الإنسان؟ وهل هذا الكلب ليس منا بل منهم هم؟ وهل هذا الكلب اذا رأى كلبا منا سيهجم عليه ويعضه؟ لكن الكلب في الكاميرا عند المزبلة كان مخيفا مع انه كلب عربي، أما هذا، هذا البوبو، مثل ميرا، أحلى مخلوق في الدنيا.

9

بات مشغول البال وينظر كثيرا في المرآة يعبث بحبوب الشباب ويمسد شعره ويتفقد جوزته وأسنانه. حاول أن يجعل من شعره شبيها بشعر أخيه فوضع عليه كثيرا من "الجل" حتى اصبح واقفا مثل القنفذ. وحين جاء أخوه من جامعته ورأى حنجوره مخسوفا أمسك خصلة مثل ذنب الفأر وقال بقرف "هذا من الجل والا شحمة؟ عامل حالك مايكل جاكسون وأنت دبدوب؟" فعاد يأسى اكثر من قبل وقال بحدة "إن إن إنت." فلوح مجيد يده بنفاذ صبر وأخذ الحنجور وخبأه في مكان ما. لكنه قال له بعد ساعات وهو يبتسم بألفة "شعرك ناعم أحلى بلا جل." لم ينظر إليه وظل يتابع مايكل جاكسون ويدعي انه لا يسمعه. فقال مجيد "مايكل جاكسون كان يتمنى لو شعره ناعم مثل شعرك." قال بحرد "طب طب طيب، طيب وأنت؟" ابتسم مجيد بحنيّة وشيء من الفخر إذ ان الصغير يحاول أن يبدو مثله، وهذا يعني انه يتخذ منه مثالا. وغدا أيضا، حين يفوز بمسابقة الغناء ويسجل الكاسيت ويصبح نجما سيكثر أمثال هذا الدبدوب ممن يحاولون تقليده. فقال بثقة "شعري أجعد والجل معمول لمثل شعري." وحين رأى نظرات أخيه الحزينة والحائرة قال بإشفاق "شعرك أحلى." لكن حبه للأضواء والنجومية جعلاه يضيف بجدية، "أحلى بلا جل."

10

لحس أصابعه بوبو وزحف على الأرض تحت السياج ووصل إليه. بطن بوبو أحدث فتحة أو شبه حفرة بين السياج وبين الأرض فرفعت ميرا طرف الشبك بأصابعها، لكن الشبك كان أقوى. نظرت إليه ليساعدها لكنه نظر حوله ثم إلى الشبك وقال "لو، لو." ثم أردف تأكيدا لنفسه ثم لها "لا لا، لو لو." مدت يدها تحت للشبك وقالت "كين كين." ثم قامت وابتعدت عنه وركضت نحو عمود صغير يسند شجرة في طور النمو وسحبته من الأرض وعادت به. أدخلت العمود في الحفرة وأخذت

ارتفع السلك بضع إنشات ثم توقف. أخذت تشد وتشد وتشد، واحمر وجهها وتورد، وعضت شفتها بأسنانها وهي تحاول ترفرف على وجهها وذيل الفرس يلوح ويموج ومنابت الشعر فوق الغرة صارت حمراء. نظرت إليه وهي منحنية ورأسها في مستوى ركبتيه فأحس بالخجل يطغى على الخوف وركع بموازاتها وقال "هاتِ." قالت كالببغاء بدون فهم "هاتِ، هاتِ." وأعطته العمود وظلت تقول "هاتِ، هاتِ،" وهو يرفع. ارتفع الشبك وأصبحت الفتحة تتسع لطفل فبدأت تزحف. وقف على قدميه وابتعد خطوة وحرك يديه مشيرا لها أن تتراجع وهو يردد "لو لو، لا لا." لكنها زحفت نحوه وصارت عنده. ورفعت فمد يده بتلقائية وسحبها إليه. هجم بوبو على الاثنين وأخذ ينبح ويلحس ساقيها ويرفرف بذيل النخلة. حملت بوبو وأخذت تركض فوق الأعشاب وفوق الصخور وبين الزيتون وأشجار الخوخ وهو يركض. تلتفت إليه وهي تصرخ: بوبو بوبو. والكلب ينط ثم يزحف مثل الحرباء على بطنه، وحين تقترب وتمد يديها لتلتقطه يهرب منها، والولد مبهور ويراقب. أمسكت الكلب والتفتت إليه وصاحت "كاميرا،" فلم يستوعب. أشارت إليه بقبضة يدها وهي تضعها على عينها وتقول "كاميرا." فأحس بفخر لأنه يملك كاميرا هامة ولأن البنت تطلبها. فأخذ يصور وهو يردد والبنت تعيد من خلفه: آحاد، اشنايم، شالوش، اربع. تعد وهو يصور حتى وصلت لرقم عشرة فصاحت بفرح "عيسر." لكنه انتبه فجأة وتذكر أباه والمصور والشاب اللئيم خلف الكاونتر يقترب منه ويقول بخبث: إص إص إص، الصورة لمين؟

11

جاء مجيد من جامعته وأعلن الخبر الأكبر: يوم الخميس مسابقة الغناء ولهذا لا بد له من جينز جديد وجاكيت جلدي وحذاء جديد طلياني.

قال الوالد، "خير انشا الله، ليش طلياني؟" قال مجيد أن في السوق بوط طلياني يأخذ العقل، وهو يريد أن يبهرهم، فالغناء الجميل لا يكفي، ولجنة التحكيم ستلاحظ كل التفاصيل. "وتلاحظ البوط الطلياني؟" سأل الوالد. لم يجب مجيد وظل يحدق في أصناف الأكل دون أن يلمس شيئا فلاحظه أبوه، فهذه إشارة على أن الشاب سيحرد ويعلن الإضراب عن الأكل. فهز رأسه بغيظ مكبوت: ما شاء الله! يضرب عن الأكل؟! في زمنا كان الأب يحرم أبناءه من الأكل إذا اقترفوا أدنى غلطة. في زمنا كان الأكل مكافأة وليس صفقة. ألأنه يربي أولاده بشكل جيد ويجعلهم أوادم بين الناس يدفع ضريبة تربيته؟ ألأن الأكل المتوفر دوما في الدار وثلاجته دوما تطفح باللحم والبيض والزبدة يصبح الأكل مجال ابتزاز؟ ألأن ابنه لم يعرف الجوع ولم يدر بالصينية ولم يبع العلكة على الأرصفة ولم يعش في المخيم يتصرف مثل الأفندي ويحرد عن الأكل ولا يأكل؟! أما ابن كلهم! بغضب، "تفضل كل." قال مجيد، "أنا مش جوعان." عمرك ما أكلت! أراد أن يصرخ ويهدد، أراد أن يثور ويتوعد، أراد أن يذكرهم بشقا الماضي وزمهرير البرد وهو يحمل الصينية ويتزحلق على وحل الطريق ودموع أبيه وهو يذكر أيام العز في حيفا وبيع السجاد في معرض مثل المتحف وهو الآن أمام بسطة يبيع النعنع! أيام العز، أيام الأمان والكرامة انتهت الآن، بات الإنسان بلا قيمة. ويبكي أبوه، يبكي بهدوء لأن النعنع لا يأتي بشيء يكفي العيلة، ولأن العيلة بحاجة للأكل، ولأن الأكل اصبح ندرة، ولأن الأولاد صاروا أجراء عند الباعة وصار أحدهم يبيع العلكة وآخر يعمل في البناشر وثالث يعمل في دق الحمص والفول وتزوجوا من خادمات وجنكيات. وهو بالذات تزوج شهيرة فقاطعه أبوه. قال له في ذاك الوقت ان من تغني في بيوت الناس فهي جنكية قليلة اصل ولا تستحق اسم العيلة أسم العيلة! وهل بقيت عيلة ولها إسم! يابا اصحى! قال لأبيه، إحنا اليوم هون في المخيم. راح الكرمل ووادي النسناس، راحت حيفا!

قال مجيد مناقشا، "يابا الطلاب بيعيشوا حياتهم بالطول والعرض. أنا طلباتي عمرها ما تزيد. طلباتي دايما معقولة."

معقولة؟ نظر إليه بغيظ وغضب. تأمل شعره المسبسب بالجل. تأمل قميصه الاميركاني. تذكر حذاءه الرياضي بعشرين دينار، بخمسة وعشرين ويمكن ثلاثين. حذاء رياضي كوتشوك بثلاثين دينار؟ إسمه بنيتون، اسمه كارلتون، اسمه واشنطن، هو لا يدري، لكن الحذاء صار له اسم. ما هذا الجيل؟ ما هذا الدلع؟ ما هذا الشعب؟ وأراد يفقعه محاضرة تهز بدنه وتذكره أن البلد راحت وانخسفت وان ثلاثة أرباع هذا الشعب باعوا العلكة ووقفوا عالدور أمام الانروا وأخذوا المؤن كالشحاذين وعاشوا عيشة كلاب المزابل. أراد أن يقول ويقول ويقول لكنه خاف من القول لأنه قال مئات المرات حتى باتت حكايته مملة كالأسطوانة المشروخة. وأصبح يلتفت إلى الولدين فيراهما يتبادلان النظر وكأنهما يقولان لعضهما "هه، بدينا!" أي أن مأساة طفولته وبيع العلكة والمخيم ومؤن اللاجئين أضحت سخرية للاثنين، بل للعشرات، بل للمئات من جيل اليوم، جيل اليويو، جيل الغناء الإفرنجي والMTV . أما اولاد كلب! أهذا هو جيل الأمل والمستقبل؟ هذا بالعربي جيل مائع صائع ضائع تربى على الدلع والشوكالاتة. جيل لا يقرأ ولا يكتب، جيل لا يسمع أم كلثوم بل يسمع ميمي ومادونا. تلك أصوات وحناجر؟ بل لحم ومرق ولظاليظ. من أين جاءوا بهذا القرف؟ من هذا الجيل؟ أنعم وأكرم. وتشرفنا يا جيل الدِش.

قال لمجيد بحزم مغتاظ،

– وين ما تروح، رجله ع رجلك.

قال مجيد مساوما،

– طيب والبوط؟

صاح الرجل بعلو الصوت،

– بلا بوط بلا زفت بلا حكي فاضي. خليك رجّال وبلا مياعة. إحنا ناقصنا؟! قلنا الجيتار طب وفهمنا، وجاكيت الجلد وتحملناه، وكمان البوط؟

ونظر إلى ابنه فرآه متجهما حزينا وكأن الدنيا قد انخسفت فقال بسخرية واستهزاء،

– يعني الطرب كان ناقصه البوط؟!

استدار مجيد بوجهه لجهة أخرى فاستمر أبوه،

– ولجنة تحكيم تحكم على صوتك من بوطك؟ أما تحكيم! أما لجنة! وتغني بصوتك من بوطك؟ طب والحافي يغني من وين؟

فز مجيد عن الطاولة ورفس الكرسي فناداه أبوه،

– ارجع لهون، تعال ارجع.

لكن مجيد لم يرجع، بل دخل الغرفة وخبط الباب.

أما أولاد كلب! أما مصيبة! ماذا يفعل بهؤلاء الشباب؟ ماذا يقول وماذا يكتب؟ كتب كثيرا عن هذا الجيل وميوعته، وعن مستوى الوعي وهبوطه، وانتشار الفساد بين الطلبة، وعن إسرائيل تعبث بالجيل وبالطلبة بتسويق العهر والعمالة وتهريب الإيدز والمخدرات والسلاح الرخيص. ولم يكتفوا بأسواقنا نحن، بل والأسواق العربية. وها هي أجيال تلو أجيال تحصد العار والهزيمة، فكيف إذن نتخلص منهم؟ كيف نرتاح؟ كيف نحيا ونرفع رؤوسنا بين الناس ونحن زبالة؟ زبالة، زبالة!

والتفت إلى ابنه الأصغر وحدجه بغضب وصاح فجأة، "وين الصور؟" التخم ذاك واحمر واصفر وأخذ يتأتيء، "إص إص إص إص؟" رفع الرجل صوته بالأمر، "صور البلد، صور الزبالة؟" وانتابته موجة من السخرية المرة فقهقه بجفاف وهو يردد، "

صور البلد وصور الزبالة، يعني فيه فرق؟" ولم يجبه ذاك، بل اخذ يتململ في موضعه وينقل نظره بين الأكل ووجه أمه فقالت وهي ترى ابنها وحيدها ونور عينيها يتلوى بخوف وذهول، "على مهلك عليه."

نفض الرجل يده دون أن يلتفت إليها وقال زاجرا ،

- بس يا حرمة، خليني أعرف شغلي معه.

قالت بضعف،

- طيب، طيب، بس على مهلك، على مهلك عليه.

فلم يجبها واكتفى بهزات رأس مريرة. فهذا الولد حبيب أمه أضحى خرقة من كثرة الدلع والتدليل، وذاك الولد صار مخنثا بسبب الموسيقى والجيتار وحلم بتقليد مصطفى قمر وعمرو دياب. وهو ابن جيل زمن النكبة تربى على الفقر والثورة وحرب فييتنام. أي أن النكبة بالنسبة له سبب الثورة. والثورة كانت قومية. وحرب فييتنام كانت النور والمنارة لكل الشعوب المقهورة مثل شعبه. كانت مثالا وشعارا لكل الثورات. وها نحن الآن، لا نور ولا ثورة ولا منارة ولا حتى مثال حرب فييتنام. فكيف إذن نخرج منها ورطة الهم والقرف والذل؟ ورطة عويصة وقعنا فيها حتى الأذنين . ورطة صنعناها بأيدينا وبلعناها كحد السكين. ماذا فعلنا؟ ماذا انجبنا وخلفنا؟ ماذا أنجبت يا ابن مخيم عين المرجان؟ أنجبت ولدا معاقا ينظر بالورب ويحكي بالورب ويأتي بيء، وآخر يغني من بوطه، بوط طلياني بكذا مبلغ. أما ثورة! أما مبلغ!

قالت الأم بحنان بليغ،

- الله يخليك ما تكسر خاطره وما تذله.

التفت إليها وصاح بها،

- أنا أكسر خاطره وأذله؟ أنا يا حرمة؟

قالت بحزن،

- يعني المسكين بين الطلاب وفي الحفلة، خليه يفرح. الله يخليك خليه يفرح.

التفت إليها وتأمل في خلقتها فرأى أنثى يرتاح الرجل لعشرتها. فهي للحق مخدة من ريش يغطس فيها، ينام عليها، يكمشها فتنصاع لقبضة يديه، ويحس النعومة من تحته وفوقه وعليه. وجه ناعم، صوت ناعم، جلد ناعم، ولحم كمخدة من الريش. ولها قلب مثل الذهب وصفاء الحليب. احتضنت الولد بعدأمه وأنسته اليتم. ومع أن الولد صار يناديها "يا خالة" إلا انها تسرع وترد، "نعم يا ماما؟ روح يا ماما، تعال يا ماما." وكذا ابنها حين يناديه ويتحدث إليه يقول "مجيد مجيد مجيد" وكأن مجيد هو سيد الكون والشاطر حسن وشبيك لبيك. وهذا يرضيه، نعم يرضيه، بل حتى يذيب صلابته ويجعل من قلبه أرجوحة ومخدة من ريش. حتى هو أصبح من ريش. حتى هو أضحى عجينة، بل بالوظة. لماذا يقول شيئا جادا ينساه غدا؟ لماذا يهتز بهذا الشكل أمام المرأة ودموع الابن؟ لماذا ينسى ما يكتبه في الجريدة حين تراضية أو تزعل منه؟ حتى مع تلك كان عجينة. تلك الملعونة اللعوبة ذات الضحكات الحشاشة وصاجات الرقص. وقد كان يظن أن رخاوته ورقة قلبه سببها الحب. لكنه الآن، بات يعرف، فالسر ما كان في شهيرة ولا في لطيفة ولا أولاده ودموع أبيه. بل كان فيه وفي قلبه. لأن قلبه ليس كقلمه. فالقلب حنون جدا جدا، رقيق جدا، ضعيف جدا، ويحب البيت وعائلته، ويحب الستر.

قالت بلطف، "الله يخليك!" ونظرت إليه تلك النظرة، ومدت يدها الناعمة الرطبة فغطس فيها وأحس بالدفء والنعومة، أحس ببخار مشاعره يتصاعد منه، وأحس بقلبه يتجاوب وينسى غضبه من هذا الجيل ومن إسرائيل ومن إحباطه كصحفي صغير بياع كتب في بلد فقير، فقال لنفسه: يعني الثورة جاية من بوط؟! والتفت اليها وقال بحزن،

- طيب، طيب، نشتري له بوط.

بدت رام الله كالأفلام، وبنات رام الله كالفنانات يلبسن الجينز والضيق وبلا أكمام. شعورهن المنكوشة مصبوغة ويقدن الجيب والسيارات ويسهرن الليل في المطاعم ويشربن البيرة ويدخن ويمشين مفاحجة كشيوخ الشباب. صحيح ان المنارة ووسط البلد لا يختلفان كثيرا عن عين المرجان من حيث النظافة والفوضى والجو القروي المتمدن ونساء يمخرن بالجلباب والأثواب واليوانس، الا ان مرور شلل الشباب والصبايا من بيرزيت والكليات وبأيديهم كتب ودفاتر ومجلاتوقد لبسوا الجينز والتيشيرتات وشعورهم محلوقة ومنفوشة حسب الموضة جعلت الجو اشبه بما يراه في التلفزيون وعمرو دياب. كما ان العمارات الضخمة بعد اوسلو جعلت عينيه ترتفعان وتنخفضان بلا هوادة ويده تشد على ذراع اخيه خوفا من الضياع في سوق غريب متعرج. ولد قروي في مدينة، شبه مدينة، لكنها بكل الأحوال اكبر وأغرب مما رآه وما اعتاده في بلدته عين المرجان. فتلك قرية انقلبت منذ عهد قريب الى بلدة وأصبح لديها بدل المختار بلدية وشارعها الوحيد حيثللجامع وسبيل الماء صار له دوار وجنينة فيه بركة ونافورة ماء. لكن رام الله بشوارع فيها مطاعم وفيها مقاهي وفيها بارات ومنتزهات وفترينات تخطف الانظار بأناقتها وغرابتها واجواء غريبة كما الأفلام. كما ان دوار المنارة – منذ اوسلو – ازدان بتماثيل حجرية لرؤوس اسود مهيبة كان الهدف من نصبها ان تحمينا وتدحض بصورة قطعية مزاعم من شكوا بقدرتنا وسيادتنا واندحار اليهود.

قال له أخوه وهو يضحك ويشير بعينيه الى فتاة بالضيق وبلا أكمام، "ها يا أحمد، كيف رام الله؟" حدق من تحت النظارة وقال بذهول، "حل حل حلوة." وتبادل وأخوه نظرة قصيرة وابتسم بخوف. كان خائفا من لسانه وخائفا من لباسه وخائفا مما قد تأتي به الأحداث وتحرجه امام الطلبة في بير زيت والهوستل. لكن أخوه لم يأخذه الى بير زيت والهوستل، بل أخذه الى غرفة في تقعيدة لفيلا ضخمة في حي فخم فيه اشجار وحدائق وفلل مزدانة بالقرميد والفراندات والنوافير وعشب اخضر مثل السجاد وقال له بصوت آمر، "أوعى تقول له." وكان بالطبع يقصد أباه. فنظر من تحت النظارة وهز برأسه علامة الفهم والتواطوء، لكن ذاك أصر بالحاح، "أوعى تقول له أحسن والله..." ولم يكمل. لكن القول ما كان بحاجة الى تفسير حتى يفهم، فهو ما زال يذكر الطوشات بسبب عيسى والعمل هناك في مستوطنة كريات شيبعبداية الغناء في الحفلات وأشياء مماثلة ذات تاريخ. كانت طوشات فيها سباب واتهامات واحتقان الجو بالرهبة ثم انفراج مشوب بالحذر والترقب. فمجيد مزاجي اهوج يحب الصخب ويحب البنات ويبذّر مصروفه بتهور على الكاسيتات والكريمات وجل الشعر والسجائر. قال له ابوه وهو يصرخ، " وكمان دخان؟" قال مجيد، "من مصروفي." " من مصروفك؟ يعني من عرقك وذراعك؟ لأ من عرقي وتعبي وشقاي يا ابن الكلب، لكن شو أقول؟ الحق علي، انا ربيتك، وأستاهل عليك مليون علقة." همهم مجيد، "هه، بدينا!" وهرب من الغرفة قبل سماع تلك القصة، نفس القصة، والاسطوانة المشروخة، ثم اللازمة المعهودة، " جيل اليويو، يا ولاد الكلب."

انتبه فجأة على صوت رقيق ينادي، "لاكي." فنظر من النافذة ورأى بنتا تلبس الجينز وقميصا قطنيا لاصقا وبلاأكمام. كانت حلوة وشابة وبيضاء بشعر أسود قصير ملفوف في حلقات ورقبتها طويلة كالنرجس. همس مجيد، "بنت الجيران اصحاب الدار." وكان يقصد بالدار تلك الغرفة في التقعيدة والبابالخلفي للجنينة، وهي هنا بنت الجيران مع كلبها في جنينة الدار تقطف الكرز والفراولة.

خرج مجيد يتحرش بها وبقي الصغير في الغرفةينظر من خلف النافذة ويسترق السمع. وسمع ضحكا، وسمع الاغصان تتماوج، وسمع الكلب يصدر اصواتا مألوفة من حنجرته ومن دعساتهوحلقات لجام حول عنقه. وفي تلك الاثناء سمع دعسا، دعسات كبار، وأبواب سيارة وهرج ومرج، ثم ركضات بنت الجيران خلف حديد النافذة وخشخشة حلقات الكلب. واندفع مجيد الى الغرفة وهو يهمس، "أبوها، أبوها!" وأغلق الباب وهو يلهث.

كان أبوها من قبيلة نور حطت رحالها مع بداية القرن الماضي في رام الله واشترت الأرض ببضع معزات وملاقط وأسياخ لحم ومجامر، وكذلك بالرقص وضرب الودع ووشم الأوداج. ثم ترقوا، ومع الأيام صاروا حمولة ثم عشيرة ثم كنية ذات صيت خطير بين أهل البلد بأن الوشاشمة هم قوم غلاظ بلا أخلاق، يعملون بالسر، ثم العلن، ما يخاف الناس من ذكره. فهم يحصلون من اليهود على تراخيص للشاحنات والتكسيات والهويات ورخص البناء مقابل سهرات وصداقات وعمولات. وعليه، فقد كان الضباط يسهرون الليل في جنينة الدارتحت الكرز والكازيبو، وفي النهار يحصل الوشمي الكبير، جد الفتاة وأبو ابوها، على تحصيلات وتحصينات وامتيازات. ومع الأيام صار الوشاشمة ناس كبار وشبه حكومة. لكن بالرغم من التعزيزات والتحصينات، قتل الوشمي برصاصة غدر كما أعلن، ورصاص الثورة كما ابطن، والثورة كانت مشهورة، في ذاك الوقت، بالصدق والجد والأمانة وحماية الناس. على اثر ذاك، هربت ارملته الصغيرة ذات الجمال والأصل الغريب الى كندا وعاشت هناك مع الأبناء حتى اوسلو وانتقال الثورة الى سلطة وبالتالي تأميم الرخص والهويات مقابل خدمات وعمولات. أي ان الوشمي – أو الوشّام والوشاشمة – ما عادوا خروجا على القانون، بل قاعدته. فعادت الأرملة من كندا وما عادت صغيرة ولا جميلة لتفتح الدار المهجورة منذ السبعينات، وأجرت الغرفة لشاب جامعي مهذب مقابل تشذيب الحديقة وسقاية الورد. ثم سمعته يعزف جيتار ويغني فاحتفظت به وزادت اجره وباتت تدعوه لسهرات الأنس في الكازيبو ليطرب وجهاء المدعوين وكبار القوم. ومن هناك، في الكازيبو، بدأت طبخة ذات روائح. اذ ان العفو عن الماضي شمل الحاضر، بل زاد عليه، وبات ابنها مستشار [illegible] اصل وفصل واشاعات.والدار الفخمة ذات شبهات. وأبوها الخطير شبه وزارة. وجدها الوشمي الكبير وجد قتيلا برصاصة غدر. هذا ما قيل في الكازيبو، لكن الناس في الشارع قالوا اشياء شملت الأب والأم والإبن وبالتالي البنت. لكن البنت حلوة ونغشة وتحب الطرب مثل الجدة، وتحب الرقص والأضواء وتحب الغناء. لكن صوتها ليس جميلا، فأحبت في مجيد جمال الصوت وعزف الجيتار وحلم بأجواء توصلها الى عمرو دياب. أما الوشمي مشروع الوزير، وقد بدأ يشك في ان ابنته بدأت تتعلق بِ"بستنجي" بلا أصل وفصل ولا منصب أخذ يناور حتى يتخلص من الشاب من غير ضجيجلكن الجدة ما اقتنعت بحجج الوزير ومشروعه لأن حجتها أقوى. والحجة كانت ان العمل في اسرائيل أخذ العمال ولم يبق لنا الا الطلبة لأعمال الحراسة والبستنة وتقليم الشجر. وهذا الطالب لطيف ونظيف ومهذب ويعمل بلا صوت ولا ضجة. لكن صوته في السهرات حول البركة يشرح الصدر ويشنف آذان المدعوين ويجعل الجو اكثر انساًوبالتالي يزداد المفعول. وها هو الابن – بفضل المفعول – مستشار حكومة ومشروع وزير، فمم يشكو؟! فسكت الوشمي على مضض وأمهل الموضوع ولم يهمله.

وفي تلك الليلة بدأ الجو يشي بسهرة. بدون تحضير او تكليف بدأ الوجهاء يتوافدون على الجنينة والكازيبو فامتدت سفرة مهولة فيها المازات والطحالات وبيضات الغنم والتبولة، وهذا بالطبع مع الويسكي وعرق رام الله والبيرة. وجاء سفرجي من مطعم كبير يحمل فوطة ويلبس بابيون ويدور على الوجهاء يوشوشهم بانحناء جليل فتمتليء الكؤوس ويعبق الليل بجو انيس يشي بالهدوء وأمن المحتل.

وبدأ الموّال بموشح "يا ليل الصب متى غده، اقيام الساعة موعده" فابتسم وزير بلا حقيبة وهز برأسه علامة الطرب والاستحسان وقال همسا، مين هذا الشاب؟ ماذا يعمل؟ قالوا، طالب في بير زيت يهوى الغناء والموسيقى، ما رأيك فيه؟ قال، تحفة! هذا كفاءة، وعلينا استغلال الكفاءات. سمعت الجدة ذاك القول فاثنت عليه وقالت، فعلا، هذا كفاءة، ويستاهل بعثة لإيطاليا. سمع الوشمي تلك الجملة فقفز اليها وتشبث بها وقال بحماس، والله صحيح، الى ايطاليا. لكن البنت زعلت جدا وأخذت القول على محمل الجد وفي ظنها ان الوزير يقول القول وينفذه او يقدر عليه. ولهذا قررت ان تفاتح مجيد بنيتها، فاما يرفض أو تهرب معه الى ايطاليا. وبالطبع كان مجيد ابعد ما يكون عن الحماس لتلك الفكرة، بل الفكرتين، فكرة الذهاب الى ايطاليا وتعلم الاوبرا والسوناتات والكونشيرتات وبيتهوفن لأنه يريد ان يلبس الجينز وهويغني ويحمل الجيتار وهو يرقص وبنات يقذفن بالأثداء والأرداف من حوله ثم يحملقن على الشاشة بعيون مزودة بالطاقة يصل مداها بترول الخليج. والفكرة الثانية ان البنت، واسمها لورا، قد أخذت اغنيته على محمل الجد حين غنى لها ذات ليلة، وكان ابوها في نيويورك وأمها الكندية في كندا وجدتها منومة بالفاليوم ورنم همسا، "يا لور حبك قد لوع الفؤاد." فدمعت لورا وقالت "أهواك." ثم الحت، "غني اهواك، غني أهواك." فغنى أهواك واستبدل جملة "واتمنى لو أنساك" بجملة "لكني لن انساك." فضحكت لورا وغنت معه ثم نامت وهي تحلم بالحب الفروسي الخالد مثل شارلوت برونتي وسير وليام سكوت. وللأسف مجيد لا يقرأ، لكنه بفعل الجو وميراث جدته الجنكية يحلم بكاسيت وفيديو كليب ووصول مضمون الى القاهرة ثم بيروت والLBC وكل الفضائيات العربية.

ولم تصبر لورا حتى ينصرف المدعوون ويخلو الجو،بل استرقت الخطو الى الغرفة حيث أحمد يختبيء هناك يتسمع من خلف حديد النوافذ ونادته بصوت متلصص، "أحمد، أحمد." فارتعد أحمد وتلكأ ثم تجرأ وأجاب بخوف، " نع نع نعم؟" قالت له ان عليه ان يخرج للسهرة وينادي أخاه حالا وفورا لأن الموضوع خطير جدا. كانت العتمة في الخارج وظلال الشجر تغطيها فلم ير من وجهها الا حدوده. لكن صوتها كان قريبا، قريبا جدا، لأن التقعيدة منخفضة وكذلك نوافذها الصغيرة. وبما انه لا يرى وجهها ولا ترى وجهه، كان من السهل عليه ان يتلكأ ويلتزم الصمت ويبتعد قليلا عن النافذة حتى لا تسمع انفاسه. فعادت تلح، "أحمد، أحمد، أخرج ناديه، ضروري ضروري." لم يجبها، وابتعد أكثر عن النافذة. فمشت خطوات في الخارج وسمعها تلوى الأكرة فينفتح الباب ودخلت بسرعة وأغلقت الباب وأسرعت نحو فانوس بجوار السرير وأضاءته فانساب النور. ورأت أحمد لصق الحائط وقد اعتراه الذهول والدهشة. فها هي تدخل الغرفة بدون انذار وتضيء الفانوس بيد خبيرة تعرف الأماكن وموقعها وكيف تعمل. وهذا غريب، غريب فعلا، ولو حدث ذلك في بلدته عين المرجان لقامت الدنيا ولم تقعد، لكن هنا في رام الله! شيء غريب!

وهبطت على السرير ومدت يدها الى علبة سجائر كانت ملقاة على المنضدة. ووضعت سيجارة في فمها وأخذت تبحث عن كبريتة. هنا في الجارور، على الطاولة، على الكنبة الوحيدة في الغرفة، وحين لم تجد رفعت عينيها الى الولد وهو يحملق وما زال مذهولا مدهوشا وابتسمت له وقالت همسا، "مالك واقف؟ عندك كبريت؟"

اسرع للمطبخ وعاد بكبريتة وناولها فأشعلت السيجارة وهي تنفخ وتدور بعينيها في الغرفة ثم عادت اليه تتأمله وهو يحملق وهمست بابتسام وعصبية، "مالك واقف؟ أقعد وارتاح، من مين خايف؟"

لم يجبها، لكنه اقترب من الكنبة وجلس عليها وظل يتأمل خلقتها وحركاتها وتصاعد الدخان من فمها وهزات رجلها المرفوعة فوق الأخرى.

كانت قدمها الصغيرة في صندل يكشف اصابعهاالمطلية بالأبيض وساقها المشدودة بالبنطلون رقيقة ومسحوبة بانسياب يحاكي بقية اجزائها ذات التعاريج والانحناءات والاستدارات. وبدت مستديرة في كل شيء، وجهها مستدير، شعرها مستدير، فمها، عيناها، ونهداها، وحتى حوضها وهي تجلس. ورغم نحافتها النسبية، الا انها ذات انحناءات واستدارات وامتلاءات. والأغرب من ذلك كله انف مشقول كالاجانب.

ابتسمت له وقالت بمودة امومية وكأنها تحكي مع طفل، " كيف رام الله؟ كيف لاقي الجو؟ أول مرة؟" وظلت تتأمل هيئته وهو منكمش على الكنبة يراقبها من تحت لتحت. وعادت تسأل، "أول مرة؟" لم يجبها وظل يحدق في صندلها. أول مرة في رام الله؟ أول مرة ينزل في دار مثل القصر؟ أول مرة يرى اجواء، يسمع اجواء، يشم رائحة العرق والسيجار، يسمع ضحكات رنانة ذات نغمات، يسمع أخاه وهو يغني امام الأغراب، يجلس وحده في غرفة مغلقة معزولة مع بنت جميلة بهذا الشكل، حلوة بيضاء كالبالوظة وأصابعها مثل الحلقوم والملبس. أول مرة؟ في كل شيء أول مرة. وهذه أول مرة يخرج فيها من بلدته ويسافر بعيدا عن اهله ويرى العالم أكبر أعطر أحلى وأشهى مما تصور، ولا في الاحلام، ولا في الأفلام، ولا في مستوطنة كريات شيبع، ولا ميرا الصغيرة مع بوبو. وبدت ميرا بعيدة جدا، صغيرة جدا، وساذجة جدا كافلام الكرتون وقصص الاطفال. وابتعدت صورتها الرقيقة عن خياله لأن الواقع، هنا في الواقع، اشياء مثيرة وغريبة الى ابعد حد.

وعادت تلح وهي تدخن، " مبسوط يا أحمد في رام الله؟"

هز رأسه بدون تعليق وبدون كلام فقالت بلطف، "مالك ساكت؟ ما عندك لسان؟" ابتسم بخجل وهمس بصوته ذي الشقين، "عن عن عندي." قالت بتشجيع ومواساة، "بكره تعتاد."

أحقا يعتاد؟ لا، لا يمكن. هذه اجواء صعبة جدا لا تصلح له، تصلح لأخيه ذي الجرأة والمغامرات والتمرد والصوت الجميل والشكل الجميل وسهرات الليل والفرقة وبنات القدس ورام الله ومهرجان الغناء وأحلام الكاسيت والمارينا وأم الدنيا قاهرة الشرق. هو لن يعتاد، هو لن يجروء.

انفتح الباب ودخل مجيد وقال بسرعة، "وله مجنونة!" ومد يده ليسحبها فابتعدت عنه. فأخذ يتلفت كالمجنون وهو يهمس بصوت مشحون متوتر، "بدك نموت؟ اما فضيحة!" وأخذ يسحبها وهي تقاوم وتدمدم بجمل مبتورة، "لأ ايطاليا." "أنا رايحه معك." "لأ مش ممكن." وأخيرا انقادت لاصراره فخرجت للعتمة وبقي هو بوجه مشدود وشعر منبوش وصدر يخفق. ونظر الى اخيه فرآه يحملق مشدوها، فمسح وجهه ومسد شعره ثم تلفت يمينا وشمالا وقال بلهجة اعتذاريةفيها تبرير، "ابوها الوشام. قتّال قتلى!" وحين لم يجبه ذاك رفع اصبعه وقال محذرا، "أوعى تفتح، سكر الباب واوعى تفتح." وخرج بسرعة، ثم عاد وسحب المفتاح وأغلق السكرة من الخارج.

14

استفاق على خشخشة وحركة غريبة ونسيم الليل في رام الله بلود كالثلج. وصدمت عينيه المغبشتين بغمام النوم لمبة شحيحة. كانت اللمبة في الخارج، في ممر الحديقة خلف الدار. وهذا يعني ان باب الغرفة مفتوحا ولهذا يحس بهذا البرد، اللمبة، وصوت الحركة. ونظر الى سرير أخيه من موقعه فوق الكنبة، وبدا السرير من خلال ضوء اللمبة خاليا منبوشا بدون

اذن فأخوه فتح الباب وأبقاه موروبابهذا الشكل. لكن الصوت، وصوت بكاء خافتمكتوم في الحديقة. هل يبكي أخوه بهذا الشكل؟ لكنه صوت امرأة أو صوت فتاة. ولا بد انها تلك الفتاة، لورا الوشمي بنت الوشّام، فماذا يفعل أخوه المجنون بابنة قتال قتلى؟! وهل هذا امتداد لمشهدهما وهما يتعاركان امام عينيه في الغرفة؟ ماذا يفعل أخوه المجنون؟

وأحس برغبة شديدة في ان يذهب الى أخيه ويسحبهمن ذراعه – كما فعل أخوه ببنت الوشام ويقول له: وله يا مجنون، يا الله نهرب. لكنه يعرف مسبقا ان مجيد لن يعبأ به، بلسينهره ويسخر منه. كما انه هو بالتحديد لن يجرؤ على تلك الفعلة. فهو "خوّيف" كما يقولون، وهو فعلا خجول ويثأثيء. فماذا لو تعثرت الكلمات على لسانه؟ ماذا لو جاء ابو الفتاة وضبط الموقف ولبس التهمة؟ هو لم يتدخل لا من قريب ولا من بعيد فلماذا يتلبس التهمة؟ لكن البنت لا تبكي الآن، بل صوت ضحك خافت مكتوم ويحشرج، فماذا تفعل؟ وأخوه المجنون ماذا يفعل؟ وبدأ يتخيل حالة حب كما يحدث في التلفزيون. وأحس بأعضائه تتمدد وقلبه يخفق. وانفجرت عاصفة جوّاه. وعادت اليه ذكرى ميرا وصورة الوجه المنمش والفستان الصغير المزهّر. ميرا صغيرة، حلوة، رقيقة، وتثير الاحساس بالرأفة لبراءتها وكبر الاسنان في فمها والجوزتين البرعمتين وكلبها بوبو. لكن لورا كالحلقوم، لهطة قشطة، وكل ما فيها ينادي العين ويثير الشهية والرغبة في لمس خدها الابيض مثل قرص الجبن، وأصابع قدميها كالواحة وملبس ع لوز.

واندفع الى الخارج كالنائم، وبدون حذاء. ومشى في العتمة خلف الظلال وورق الدوالي والياسمين، والضحك يزيد، وشخرات تثير مشاعره وتعده بمشهد متأجج.

وخاب أمله حين رأى أخاه هناك في الكازيبو يمسك بالجيتار ويؤشر بأصابعه دون ان يعبث بالأوتار، " هذا يا ستي مفتاح الدو، وهذا يا حبيبتي مفتاح الري، وهذا يا روحي مفتاح الصول. يا الله، قولي، هذا المفتاح؟" وضعت اصبعها على خدها واتخذت هيئة تفكير وتأمل ورددت خلفه وهي تنقر على صدغها، "هذا المفتاح؟ هذا المفتاح مفتاح سيدي، وهذا المفتاح مفتاح حبيبي، وهذا المفتاح مفتاح روحي. ها شو رأيك؟" ولم تنتظر الجواب بل وضعت فمها في كفيها وأخذت تضحك وتتلوى وتخنفر بصوت مكتوم، وهو يتأملها مبتسما ولا يتفاعل. وحين انتهت من نوبة الضحك وضع الجيتار جانبا وقال بجدية لا تناسبه، "عبث، مستحيل، ما عندك موهبه ولا رغبة، ما عندك صوت."

حملقت في وجهه والضحكة على وجهها بدأت تنسحب وتتشكل بصورة جديدة اذ انقبض فمها وانعقد جبينها عيناها وما عادت تنظر في وجهه ولزمت الصمت. تأملها مجيد وهو يفكر ولا يعرف كيف يوفق بين الاضداد. فهذه البنت حلوة جدا، لطيفة جدا، وجدتها لطيفة وظريفة، لكن ابوها مثل الغول: قوي جدا، غني جدا، وله سطوة، واذا قال كلمة واحدة حقه يسد منافذه كلها ويخرب بيته. والبنت الحلوة لا تصلح الا كمر. فعن طريقها وجد الغرفة. وبفضل جدتها وجد وظيفة، شبه وظيفة، توفر له مبلغا في كل شهر يسد نواقصه كلها. فهواية الغناء ليستسهلة، وقيادة الفرقة ومتطلباتها بحاجة لمصروف ودخل ثابت. وهؤلاء الشباب من غير تخطيط وقيادة وميزانية لنينضبطوا. وهو بحاجة لفرقة صغيرة حتى يبرز ويجد الفرصة لاقتحام كبير. فهو حتى الآن غير معروف الا في اوساط الجامعات والمهرجانات والمؤتمرات، وكلها لا تطعم خبزا. والعمل فندق وحفلات الغناء في الافراح هبطت بمستوى الفرقة الفني وجعلتهم يغنون لمصطفى قمر وايهاب توفيق بدلا من مارسيل والشيخ امام. وأثار تراجعهم هذا سخرية الطلبة وغضب الأهل. فبعد الأشعار المهيبة لتوفيق زياد ومحمود درويش وهدير الفتيه وهي تنشد خلف الفرقة للحرية والكرامة وحب الانسان باتوا يجدون انفسهم محاطين بالسحجات والزغاريد وجو خانق عزة فيه ولا كرامة، ولا حتى فن. فعادوا يغنون في المهرجانات والمؤتمرات وهجروا الزفات. لكن لذلك ثمن باهظ يدفعه هو مصروفه، ومن عمله في حديقة آل الوشمي ومراضاة البنت الدلوعة ثقيلة الظل. فماذا تفقه هذه السقعة من اصول الغناء، بل تذوقه؟ وماذا تعرف عما تحكيه تلك الأشعار؟ وهل تعرف من هو مارسيل خليفة ومحمود درويش؟ هل تفهم ما معنى

الكلمات؟ هي نصف افرنجية وبنت الوشام. وهذا يعني: هي لا تعرف. لا تعرف معنى القضية ولا معنى الفقر والعيش هناك في المخيم والعمل بأشياء مهينة مثل جدته الجنكية وعيسى المسكين في مستوطنة كريات شيبع؟ وحتى هو، ألم يعمل في كريات شيبع وأكل كفين من والده انزلا الدم من انفه وجعلاه يهيم في المخيم عدة ايام؟ هل تعرف هذه طعم الكف وطعم وطعم الحياة في مخيم؟ وماذا لو عرفت عن أمه وعن جدته وزفات العرس ولم النقوط؟ ماذا لو عرف والدها عما يحدث هنا بيته، أسفل بيته، وبأي أسلوب سوف يعامله؟ لكن البنت الدلوعة لن تحل عنه وستفضحه حتما ان زعلت. وسيخسر كثيرا ان زعلت.

قالت بجفاء،

– أنا لازم أدخل في الفرقة. سعاد مش أحسن. أنا أحس منها بألف مرة.

لم يجبها وظل صامتا يفكر كيف يتخلص من هذه اللزقة، هذه الورطة. يريد البنت ولا يريد البنت. يريد الغرفة والمعاش ودخول الأجواء الجميلة، اجواء العز، وناس يصلون الى أعلى، بل وصلوا هناك، وصلوا، وصلوا. وهو ايضا سيصل روما عن طريق البنت، وطريق الوزير. لكن لا بد من اللعبة، فاما الوصول الى أعلى، واما الاخفاق وهبوط ذريع.

قالت بنفور،

– سعاد مش أحسن.

لم يجبها وظل صامتا مقطبا حائرا لا يعرف كيف يداريها ويبعدها عنه ويحتفظ بها ويحتفظ لنفسه بطرف الخيط. فقال بقلق وصوت خافت،

– ابوك، ابوك، انا سامع صوت.

قالت بهزء،

– بابا نايم. سكران طينة.

قال محذرا وبصوت حاول ان يجعله مؤثرا متوترا خائفا،

– انا سامع صوت. حركة غريبة.

تراجع أحمد للخلف وفي ظنه ان اخاه اكتشف وجوده فارتطم رأسه بغصن دوالي واهتز الورق فأصدر صوتا خافتا واهتز الغصن. لكنه اختبأ خلفه وخلف الأوراق.

همس بقلق،

– سامعة؟ سامعة؟

وقفت ببطء ونظرت اليه من اعلاها وهو جالس وقالت ببرود،

– انا في الفرقة.

قال محذرا،

– طب وأبوك؟

– تيتا موافقة.

– طيب وامك؟

– ماما في كندا.

ومشت خطوات واستدارت وقالت همسا،

– انا في الفرقة، انت سامعني؟

فتح فمه ليقول شيئا، لكنها كانت قد ابتعدت واختفت في العتمة خلف الجدار. وظل جالسا في مكانه يزن الموضوع ويتأمل ويحاول ايجاد المخرج من غير مشاكل وخسائر. وما وعى الا ويد تمتد فوق كتفه وأخوه يقول، " يا خوي يا مجيد منشان الله."

التفت اليه وقد أجفل، فأكمل احمد، وبدون ثأثأة وتعثر، "يا الله نهرب، خلينا نروح!"

15

لم يهرب مجيد. إذ قبل الظهر جاءت خادمة فلبينية لتقول له أن السيد يريدؤيته. ماذا يريد؟ قالت لا تعرف لكن الأمر يبدو جميلا لأن السيد يبدو منتعشا مسرورا. كيف عرفت ان كان منتعشا مسرورا؟ لم تجب السؤال لكنها رمقته بنظرة ماكرة ذكية من عينيها الصغيرتين وابتسمت له فابتسم لها وغمز بعينه فاستدارت دون ان تبدي اهتماما او تفاجؤا من حركاته. فقد بات الجميع يعرفون انه "لعوب" و "أونطجي" ويحب الضحك. الجدة تعرف هذا وتستظرفه، والخدم يعرفون هذاويتسلون به، والبنت تعرف وتتشكك وتغار عليه. لكن الوالد لا يعرف. فالوالد مشغول ابدا ولا يرى خدمه الا ما ندر.لكنه بفضل السهرات لاحظ الشاب الموهوب ولاحظ نظرات ابنته له. وهوّن على نفسه بأن الأمر لا يعدو ان يكون قصة صغيرة، نكتة وتذوب كما ذابت كل الرغبات حين تجيّر. وما يدريك ما يطلع من هذا الشاب؟ إن هو أعطاه وأغرقه بنعم الدنيا أفلا يكسبه إلى صفه؟ وهو طالب في جامعة اقل ما يقال عنها أنها بؤرة نشاطات وتنظيمات ومهرجانات ومؤتمرات، والصحفيون والتلفزيون ووفود كبيرة وكثيرة، وزيارة وزير خارجية فرنسا الشهيرة ما زالت عالقة في الجو وأثارت سخرية العالم واهتمام الغرب. فهنا في الحرم خميرة زخمة، محرك ثورة وتظاهرات واعتصامات ومشاكل. هذا على السطح، لكن العمق لم يُسبر بعد، فماذا في العمق؟ هو لن يرتكب أخطاء الغير ويضيع فيها كما ضاع أبوه ويقتل برصاص عشوائي. هو لن يسبح بعكس التيار وبعكس الركب. بل يغطس فيه ويجدف معه من الداخل. فاللعبة صارت في الداخل ومن الداخل، ومن هناك يمخرفي العمق. هو ليس أبوه تربية نور ومضارب بدو، بل هو تربية برنستون و CNN. وزوجته خريجة دراسات الشرق الأوسط من واشنطن وباحثة متخصصة في اقتصاد الدول النامية ومصادر الثروات المائية وبترول اوبك. وهو وان ورث اللقب المشؤوم عن عائلته وفضيحة أبيه إلا انه متعلم ومثقف ويعرف لغات وثقافات وحضارات لا حصر لها. كما انه يلعب بيانو وتنس وسكواش، وابنته تلبس المكشوف وتسوق الروفر والأودي في وسط مدينة رام الله ولا أحد يجرؤ أن يقول كلمة واقفة لأنالجميع قعود وهو الواقف. والدنيا دوما مع الواقف. هذا مثاله. هذه فلسفته في الأعماق. إذ إن الناس مع الواقف. والواقف يعتمد القوة. والقوة في هذا العالم، عالم العولمة وانفتاح السوق والشركات عابرة القارات والمحيطات والمذاهب ليست كما كانت – مال ونفوذ ومراكز، بل باتت معرفة قصوى في التقنيات والأيونات والشرائح. شرائح صغيرة بحجم الملاليم، لكنها تحوي الأسرار والأفكار والمنافذ. ومن المنافذ تمتد خيوط تتشعب في كل اتجاه وتتلون مع كل لون وجنسية. وبهذا يختصر العالم.

إذن الوشّام أو الوشمي، ما عاد نوريا من اصل نور. بل هو وجيه وقبضاي كبير له عضلات ومضارب. وأمه بالذات ليست حيا الله او أي كلام. بل هي امرأة مرموقة بكل المقاييس. وفي صباها كانت أرملة سنيورة جميلة أنيقة وتعرف لغات وتجيد الحديث في الصالونات لأنها تربية القدس ولكنة خفيفة من أصل غريب وتلدغ بالراء.

دخلا الصالون ذي الباحة وبلاط رخامي ابيض مثل المرآة تنعكس الأشياء على سطحه وينعكس الضوء والتماع الأصص وانهدال النخيل واللون الأخضر والأزرق بوضوح الأصل. كانت النوافذ مفتوحة وسماء زرقاء صيفية وظل صنوبر في الخلفية وعبير الورد.

دفعه أخوه في كتفه وقال ساخرا، " صوّر، صوّر." وما كان بحاجة للتذكير فكل شيء هنا بحاجة لصورة. صورة للأصص المنعكسة. صورة لنافذة تكشف هضاب الطيرة وشجر الزيتون وقرميد الدور العتيقة وسواد السرو. صورة لقدميه المنعكستين تحت ظله. وصورة لصورة. فهناك صورة على الحائط بدهان الزيت لامرأة جميلة وفتية ببشرة بيضاء وشعر اسود تشبه لورا لكنها ليست لورا وليست الأم كما قالوا لأن الأم شقراء تميل الى الحمرة. هي جدتها في صباها بثوب نبيذي تفتا مفتوح الصدر وفي يدها مروحة نصف مغلقة وأصابع مثقلة بالألماس.

أدخلتهما البنت الفلبينية إلى ردهة تطل على منحدر مبهر. فمن هناك بدت الجبال والوديان مثل لوحة وصور مجلات الجغرافيا. والرجل يجلس إلى طاولة عليها أوراق وإبريق عصير وصحن مليء بالعنب وفقوس صغير. لمحهما في الضوء فنوّس عينيه وأشار بيده أن تعالوا، فاقتربت البنت وخلفها الأخوين فأمرها بالانكليزية أن تحضر كاسات عصير. وأشار للأخوين أن يجلسا أمامه. وأومأ للعنب والفقوس فشكره مجيد وهو ما زال واقفا ويده تربت على صدره. لكن الرجل أصر بإلحاح، فاقتطف مجيد حبة عنب وناول أخاه فقوسة. وجلس الاثنان.

ابتدأ الوشمي بامتداح الورد والحديقة والنجيل الأخضر في الساحة، ثم العصير، ثم خصلة عنبلهذا وذاك، ثم عن الأخ يدرس؟ ماذا يدرس؟ ماذا سيصير؟ والأخ الكبير يجيب عنه والأصغر يعبث بالفقوسة ويعد العنب بين أصابعه وينظر بالورب. يا محيد أنت موهوب وصوتك جميل وعزفك لا بأس، لكنك بحاجة للتشذيب. يعني تقليم مثل الشجرة. فاهم علي؟ طبعا لكن يا مجيد العلم هنا ليس قويا. انت تعرف. واقصد بالذات الموسيقى. ونحن الآن بصدد البناء واكتشاف المواهب حتى نكبر ونعلو ونصير مثل العالم. وذلك مرهون بالقيادة والجيل الجديد. الجيل الجديد هو المقصود. جيلنا نحن عاصر بل ثلاثة، وكل الحروب كانت مرة، يعني هزائم، فماذا نفعل؟ ماذا يفعل جيل الحاضر والمستقبل؟ نحن بنينا ما نقدر عليه، انتم، انتم، انتم، الجيل الجديد، هل تفهمني؟ طبعا فاهم. فماذا إذن لو ربيناك وشذبناك وقلمناك؟ ترجع محترفا مرموقا تفهم بالفن والموسيقى ما لا يفهمه عمر خيرت وسليم سحاب؟ لا تريد عمر خيرت وسليم سحاب؟ ماذا عن كاظم الساهر؟ أترى الملعون وصل إليها وفرض وجوده. وصل القاهرة ودق الأوتاد وبات نجما رغم صدام. أتظن السياسة لا تؤثر؟ بل تؤثر. لكن الفن له سوقه. فالفن يغور في الأرضية، عبر الأجيال. كاظم الساهر صار وتصور رغم صدام وأنت ستصير رغم عرفات. الغرب يرانا في صورة قبيحة جدا، ساعة صدام وساعة عرفات وساعة بدوي بلحية قذرة مليئة بالقمل ويده تخفي خلف ظهره سكين الغدر. أتعرف صورتنا في كندا وفي واشنطن ولندن وباريس وحتى اوسلو؟ هل تعرفها؟ لا تعرفها. أنا اعرفها. اسألني عنها فقد جربت مرارة أن تكون عربيا في سوق الغرب. الغرب لا يحترم المادة، يحترم الفكر، يحترم الفن، يحترم القوة والإبداع. تتململ، اعرف، اعرف، الغرب يميل إلى المادة. الغرب يعمل للمادة ويركع لها ويصلي لها، لكنه أيضا يعرف أن المادة تروح وتجيء ولا تبقى لأبد الآبدين. مثل البترول عند العرب، ماذا يتبقى لنا منه بعد نفاذه؟ الغرب يعرف أزمتنا، نحن نملك وهو يعرف. وما قيمة أن تملك شيئا لا تعرف عنه وعن اصله وفصله وعمقه ووزنه ومداه وتاريخه؟ هل نعرف مم يتشكل؟ هل نعرف أين يتشكل؟ هل نعرف كيف نبحث عنه؟ هل نعرف كيف نصبه وأين نصبه وكيف نصفيه ونبيعه بأغلى الأثمان؟ لماذا الأوبك عالم ثالث وهم الأول؟ لماذا الأوبك، رغم البترول، عالم فقير متخلف؟ لأن الأوبك يملك مخزونا لا يعرف عنه التصدير؟ أما التكرير، أما التدوير، أما اللعب بأسعار الين وابتزاز الدولار واليورو ونازداك ونيكاي وفايننشال فهذا نجهله كما نجهل ناسا ونسوان. أنت تضحك وأخوك خجول، لكن فعلا، قل لي يا شاب يا متعلم، ماذا نعرف عن ذاك الجنس إلالحريم

والمحظيات والمبرقعات وراء الحجب؟ امن المعقول أن نتفاعل برؤوس مختبئة وراء حجب واقمطة قماش؟ امن المعقول أن السوق، سوق العالم، بنساء البشتون والخميني؟ أترى صورهم؟ شوالات الأرز والبطاطا أحلى منهن. أهذا ما نريد؟ أهذا ما نرضى بحدوثه؟ وإذا وصلوا الحكم هل يدعونا نعيش بسلام؟ نأكل بسلام نشرب بسلام نغني ونرقص ونعامل المرأة كبني آدم ونصلي لله بطريقتنا ومذاهبنا؟ ماذا يحل بالمسيحيين؟ ماذا يحل بالعلويين؟ ماذا يحل بالبهائيين؟ ما حل ببوذا مع طالبان؟ بوذا، نسفوا التماثيل الحجرية ذات التاريخ والحضارة وأمجاد الفن. ثروة سياحية ونسفوها. نسفوا التاريخ. نسفوا المذهب والحرية في أن تعبد ما تؤمن به، أهذا ما نريد؟ أهذا ما نسمح بوصوله؟ إن وصلونا انتهى كل شيء، انتهى الفن والحضارة. لكن الفن هو المحور والمحرك. هل تعرف ما دور الفنان؟

هز مجيد رأسه عدة هزات وقلبه يخفق. كان قد انسحب مع الكلمات وانجرف بها. أحس بروحه تطفو وتحوم وتطير به فوق حديقة بحجم العالم وهو عصفور يتنقل من غصن لغصن عبر المساحات والمسافات والحضارات وشجرة عريقة صلبة قوية تضرب في الأرض وبؤرتها حيث الطاقة وشعاع النور. وهو الفنان، عصفور الأرض، في أعلى غصن في الشجرة ينظر للأرض ويرى العالم ساحة كبيرة، والناس صغار.

مد الرجل يده لكوب العصير وبدأ يشرب ومجيد يشاهده ويتأمله كما لو كان يشاهد طيفا موشى بالقصب والكريستال. أهذا هو بدر الوشّام؟ أهذا ما سمع عن صيته وآل الوشمي؟ أهذا العميل ابن العميل ابن الحرام عديم الأصل؟ أهذا ما قيل انه ساقط؟ شيء غريب! شيء مذهل!

وأحس بيد أخيه تلمس كوعه وصوته يهمس، " الحف حفلة." التفت الرجل وابتسم للولد وسأل الكبير بصوت عطوف عما يطلب، فطأطأ مجيد وقال بذهول وهو ما زال ملخوما مما رأى ومما سمع وما يحس في أعماقه، " بذكرني بالحفلة والمهرجان." ونظر في الساعة وقال بأسف، "المهرجان، تأخرنا." والتفت يمينا وشمالا وقال بإحساس، "بس أنا ملخوم! أنا مش فاهم! لكن صدقني أنت عظيم!"

وقعت الكلمة في أذن الأصغر وقع الصاعقة وانفجار الرعد. كان قد سمع عن الوشمي ما لن ينساه: عمالة وتهريب وبيع هويات وتسويق بضائع ومخدرات، ثم اليهود طالع ونازل وبيوت مشبوهة للإفساد والعمالة. هذا ما سمع أباه يقول وهو العارف بأمور البلد وخفايا الناس. وهذا ما قرأ في الصحف والمنشورات. لكن مجيد لا يقرأ ولا يرى الأبعاد إلا ما ندر. أحيانا تصحو غفوته وروح الفنان فيقاوم، ثم يرتد ويتراجع بنفس السرعة! وها هو الآن يمتليء هواء طيارا ويشعر بالقمة تقترب منه ويد تمتد لترفعه وتدفع به نحو روما والمارينا وقاهرة الشرق. فامتلأ بحمد متدفق وقال بإخلاص،

– انا ممنونك. جميلك على راسي وبعيوني.

لكزه احمد وهمس بقلق،

– يا الله، الحفلة!

أسكته الوشمي بحركة يد وهو ينهي اللقاء،

– بدنا العلامات والشهادات والتوصيات، وقبل كل شيء موافقة الوالد وتوقيعه.

هتف بحماس،

– طبعا، طبعا، كله موجود.

وخرج من عنده وهو يهلل " روما، روما!" ويلتفت لأخيه ويقفز فرحا ويصرخ بدوي، " لأ مش معقول!" وذاك يرمقه ويهمس بقلق، "دورك في الحفلة، تأخرنا!"

وصلا بيرزيت متأخرين فوجدا الفرقة في وضع صعب. كان العريف قد أعلن عن دور الفرقة ثم تراجع بسبب التأخير وأعطى الدور لفرقة أخرى. وها هي الآن على المسرح وشاب آخريغني ويعزف بدلا من مجيد.

لم يقل أي واحد منهم كلمة، ولم ينظروا حتى صوبه، بل ظلوا جلوسا على الأدراج خلف المسرح في ستاد الحرم. وكان الجمهور قد تجمع حول المسرح وعلى الأدراج وفوق الأسوار والأشجار ولم يبق في المكان موطيء قدم. فدس مجيد أخاه بين الفرقة في أقصى ركن خلف المسرح وغمز بعينه. لكن الغمزة لم تفلح في طمأنة أخيه المذهول. كان المشهد اضخم وأعظم مما تصور. جمهور الطلبة بالألوف والصحفيون وأهالي الطلبة والوجهاء والكشافة وحراس الأمن حول الحرم والدبابات. وهذا يعني أن الاحتلال لا يغض النظر عن الجمهور والموسيقى وكلمات الشعر. فماذا لو قامت قيامة واشتعل الجو؟ ماذا لو فاضت مشاعرهم بفعل قصيدة أو أهزوجة فقاموا واشتعلوا واندلعوا وحاموا في الحرم مثل فراشة داخل قنديل؟ لكن الفراشة قد تجنح، وزجاج القنديل قد يتكسر، وزيت القنديل قد ينسكب فيهتز الأمن – أمن احتلال دام سنوات، ثم أجيال، ثم تمادى وأصبح عادة، بل روتينا وطريقة حياة. لكن الفراشة تظل تحوم، وقد تحترق، وقد تنفجر فيهتز الأمن.

ولمح احمد والده في ثالث صف بين الكتاب والصحفيين. ولمح أيضا بدر الوشمي في ثاني صف بين الوكلاء والوجهاء والأكابر. والغريب في الأمر أن الوشمي أمام القسام لا تفصله عنه إلا بضعة رؤوس ومقاعد. رأس الوشمي جلي جدا، وسيم جدا، بشيب مهيب وتقاسيم شمالية وعيون زرقاء مخضرة، وله أكتاف رياضية وعنق ممدود لوحته الشمس بسمرةذهبية محمرة وقوام ضخم. اما الوالد، فضل القسام، فبرأس يكاد لا يذكر بصلعة خفيفة وملامح سمراء مغبرة وجاكيت قديم. كان المسكين قد تنازل عن احتياجاته مقابل البوط الطلياني وجاكيت الجلد لابنه الفنان حتى لا يكسرخاطره امام الطلبة. وها هو الولد الفنان يضيع دوره ولا يظهر بالبوط ولا حافي القدمين ولا بالجاكيت، فأين ذهب؟ وأخوه البليد اين ذهب؟ ودور الفرقة وجائزة والفنان!ابنه الصغير فوق الادراج المؤدية للمسرح تحت الأشجار فأشار له. لكن ذاك كان يراقب جماهير الناس من خلف النظارة والكاميرا ويلتقط الصور. أين المجنون؟ اين ذهبتم؟ لماذا التأخير؟ وظل يلوح حتى خجل من زملائه ومن اشاراته وانزل يده وأنصت للعزف.

وهتف الجمهور وصفق للفرقة المنتهية وصاح احدهم: فلسطين حرة عربية! لكن الصرخة الضعيفةضاعت في الجو بين التصفيق ولغط الناس وأزيز الميكروفون والسماعات وصفير الشباب.

وأخيرا جاء دور الفرقة وقائدها مجيد القسام. قال العريف بحماس شديد وهو العارف بشعبية مجيد بين الطلبة ورواد الاحتفالات والمهرجانات والسمّيعة ممن سمعوه في الفنادق وبعض الأعراس: فرقة المجد وقائدهامجيد القسام. فانطلق صراخ وهتافات وبعض التصفيق وصاح احدهم فوق الأسوار: قوموا،قوموا. فهتف آخرون: قوموا، قوموا. وامتلأ الستاد بهدير ضخم: قوموا، قوموا. ودخل الأفراد إلى المسرح فردا فردا، ووقفوا خجلين من الترحيب وصياح الناس وإحراج موقفهم بعد التأخير. لكن حماس الاستقبال وهتاف الناس أنساهم الحرج وإهمال مجيد. وقد كان معظمهم يعرف، والآن تأكد، أن التصفيق والتهليل كان للنجم الصاعد مجيد القسام وهم معه في عروته تحت جناحه، وان العمل مع هذا النجم له حسنات رغم مسائه. وان مساوىء مجيد القسام وإهماله ومزاجاته وتقديس الذات تسقط وتذوب فوقالمسرح. فهذا التصفيق اليس لمجيد؟ وهذا الهتاف أليس لمجيد؟ وهذا الهياج حين ذكر اسمه أليس مؤشرا على أن مجيد بات نجما ساطعا في سماء الضفة وجبال الجليل.

ولم يظهر مجيد إلا بعد دقائق والناس يصيحون ويصفقون بنفس الإيقاع والتقطع. مرة تصفيق، ومرة هتاف: مجيد القسام قسّم تك تك، تك تك. مجيد القسام ارفع صوتك، تك تك، تك تك. مجيد القسام ابن الثورة، تك تك، تك تك. مجيد القسام بلدك حرة، تك تك، بم بم.

أصيب الوالد بذهول شديد. فهل هذا التصفيق لابنه هو؟!ابنه المزاجي الأرعن صغير العقل سخيف الحركات والمطالب هو من يصفونه بهذه الأوصاف ويصفقون له بهذا الإيقاع؟! إذن فصحيح انهفنان. إذن فصحيح انه موهوب. إذن فصحيح انه قائد فرقة هامة، فرقة المجد، وهؤلاءعلى المسرح هي فرقة المجد لقائدها مجيد القسام! لكنه لم يسمع عنه ولم يكتب عنه، عنه وعنهم، لأن الفرقة،كما قيل له بعين المرجان، هي فرقة رقص وهشّك بشّك وأولاد صغار. لكن الصغار ليسوا صغارا، بل هم شباب، شباب وشابات. وها هم يقفون على المسرح ويبتسمون بجدية وبدون دلع ويهزون الرؤوس بالتحية وهم يقفون كالعساكر بانضباط شديد، وملابسهم كلها سوداء الا شالات صغيرة حول الاعناق بألوان العلموالكوفية. إذن العكروت لماذا أصر على جاكيت الجلد؟ وهل يظهر هو دون الفرقةبجاكيت الجلد؟

وأخيرا جاء مجيد القسام. دخل المسرح قافزا الدرجات باللباس الأسود وشال العلم والكوفية ويداه تلوحان بحركات النصر فصاح الجمهور:قسم، قسم. ابن الثوار، قسم، قسم. ابن الأحرار، قسّم، قسّم. ثورة للنصر والحرية. بم بم بم بم.

التفت الأب حوله بذهول، ورأى الكتاب والصحفيين يتبعون الركب ويرددون مع الطلبة: قسم، قسم، ويصفقون، ويدورون بأعينهم فوق الأدراج والأسوار وأغصان الشجر وعلى وجوههم ابتسامات الأمل وحماس الشباب، وكأن الجو نفخ فيهم، أعاد إليهم أمل الماضي وحلم التحرير والحرية وشحنة أيام عاشوها أيام العز، قبل النكسة، وكان ناصر مثل الصاروخ بجمال شاب مثل ابنه، مثل عمر الشريف في شبابه، مثل ممثل فوق الخشبة في جو فذوأحس بالدمع يقفز فجأة ويغمر عينيه. أحس بالحزن يعصر قلبه وهو يرى ما تحت العرض والاستعراض وجنون ابنه، ونواقصه، وملابسه، والبوط السخيف وحل الشعر. وأحس بسكين ضخمة والنصل الحاد يخرق قلبه ويقول له أن الأضداد قد توقعنا، وان الأحلام قد تملأنا بأمل كاذب مثل السينما، مثل مشاهدفي التلفزيون، والمتفرج يأكل يشرب ولا يتكلم، لا يتحرك، ويظل يلوك بلا توقف، ويرفع قدميه فوق المقعد ويبلع كوكاكولا وهمبرجر.

قوموا، قوموا! صاح الجمهور. فهز مجيد رأسه وهو يبتسم للكاميرا والتلفزيون ويحيي الناس بإحناء الرأس وتربيت الصدر حتى اقترب من الميكرفون وقال بسخاء، "حاضر، حاضر." فازداد الهياج وصاحوا بحماس،"قسم، قسم. يا ابن القسام قسم قسم، يا ابن الشجعان قسم قسم، يا ابن الثورة، يا ابن الأوطان، بم بم بم." وانطلق صفير.

فوضع الوالد رأسه فوق كفه وأغمض عينيه، إذ ماذا بعد؟ ماذا يسمع؟ صحيح أن نجاح ابنه وتصفيق الناس يسعده ويشجعه ويعيد الثقة إلى نفسه كأب مسؤول عن تربيته. لكن الوطن، لكن الشعب، لكن الثورة والإيمان؟! صحيح أن الولد فنان اصيل ولد والنغمة في دمه وورث الإيقاع عن أمه وعن جدته وأعراس الناس. لكنه ليس الثورة وحلم الثورة ومحرر البلد والأوطان. لكنه ليس القسام. هو حامل اسم بالصدفة، ورث اللقب، ورث المعنى، لكنهليس القسام ولست أنا. أنا ابن مخيم حقيقي وهو ابن جيل طالع ونازل من هذا العصر. جيل مائع، جيل فاسد، أفسده التهريج والكوكاكولا وبوط الطليان. لكن الناس وعقول الناس والعمل الحقيقي الناضج مرغير قشور!

وارتفع الصوت، غناء الفرقة وهدير الناس: "يا أحبابي الفقراء!" فاهتز قلبه للكلمات والأصوات وهدير الآلات والحناجر. ووقف الشعر فوق ذراعيه ومسام الجلد في رأسه. وأطرق ينصت حتى تجلى من بين الهدير نشيد ابنه في شكل أذان فخشع الجمهور وهدأ الطنين وساد سكون إلا الموال ورقرقة الصوت المتأجج بالعواطف ينساب بحزن وبقوة، ومن الأعماق ينطلق كسكين جارح يشق السحاب فيهز الجبال وأعالي الشجر، فماجت رؤوس وهي تردد: الله، الله. وجاش الحنين في كلمات

إحساسا ومحبة والعمق الدافيء للمساحات الصوتية تعبر موجات أثيريةفتنطلق الروح من معقلها وتعيش الحلم بتفاصيله وتغدو شابة، أكثر قوة، أكثر عمقا،أكثر ايمانا ويقينا بالحرية وحب الانسان.

فاهتز الأب ورفع رأسه وما عاد يفكر ويحلل ويضع النقاط على الأحرف إذ سحبته الكلمة العذبة وذاب مع اللحن وتعاريجه واندمج بابنه وتداخل من غير حدود. تسربت مشاعره من بين يديه ولم يتمالك إلا أن يقول مع القائلين: الله، الله. وحين انتهى الأذان وعاد الإيقاع لضرباته واهتز المزهر ودوى الطبل وبدأ التصفيقمع النغمات أخذ يصفق ويقول: قسّم. وعاد شابا مثل كل الشباب، مثل الطلبة والصحفيين، ونسي ابنه، نسي الواقع لابن ارعن يحلم بكاسيت وفيديو كليب ويدهن رأسه بكريم الشعر ويحرد عن الأكل من أجل بوط طلياني وحنجور جل. بات النغم عربة مجنحة خلاقةتنقله عبر أثير الحلم وشعاع النور. وحين انتهى ووقف الجمهور وقف لابنه. بل وقف للأمل المتجدد وشعاع النور. وهمس محشرجا من خلال الدموع: فنان، فنان، والله فنان.

17

كانا في طريقهما إلى عين المرجان برفقة سعاد – زميلة مجيد في الفرقة –التي تقطن مدينة نابلس فدعتهما إلى فنجان قهوة وجولة سريعة في السوق العتيق وباب الساحة. ثم صعدت بهما إلى منزلها في البلدة القديمة لتعرفهما بأمها حائكة الصوف. لدى امها مشغلا للصوف و عدة فتيات وماكنات يدوية وشلل خيطان مثل شعر البنات: زهري وازرق وفستقي وأصفر وشتى الألوان. وقف مبهورا مسحورا يتأمل الصوف والأيدي تروح وتجيء بسرعة غريبة وأكواز الصوف تتحرك كالبالرينات. انشغل أخوه في حديث طويل مع أم سعاد، وذهبت سعاد لتغلي القهوة، ووقف يراقب الصبايا من تحت لتحت ويتابع سحب الخيطان. وهمس لنفسه: لازم صورة! لكنه خجل من ذلك ودار بعينيه في المشغل. رأى عيبال من النافذة وصخور الجبل ولزاب الحرش. ورأى الصبار والزيتون وبيوت بيضاء حليبية تتسلق المرتفعات وتظهر تضاد الخلفية فتبدو رقطاء رمادية وبعض الأخضر. وهبت نسمات عاطرة لأزهار الفل فرأى النافذة الغربية على حافتها تنكات الجبن القديمة ومنها تتصاعد أغصان الفل والقرنفل وتشكل جداراصيفيا بين البنات في المشغل وبين الجيران.

وتذكر نوافذ قصر آل الوشمي وأصص النخيل المنعكسة على بلاط يلمع كالمرآة. أما هنا، فبلاط منقوش بزخارف تبدو جرداء بلا لمعة. ثم الأصوات من خلف الفل عند الجيران وعزف منفرد على القانون من الراديو وبكاء طفل. ورغم الضجيج وخلو المكان من الراحة إلا انه أحس بانسجام عجيب مع الأصوات ووجوه البنات ورائحة الفل. ثم عيبال بواجهته وارتفاعه يبدو مهيبا مثيرا للرهبة والإعجاب. فهنا الصخور ومغر الثوار وصبار الجبل ومزار الست سليمية وشيخ العماد. وكذا تاريخ المدينة وأبو سعاد. أبو سعاد في معتقل الرملة منذ سنين، ورغم ذلكتعيش العائلة بلا شكوى وتستمر الحياة.

جاءته سعاد بكوب عصير مثلج وفيه نكهة زهر الليمون فاكتمل الجو، وأحس بدفء واسترخاء فارقه مذ غادرا عين المرجان ودخلا مدينة رام الله ثم بيرزيت ومهرجان الغناء. هناك أحس بكل شيء غريب. أما هنا، فالناس بسطاء بلا تحذلق بطانات ولا أسرار. رائحة الفل المختلطة برائحة الطبيخ وأصوات الماكنات المختلطة بعزف القانون وصراخ الناسوباعة النعنع

والفقوس ورائحة الخبز وزامور "بكب" يقتحم السوق وصوت السائق يزعق ويقول "وسّع، وسّع." لكن فجأة، انتفض وارتعد وهب واقفا فاندلق الكوب فقالت فتاة، "اسم الله عليك، هذي القطة. تعالي يا سعاد."

وجاءت سعاد وأخذته لفوق للعلية حيث الكراكيب وسرير عتيق وشلل الخيطان. وفي زاوية العلية رقدت قطة فوق جلد خروف وبجانبها صندوق تراب وماء وأكل وطبة خيطان وثلاث قطط صغيرة جميلة تلعب وتنط فوق الطبة بشكل مضحك والأم ترمقها باتزان عجيب. سأل سعاد لماذا لا تلعب الأم مع الأطفال فقالت بجدية ودون ابتسام، " لأنها أم." ومدت يدها وحملت قطة بيضاء صغيرة بحجم الكتكوت ووضعتها على صدرها وأخذت تتحسس فروتها وتناغيها . حاولت وضعها فوق صدره وبين يديه فارتد للخلف وأبعد رأسه فقالت بعتاب، "تخاف من قطة كتكوتة حلوة وناعمة؟! المس، المس ما أنعمها." فمد يده ولمس فروتها فنظرت إليه بعينين فيروزيتين مثل خرز مضيء ووجه ناصع ببياض الفل. كان وجهها الصغير كوجه آدمي جميل، طفلة صغيرة، ملاك صغير، وعيناها أجمل من أي شيء رأته عيناه، فيهما فهم وذكاء وحيوية. سحرته وشدته فمد يده ولمس الفروة فلحست يده بلسان خشن كالمبرد، لكنه فهم اللفتة وفهم أنها راضية عنه وتتودد إليه فحملها، وحين وضعها فوق صدره وأخذ يتحسس فروتها أخذت تخرخر وتبربر بصوت صغير مثل ارجيلة صغيرة أو موتور صغير. لكنها ليست موتور ولا آلة، بل هي حيوان، شبه إنسان، أو شبه ملاك، وجميلة رقيقة لأبعد حد.حملق بسعاد مندهشا فهزت رأسها وقالت مشجعة باسمة: "حتى تعرف أن الحيوان بيحب الناس." فهز رأسه، وأخذ القطة وتشبث بها. ومنذ تلك اللحظة باتت نموذجا رائعا لمعظم صوره.

لكن ما أدهشه فعلا هو موقف سعاد. سعاد الجدية المجتهدة أضحت هنا في العلية أمام القطة مثل الأطفال. كيتي كتكوتة، عنبر يا قمر، وظريف يا لطيف يا بو دم خفيف، كلها أسماء وعوالم لقطط وأشجار ونباتات. تدرس أحياء ، سعاد هذه، وبدت الأحياء في عالمها شبكة علاقات منسجمة بين النباتات والمخلوقات وقطط وكلاب وعصافير. ورغم انهم لا يملكون جنينة ولا حديقة، إلا أن دارهم المعلقة فوق القباب والأقواس مليئة بأزهار بيتية ونعنع وياسمينة تتعربش فوق المدخل وتجعل منه عريشة صغيرة، أصغر بكثير من الكازيبو، وأجمل بكثير من الكازيبو.

قالت له وهي تؤشر،

- هذا ريحان، وهذا قرنفل. وهذه شمعة وأسمها بالبلدي السبع سنين. شوف الأزهار، مثل المخمل.

ونظر إلى الأصص وتنكات الزرع وأحس انه محاط بحديقة ريانة. فهذا مرجان، وذاك فلفل، وزنبق وسجادة وعطرية.

سأل باسما،

- هذه أحياء؟

أشارت إلى القطة فوق صدره وقالت مؤكدة باسمة:

- وهذه أحياء.

قال مفكرا،

- يعني أحياء تعيش وتموت.

أكدت كلامه مبتسمة،

- كل الأحياء تعيش وتموت، لكن الموت مش نهاية.

سأل بفضول،

- يعني؟

- يعني ممكن نموت حتى يعيش الناس.

قال بحيرة،

- يعني نهاية!

هزت رأسها بالنفي وابتسمت، فسأل بحيرة:

- يعني ممكن نعيش من بعد الموت؟

أشارت إلى القطة على صدره، فسأل بدهشة،

- مثل القطط؟

قالت مؤكدة باسمة،

- مثل القطط، بسبع أرواح.

رأته مرتبكا ملخوما والخجل يتعثر بلسانه فقالت مفسرة بوضوح،

- كل الأحياء لها أرواح، ولما تموت تحل بأجسام جديدة: زهرة، شجرة، قطة، عصفور. فاهم عليّ؟

هز رأسه هزة صغيرة، ثم عدة هزات متتاليات وقال بحيرة،

- لأ مش فاهم.

قالت ساهمة بتأمل:

- يعني الزهرة حرام نقطفها والأشجار حرام نخلعها والقطة لازم نعاملها كالبني آدم لأن فيها روح الأحياء والخالق ويمكن بداخلها روح إنسان.

نظر إليها وأحس أنها تتفلسف عليه أو تسخر منه فأرخى جفنيه وأغلق فمه وقرر أن يستمع ولا يسأل فانتبهت إليه وقالت بجدية ودون ابتسام،

- شوف وتأمل.

ونزعت القطة عن صدره وقربتها من وجهه وقالت بإلحاح:

- شوف عينيها، شوف وتأمل.

تطلع في وجه القطة ورأى وجها شبيها بوجه إنسان، إنسان جميل يتنفس وفم صغير مثل الياقوت وأنف صغير كحبة فستق، والوجه الأبيض مثل البدر. وتذكر ميرا وسحنتها والنمش فوق الأنف الصغير فسأل بحيرة:

- طب واليهود؟

لم تسمع سؤاله واستعادته، فاستدار بوجهه عن عينيها وسأل بقلق،

- طب واليهود؟

- مال اليهود؟

- يعني اليهود، كيف؟ مش فاهم.

قالت ببطء،

- يعني اليهود طبعا إنسان.

- ولهم أرواح؟

وقفت أمامه وابتسمت،

- أنت قل لي.

استدار جانبا وهمهم بقلق،

- يعني الزهرة حرام نقطفها والأشجار حرام نخلعها والقطة مثل البني آدم، طب واليهود؟ ليش نخلعهم؟

سألت بسرعة وصوت حاد،

- احنا خلعناهم يا أحمد؟!

لم يجبها، ومشى خطوات بعيدا عنها، فلحقت به وقد أحست بحيرته وارتباكه فعادت تسأل،

- أنت قل لي. مين خلع مين؟

لم يجد في عقله أي جواب مقنع ونزيه إلا أن يقول بكل بساطة "هم خلعونا." لكن ميرا والقطة وبوبو وسعاد وكل الأحياء، كل الأرواح، كل النباتات والأوادم والمخلوقات، وميرا الحلوة مثل القطة، أو أن القطة هي ميرا، والقطة تبربر على صدره بصوت خافت مثل الموتور، لكنها ليست آلة، بل هي إنسان، شبه إنسان، وبسبعة أرواح.

سأل فجأة،

- أبوك في السجن؟

هزت رأسها وقالت بجمود،

- أبوي في السجن.

طأطأ رأسه وقال بحيرة وهو يتحسس القطة فوق صدره وصورة ميرا تروح وتجيء أمام عينيه وتتكبر، والقطة تموء،

- وطبعا أكيد أنت حزينة!

سأل السؤال وكأنه ليس سؤالا، بل هو واقع، ولهذا لم تتجشم عناء الرد فاستدارت ومشت خطوات نحو الأصص وتنكات الفل وقالت همسا،

- السجن قدرنا زي الموت، كتب علينا.

والتفتت إليه وابتسمت وسألت بغموض،

- ومن بعد الموت...

سأل همسا،

- تحل الروح بجسم جديد؟

أشارت للقطة على صدره وقالت همسا،

- بسبع أرواح.

18

أصبحت القطة أهم مخلوق في حياته. يطعمها الحليب والخبز واللبن فتلعق السوائل وتنأى عن الخبز. كانت ما زالت بحجم الكتكوت، لكنها خلال أسابيع كبرت ونمت وبدأت تقفز وتختبئ خلف الكنبة حين يفاجئها أحد في الدار وهي تخمش أنسجة العفش. حاول إفهام صديقته ميرا أن القطة أحلى من الكلب، لكن ميرا لم تفهم. قال لها وهو يؤشر: "عنبر يعني كات، يعني قطة." فلم تفهم. قال "بسة، يعني ناو ناو." فضحكت وقالت له "ناو ناو." أشار إلى الكلب وقلد صوته وقال "لو هاو هاو مثل بوبو، عنبر ناو ناو." فضحكت ونفخت ولوت يدها وقالت ناو ناو ثم ركضت ومن خلفها ركض بوبو. تمنى لو استطاع أخذ ميرا حيث القطة حتى تراها لكنه كان يعرف أن دخول ميرا إلى بيته غير معقول فماذا ستقول أمه عنها؟ وكيف

سيتصرف معها أبوه؟ كما أن المسافة بين المستوطنة وعين المرجان بعيدة ووعرة. هو يستطيع الوصول إلى ميرا واحتمال لأنه صبي وأكبر منها وأخشن منها لأن العرب اخشن منهم واعتادوا التعب وقطع المسافات. هذا ما قال أبوه لمجيد، لكن بسخرية غامضة، "أخشن منهم؟ يا ريت أخشن." قال أبوه، "يعني تعودنا على القلة والتعب والجوع، يعني أصبر." قال مجيد مبرطما، "يا ريت أصبر." ونهر القطة حين اقتربت من جيتاره وقال لأخيه، " إبعد القطة عن الجيتار أ حسن ما أرميها من فحمل القطة وخرج بها لجنينة الدار وابتعد بها نحو الهضبة ومشى ومشى وهي ساكنة هادئة تنظر بعينيها وتستوعب. أحس بدأت تفهم وأنهاكالطفلة المجتهدة تراقب الأشياء وتتعلم. تنظر إلى الدنيا بعينيها وتحرك رأسها حسب الأصوات وترنو إليه حلوة وكأنها تقول "أنا احبك." فيضغطها إلى صدره ثم عنقه ويقبل جوانب عينيها وخلف الأذنين ويهمس بهيام، "عنبر يا قمر انت حبيبتي."

وفي يوم ما حمل عنبر وذهب بها نحو الهضبة، لكن القطة خافت من الكلب وهربت وركضت واختبأت بين الأشواك. بحث عنها في كل مكان. بين الصخور، تحت العلّيق، خلف الطيون والزعتر، لكن لا وجود لقطته، ولا لبوبو، وأيضا ميرا. ميرا تركته يبحث وحده. نظرت إلى القطة وابتسمت وقالت "يوفي"، لكنها حين نبح الكلب على القطة لم تبد اهتماما ولا قلقا. اختفى الكلب واختفت القطة وذهبت ميرا. وبقي وحده يبحث بقلق.

جلس على الصخرة حزينا ينتظر ظهور قطته وسماع حركتها بين الأشواك. أصيب بالوحشة وبحزن خاص غريب من نوعه. كانت القطة قد بدأت تتجسد له بشكل مخلوق ليس بحيوان، بل قلب وروح تتحرك عند قدميه وعلى ذراعيه وفوق صدره حين يحملها ويدور بها أنحاء الدار. هذا المخلوق له قلب يدق وأذن تسمع ويلبي النداء. يقول "عنبر" فتلتفت إليه من كل زاوية واتجاه. خلف الشجرة، تحت الكنبة، فوق السرير، فوق المقعد. يقول "عنبر" فتلتفت إليه وتركض نحوه. أحبها في البدء لأنها تأكل من يده وتعتمد عليه. ثم أحبها حين كبرت وصارت تتجاوب لملامسته وتجعله يحس أنها مخلوق يبادله الحب. أتحبه أكثر من ميرا؟ أيحبها أكثر من ميرا؟ أم أن القطة هي ميرا وبديلا لها؟

في البدء أحس انها ميرا. يتخيلها. يضعها على صدره في وضع عناق ويناجيها. يهمس "ميرا" فتموء القطة وتقول "ناو." يقول "أحبك" فتقول "ناو". وفيما بعد أخذت الكلمة تتجسد، وكذا القطة. أصبحت القطة لها ذاتها داخل ذاته. صارت مرآة لأفكاره. تهجم على الحشرة تداعبها وتدوخها حتى تتعب، ثم تضربها وتأكلها. في البدء أحس أنها موحشة ومثيرة للقرف والاشمئزاز، لكنه فهم القصة، قصة الحيوان والطبيعة، وقصة الإنسانوالطبيعة، وقصة الدفاع عن الحياة باقتناص الحياة. قال لأبيه: لو أشبعناها ما قتلت. ابتسم أبوه وقال برأفة: لكن الطبيعة يا ابنيتغلب الطبع والتطبع. قال: يعني؟ قال: الحيوان يقتل ليعيش، خلق ليأكل، ويأكل ليعيش. قال: والإنسان؟ قال: الإنسان يقتل ليسود. يعني ماذا؟ يعني سلطة، يعني سياسة، يعني تعاسة، يعني استعمار. "طب واليهود؟" التفت أبوه وسأل بفضول: أنت شو رأيك؟ هز رأسه وحمل القطة ومشى بها نحو الدرج ووضعها هناك. أحس أنها مثل الإنسان، تقتل لتسود. قاصصها هناك فوق الدرج، وأغلق الباب عليها. ثم عاد ليصالحها لأنها حيوان يقتل ليعيش ولأن الفكرة خطرت له واستولت عليه حين سمع عن عملية مستوطنة معاليهدوميم. الفكرة تقول أن الإنسان في هذا الوضع مثل القطة، يقتل ليعيش. أي أن الإنسان لا يقتل فقط ليسود، وكذلك يقتل ليتحرر، ويقتل ليعيش. وهذا يؤكد ما قالته سعاد أن الإنسان يموت ليعيش. يقتل ليعيش، ويموت ليعيش. أي أن الحياة والموت لا ينفصلان حين نفكر بالحرية.

وبدأت القطة تتخذ شكل إنسان. أحيانا طفلة وأحيانا فتاة وأحيانا ميرا صاحبته. لكن ميرا لم تعبأ به وعبثت بالكلب، أما عنبر فتحبه هو، طفلته هو، حبيبته هو، وأقرب مخلوق إلى نفسه.

هو بالطبع ما زال خجولا منطويا، يخاف الناس ويخجل منهم، وما زال يتأتىء ويتلعثم ويرتد بحذر عن كل مخيف. أما القطة، فتهجم وتتحفز وتداعب قبل أن تضرب ضربتها وتلتهم الفأر. فأر صغير بحجم الصرصار أكلته بتلمظ واستحسان، وجلست على العشب تغسل فمها بيدها البيضاء الصغيرة وشبه ابتسامة على وجهها. أحس بالقرف والاشمئزاز، ثم بإعجاب، فهي تستحسن ما تفعل، وها هي تبتسم وتتلمظ. وابتسم لها وقال برجاء " عنبر يا قمر، أعطى أي شيء لو تبتسمي مثل الإنسان." فانتبهت له وحدقت فيه، ونظرت إليه نظرة جميلة، نظرة زرقاء فيروزية، كالحجر الكريم، لون الياقوت والزمردومياه صافية عذبة كمياه البحر في الروزنامة. لم ير البحر، لم يصل إليه. لكن أبوه قال له وهو طفل صغير: البحر هناك مثل الياقوت والزمرد. في يوم ما سآخذك هناك. لازم نرجع.

19

جاءت سعاد لزيارتهم. جاءت مع شاب من الفرقة. دخلوا الغرفة وانغلق الباب. ارتفع صوت أخوه يصيح: أنا واحد حر. ثم جاء أبوه ودخل الغرفة. ترك الدكان وجاء فجأة واتجه مباشرة حيث الشباب. وسمع الصراخ أكثر من قبل. أبوه يصيح وأخوه يصيح وسعاد تقول: بعثة روما!

انفتح الباب بارتداد عنيف وخرج أخوه وأبوه يصيح، "من ورا ظهري؟ بدر الوشمي؟ يا ابن الكلب."

التفت مجيد وقال: أنا حر. وحمل الجيتار وجاكيت الجلد وخرج من الدار. خرجت سعاد ووقفت على الدرج وصاحت بذعر: ارجع يا مجيد. لكن مجيد ركب تكسي وانطلق بعيدا عن الأنظار.

نظرت إليه ورأت وجهه فابتسمت له ومدت يدها ولمست خده وقالت: معلش، بكرة يرجع. فطفرت دمعة وخرج من الدار ليلحق بمجيد. لكن مجيد اختفى أثره، فعاد إلى الدار وجلس وحده فوق الصوفا وسمع الثلاجة تهدر فأحس بالوحدة وخوف شديد، فأخوه ذهب، وأبوه غاضب وأمه ملهوفة تروح وتجيء مثل اليويو وتنظر إليه نظرة غريبة فيها استفهام وقلة حيلة وتدعك كفيها وتحوقل وتمشي بتثاقل نحو الباب ثم ترجع وترمقه بخوف.

خرجت سعاد وسألته بلطف عن الحمام؟ أشار بإصبعه نحو الممر. وقفت أمامه تتأمله ورأت وجهه. كان ما زال بصمت. أحس انه يسقط في فراغ كبير وصمت موحش. أحب الأشياء إلى نفسه، عنبر وأخوه. جلست بجواره ووضعت فوق كتفه وقالت بلطف: بكره يرجع. ثم التفتت. بحثت بعينيها تتفحص أشياء الدار ثم سألته عن القطة. فأجهش ببكاء مر حزين حاول كتمه، لكن الشهقة انطلقت منه رغما عنه، فقام واقفا وخرج من الدار. ومشى ومشى نحو الهضبة. صارت القطة لها معنى أكبر بكثير. صارت مجيد، صارت ميرا، صارت عنبر وأحب الناس. لو عادت عنبر لما أحس بكل ذاك الفراغ، فأخذ يتمتم: عنبر يا قمر انت أغلى الناس. وانطلقت أغنية من رأسه، من ذاكرته، أغنية غنتها له أمه وهو طفل صغير فبكى معها، وبكى لها، وضحكت الأم وقالت بحنان: شوف ابنك شوف، ابنك يبكي مع النغمة! يا قصب يا نصب، يا شعر الحرير، يا شعرات أحمد، يا شعرات عنبر، يا شعرات مجيد. واندفع البكاء. آه يا عنبر أنت ومجيد، أنت وميرا، أنت وأنا. وتذكر خلف الزجاج وهي تناديه، وهي تناجيه، وهي تتطلع في عينيه بتلك النظرة وكأنها تقول: أنا أحبك. وأبوه يقول مثل الفيروز، مثل الياقوت، مثل السما وألوان البحر، ساعة ازرق، ساعة أخضر، وساعة بترولي على نيلي. أما ألوان! سبحان الله. سبحان الخالق والمبدع. شوف شو حلوة! شوف شو ذكية. وشقية وطفلة وعفريتة تلعب وتنط مثل الطابة. يلعن أبوك ما أحلاك.

دمدم أحمد: لأ ما تسبها لأني أبوها. فضحك الوالد وقال مداعبا: وله يا أهبل، معقول القطة تصير إنسان؟ تمتم بعناد: هذه القطة مثل الإنسان. قطة ذكية، تفهم علي وتحكي معي وتناديني وتقول بابا. أنا أطعمها، أنا أسقيها، وأحملها بقلبي وعيوني وأشوف في عينيها عيون إنسان. وأراد أن يقول "وأشوف في عينيها عيون ميرا"، لكنه خاف من والده فدمدم همسا: عنبر يا أنت عيوني. وانطلق هناك نحو الهضبة ليرى القطة، ليرى ميرا، ويبكي وحده فراق الأحباب.

20

رآه عيسى عند السياج تحت الشجرة فاقترب منه وسأل بإشفاق،

- مالك زعلان؟ ليش بتبكي؟

خبأ وجهه وأجهش في بكاء صامت حزين فقال الآخر،

- وله يا أحمد، عيب يا زلمة! قل لي مالك؟

لم يجبه وظل يبكي ودموعه تسيل على وجهه وفي كفيه فيلعقها ويحس بالملح وبطعم مر فيتذكر كيف كانت القطة تلعق فمها ثم تغسله بيد حلوة، يدها الناعمة كالمخمل، وطرية منفوخة كالطابة مثل الإسفنج. قال لأبيه: شوف القطة كفها مبطن، مثل الإسفنج. قال الوالد: سبحان الله، الله خلقها، خلق الإنسان على شاكلته وخلق الحيوان من لحم ودم لكن بلا روح. قال محتجا: لأكيف بلا روح؟! عنبر بروح مثل الإنسان، اسأل سعاد. سأل الوالد وهو يمضغ: مين هذي سعاد؟ امتعض مجيد والتفت إليه وهمس بحنق: وله يا فتّان! أوع تكمل. سأله أبوه: ليش ما يكمل؟ احك، تحرك. لكن مجيد ترك الغرفة. بل ترك الدار. عنبر ومجيد! وكذا ميرا. وانهال الدمع كالمزراب.

قال عيسى،

- وله يا أحمد، عيب يا زلمة!

لم يجبه، واستدار بوجهه لجهة الشرق. فاقترب عيسى من السياج وشبك أصابعه في الفتحات وقال مواسيا،

- مين ضربك؟ أبوك؟

وحين لم يجبه، سأل ثانية بفضول،

- إذا مش أبوك قل لي من هو لأكسر راسه؟

وحين لم يجبه، سأل هازئا ومحاولا استدراجه،

- ميرا الهبلة؟

هز رأسه فابتسم الشاب وأكمل محاولة استدراج ه

- ميرا الهبلة جابت قطة، قطة جديدة مثل الأرنب. بيضا وحلوة وعيونها خضر.

همهم أحمد وقد نسي دموعه،

- قطة جديدة؟

ابتسم عيسى لنجاحه وقال مؤكدا،

- قطة جديدة.

- وعيونها خضر؟

- مثل الفيروز.
- ووجهها ابيض؟
- مثل الفل.
- وذنبها طويل زي النخلة؟

حملق عيسى وسأل بفضول،

- كيف عرفت؟

توقف عن البكاء كليا وأحس بالغضب يحرق انفه فمسحه بغيظ ووقف بتحد واستفزاز وسأل بحدة،

- وين القطة؟

انتبه الشاب وضحك بخفة،

- وله يا أحمد، بطلت تتأتىء وتنأيء!

فصاح وقد نسي دموعه،

- وين القطة؟
- حبسوها في قفص مثل الشنطة وأخذوها من الصبح عند الدكتور.
- ليش الدكتور؟
- عشان يخصوها.
- كيف يخصوها؟
- يعني يشقوها ويخصوها.

وأشار بإصبعه كالسكين اسفل بطنه فصرخ أحمد،

- لأ مش ممكن!

وهجم على السياج وأخذ يصرخ: ميرا، ميرا. فنهره عيسى وقال:

- هس، وطي صوتك، أنت مجنون؟!

وحين استمر في صراخه تركه هناك وعاد لعمله.

21

قال عيسى أن اليهود يحبون القطط لكنهم يجرون لهم العمليات. قط الجيران، جيران ميرا، خلعوا أظافره عند الدكتور وقصوا بيضاته ورموها وصار المسكين مثل النسوان. حملق أحمد وعاد يتأتيء: لكن عنبر قطة مش قط! كله واحد. قطة أو كله واحد. والتفت إليه وحاول مداعبته فقال مازحا: حتى أنت ممكن يخصوك. فارتعد وارتعش وأحس بالخوف والغثيان، خوفا من أن يخصوه، فهو إنسان، وبعيد عنهم ولن يخصوه، لكن عنبر! آه يا عنبر! وتذكرها. تذكر عينيها وفروتها. تذكر ملمسها الناعم جدا جدا، دافيء جدا، حنون جدا، وقلبها يدق وهي تبربر كالأرجيلة. يحملها كطفلة على صدره فتلحس يده وتعضعض أصابعه بأسنانها عضات صغيرة وحنونة وكأنها تعبير عن الحب. تريد أن تقول: أنا احبك. تريد أن تقول تسلم أيدك لأنك تطعمني وتسقيني وتحملني طفلة على صدرك. تريد أن تقول أنت سيدي وأنت حبيبي وأبي وأمي وكل الناس. وتنظر

تلك النظرة، نظرة كالبحر في الروزنامة. قال أبوه: ما أحلاها، مثل القمر، وعيونها بحر، وبشوف النور بعينيها. شوف كيف تفهم. شوف شو ذكية. قال باسما: زي الإنسان؟ وله يا أهبل هذي قطة، قطة بلا روح، يعني حيوان. يعني الحيوان بلا ولا قلب؟ لأ عنده قلب، لكن بلا روح. قل لي شو الفرق؟ لم يجبه أبوه بل نفض يده وقال بملل: بلا روح ، بلا روح، بلا روح. صاح بحنق: بس عندها قلب، قل لي شو الفرق؟

آه يا عنبر . .

قال عيسى أن ميرا اشترت لها سلة من القش مثل السرير وله فرشة. واشترت لها علب التونة وبسكوت صغير عليه صور لقطط تضحك، لكن العملية لا بد منها. أم ميرا قالت هيك أحسن، انظف وأحسن، إحنا ناقصنا؟ القطة تحبل وتفقس مثل العرب. إحنا ناقصين؟ بنت الحرام قالت عرب وابتسمت لي وكأنها نكتة أو مزحة.

- وأنت ايش قلت؟
- ما قلت ولا شيء، ايش بدي أقول؟
- بس أنت سمعت.
- طبعا سمعت، وبسمع كثير، بس أنا ساكت.
- وما تقول ولا شيء؟
- ايش بدي أقول؟ قل لي شو أعمل؟
- طيب وعنبر؟

صاح بغضب،

- بلا عنبر بلا زفت بلا حكي فاضي! خليني بشغلي أترزق؟

وذهب لعمله. فجلس أحمد على الصخرة ومد نظره. وأخذ يتأمل ويتخيل. وتخيلها في المستشفى وسكين حادة تعبث بها وتمزقها وتقطع أجزاءها الصغيرة إربا إربا، والقطة تموء، وتنظر بخوف وتبكي وتنوح وتتلفت بحثا عن وجهه وعن صدره، بحثا عن يده ولمسة حب. كم أطعمها، كم سقاها، سقاها الحليب وهي طفلة، فت لها الخبز وهيصغيرة حتى تأكل، ثم كبرت وصارت تحب أكل اللحمة وعظام الدجاج. صحيح انه لم يشتر لها علب التونة وبسكوت صغير عليه صور ولم يشتر لها سلة من قش لها فرشة، لكنه أطعمها من أكله، وكانت تنام في حضنه وفوق سريره. كانت إنسانة وبني آدم. كانت ميرا. لكن ميرا ابتعدت عنه. ما عادت حبيبته الحلوة. صارت مستوطنة صغيرة بكريات شيبع. وما عاد يحب أن يذكرها. لا يكرهها، بل يكرهها، ولا يعرف كيف يصنفها.

قال عيسى أن ميرا تحبس عنبر في قفص كبير حتى تعتاد لأن القطط تهرب وتعود إلى بيتها حيث نشأت. هذا ما قالت أم ميرا، وهذا ما سمع عن القطط من كل الناس. لكن، لكن. لكن ماذا؟ عنبر في القفص ويوم الخميس العملية.

وعاد إلى البيت مثل الميت. فماذا يفعل؟ وماذا يقول ولمن يقول؟ أيقول لأبيه أن ميرا أخذت القطة وحبستها في مستوطنة كريات شيبع؟ سيقول له من هي ميرا؟ وما الذي أوصل القطة لكريات شيبع؟ أيقول له أن ميرا كانت تخرج إليه من تحت السياج ليلعب معها؟ سيصيح أبوه: يا ابن الكلب، تلعب معها؟ مع وسخ البشر؟ لا لن يقول. يكفيه همه وما هو فيه. لو كان مجيد، لو لم يهرب. لو لم يتركه ويتركهم. لو كان هنا لفهم القصة واستوعبها وذهب إليهم وحكى معهم واسترجعها. كان يعمل هناك، ويحكي عبراني وإنكليزي. لو كان مجيد. لكن مجيد ذهب لروما. أما عيسى، عيسى يخاف على شغله ولا يأبه بعنبر وغير عنبر.

قال له في ثاني يوم: خذني لعنبر اشتقت لها. فرفض عيسى، رفض بشدة. لكنه لمح الكاميرا وابتسم لها فخبأها أحمد في عبه وقال الساعة، خذ الساعة، ساعة سويسرية معتبرة، ساعة ديجيتال ضد الميّه. فكر عيسى ثم فاوض وقال النظارة مع الساعة. فخلع النظارة والساعة، وبذا اتفقا.

22

حين خلع النظارة رأى الدنيا في وهج الشمس مثلالكشاف تعمي العينين وسماء قائظة بيضاء. ومن ذاك العشب المتآكل والشوك الجاف ينطلق الحم. حم شفاف يتراقص مثل الزجاج الممُوج وخيوط شعاع تبهر عينيه، فأغمض عينيه وتخيلها. ورأى عينيها في عينيه، ألوان البحر وتعليق أبيه عن الألوان وعن القطط من لحم ودم لكن بلا روح. لأكيف بلا روح؟! عنبر مثلي، مثل الإنسان. قطة ذكية، تفهم علي وتحكي معي وتناديني وأشوف في عينيها عيون إنسان.

قال عيسى انه لن يأخذه إلى القفص وزريبة الدوابإلا مع الليل والناس نيام. حراسة مشددة على الأبواب والمداخل لكن الحفرة تحت السياج من بطن الكلب وكتفي ميرا تتسع له. يدخل منها في عز الليل ويمشي الطريق الخلفية خلف الزيتون وبيوت الزجاج والبلاستك وزريبة الدواب.

- لكن أبوك، إذا شافك أبوك؟

همهم أحمد:

- بدبر حالي.
- وما بتعمل صوت؟

هز رأسه.

- ولا تاخدها؟

لم يجب السؤال فحملق عيسى وشنج وجهه،

- وله يا أحمد، المستوطنين زي الشياطين وكل واحد عنده بارودة وفرد ورشاش. أوعى. أوعى.

هز رأسه وأغمض عينيه. فأصر عيسى وألح عليه،

- إحلف، إحلف.

فكر لحظة داخل رأسه: لن آخذها، لكني سأفتح الباب وأطلقها. وحين أطلقها ستعود الي.

- احلف، احلف.
- والله العظيم، خلص، فهمنا!

رمقه عيسى بطرف عينه ورمق الساعة ثم الكاميرا وابتسم له وابتسم لها.

خرج متلصصا مثل القطة. تخيل انه انقلب إلى قط وله إسفنج طري منفوخبباطن يديه. ومشى في البدء على أربعته ثم اثنتين وانطلق يركض كالممسوس لأن الأشباح والعفاريت وقصص الغولة والجنيات والعامورة ما زالت تعشش في رأسه. أمه ملأته بالجنيات، وبخوف غريب من العتمة وأصوات الليل. لكن الليل سكون مريب وأضواء الليل ونور القمر وخياله يتطاول أمامه وخشخشة الشوك وعواءكلاب البرية ونقيق موتور. واتضح النقيق أكثر وأكثر حين اقترب من الهضبة ورأى المستوطنة تتلألأ بالكهارب والكشافات وسياج من شوك ومواسير وأعمدة طويلة وأنتينات. قال عيسى أن الرادار يلتقط الصوت وأبوه قال أن الرادار يلتقط الصور. فمن الأصدق؟ طبعا أبوه، ولهذا عليه أن يتلصص مثل القطة وبحذر شديد لأن المستوطنين مثل الشياطين، كل واحد على كتفه بارودة. لكن عيسى فرك الساعة وابتسم لها وقال بثقة: ولايهمك، أنا أعرفهم. لكن إحلف ما تاخدها. فحلف وحلف وهو على ثقة بأن قسمه ليس كذبا، بل حقيقة، فهو فعلا لن يأخذها، بل يفتح الباب ويطلقها، وحين تنطلق ستعود إليه.

همس عيسى،

- وله يا أحمد ليش تأخرت؟ تعال من هون، أدخل، أدخل.

ورفع له السياج حيث خرج الكلب وخرجت ميرا، فزحف على بطنه وكفي يديه وحاول التشبه بالقطة. كانت القطة تسيطر عليه، تسيطر على عقله وحواسه. كانت صورتها أمام عينيه لا تفارقه ولا لحظة، وزرقة عينيها وملمسها وخرير الحب وهي تبربر كالأرجيلة وتنام بنعومة على صدره، وعلى يديه، وتحت عنقه. وأحس بالشوق يملأ قلبه فكاد يجن من اللهفة ونسي الأخطار والكشافات وسياج العدو والبوارید وصورة ميرا. ميرا اختفت من مخيلته وما عادت صديقته الحلوة وخدود ناعمة كالمشمش، بل صارت واحدة منهم. أبوه يقول أخذوا كل شيء الله ياخدهم. فهل يدعو الله أن يأخذها؟ وتخيلها مثل الجرحى في التلفزيون، والعمليات، ودماء وشرطة وسيارات، وامبولانسات، وكلاب مدربة تبحث تحت الأنقاض وبين الصخور والشوك والشجر. وأحس بالخوف يزعزع قلبه ويخلخل ركبتيه ويملأ رأسه بدخان كثيف يعمي عينيه ويصم أذنيه ويجعل الدنيا تتأرجح. ورأى الكشاف يكشف ظله فارتمى على الأرض وبدأ يشهق فأمسكه عيسى من كتفه وشد قميصه وسحبه بعنف وقال بإلحاح: يا الله، يا الله! وحين تخلف وقف فوقه وقال بحدة: بدك تفوت والا نرجع؟ وتأمل وجهه في الظلمة ورفع إصبعه وتوعد: لكن الساعة ما بترجع. فدفن وجهه في تراب الأرض وابتسم بقرف ثم برأفة. وعاد عيسى يلح عليه: بدك تشوفها والا لأ؟ قال: طيب، بس آخذ نفس. وأخذ يتنفس في ذراعه ورائحة الأرض تعبر انفه وتثير لديه رغبة في العطس والتقيؤ. وشعر بدوار في رأسه ومفاصله مثل الحليب وعيناه مغبشتان من التعب ودوار الخوف.

همس عيسى وهو يلهث،

- القطة هناك، في البراكس هناك، خلص وصلنا.

رفع رأسه والتفت إليه وسأل بشحوب،

- وين البراكس؟

أشار بإصبعه أمامه وقال بثقة،

- خلص وصلنا. والقطة قاعدة تستنى.

سأل بدهشة،

- القطة قاعدة تستنى؟!

ابتسم الآخر وبدأ يتخوت حتى يكسر كابوس الخوف،

- قلت لها احنا جايين وقالت طيب.

ابتسم أحمد وهمس بخور،

- قالت طيب!

ضحك الآخر وقال بخفة،

- زي ما بقول لك. أنا قلت لها إحنا جايين وقالت لي أقول لك تستعجل.

- قالت القطة أستعجل؟

لم يجبه ذاك بل شده من كتفه شدة قوية فقام على ركبتيه ثم يديه، ومشى خطوات وهو يتدارى تحت الزيتون ودخلا في ظل براكس كبير، وشم رائحة الدواب والزبل والتبن والرطوبة. ورفع رأسه فرأى عن بعد زجاج شباك ونورا ساطعا في براكس قريب. أشار عيسى بإصبعه وهمس بحماس،

- شايف؟ شايف؟ القطة هناك.

اقترب من الزجاج ونظر إلى الداخل فرأى أقفاصا كثيرة فيها كلاب وقطط وطيور وسلاحف. سأل بدهشة عن ذاك المكان فهمس الآخر: هذا مستشفى وحضانة للحيوانات. القطة هناك، شايف عنبر؟

- أنا مش شايف.

- في القفص هناك، شايف؟ شايف؟

- لأ مش شايف.

- طيب تعال، يا الله ندخل.

كان قد لمحها من خلال الزجاج لكنه ادعى عدم الرؤية حتى لا يحسبها عيسى عليه ويقول له "خلص، خلصنا" ويكون بذاك قد بر بوعده. لا لم يرها، ولن يعترف برؤيتها إلا حين يقترب ويلمسها ويفتح الباب ويطلقها. وحين تنطلق ستعود إليه. وتذكر عينيها مثل البحر في الروزنامة. ألوان البحر، الوان الزمرد والياقوت، ازرق نيلي وأخضر شفاف. وتخيلها تبكي خوفا وتزحف على الأرض كما زحف هو وتختبئ من السكين والعملية. ولو كان هناك للجأت إليه واحتمت به وقالت احميني من السكين. ولن تنجب أطفالا بعد اليوم، أو قد تموت في العملية، ولن يرى عينيها بعد اليوم. ستموت. ستموت. عنبر ستموت. وطفرت دمعات من عينيه مسحها بكمه وهمس بحرقة: عنبر يا قمر، أنا جاي، أنا جاي! والتفت لعيسى وقال بحزم:

- يا الله ندخل.

كمش عيسى يده وشده بحذر وقال همسا:

- انا سامع صوت! هس، ولا حركة.

فوقف ساكنا بضع لحظات وقلبه يدق ودمعه يجف لكنه لم يتحرك حتى شده وقال ثانية وبلهفة: يا الله، من هون، يا الله ندخل. ومشى خلفه. وحين دفع الباب اصدر زعيقا مخيفا كنحيب طويل، فانطلق عواء كلب صغير، ثم عدة كلاب من الأقفاص في الداخل ثم الخارج، فسحبه عيسى ثانية وقال بحدة: ارجع، ارجع. لكنه لم يتوقف، بل سحب يده وهجم على القفص حتى يفتحه. لكن عيسى تشبث به وشده من ظهره وهو يفحّ بصوت لاهث: ولك الحرّاس! وله يا مجنون! لكن ذاك أخذ يقاوم ويحاول التملص من بين يديه وعيناه عليها بلا زوغان، لكنها كانت تنظر لبعيد، بعيد، نظرة ضبابية بلا تعبير. هل كانت خائفة مثله؟ هل كانت تحس؟ هل هو إحساس الحيوانات عند الخطر، مثل الزلزال؟

وناداها: عنبر! فلم تسمعه وظلت تنظر لبعيد، بعيد. لكن الكلاب سمعت نداه فازداد العواء من الداخل ومن الخارج وأصوات الناس وقبضة عيسى فأخذ يصرخ: الباب! الباب! فصفعه عيسى على رأسه فازداد هياجا وتعاسة. عنبر غافلة لا

تنظر، وعيسى يلاحقه، وكلاب الداخل والخارج تعوي بجنون، وهو يقاوم ويصيح: الباب! لكن بابها لم يفتح، بل باب دفع بقوة على مصراعيه، ودخل الحراس.

وفي غمرة الفوضى وذه وله وصفعات تنزل على رأسه ووجهه وعينيه وسباب الجند وصراخ عيسى وعواء الكلاب والكشافات والسيارات وسيارة جيش وزامور خطر ونوافذ تفتح والصفارات ورجال ونساء أمام بيوت مدججة بالمدافع والرشاشات ورجال يقفون بالبيجامات وبأيديهم أسلحة تبرق تحت النور والكشافات رأى ميرا، لمح ميرا تقف مذعورة بفستان نوم صغير قصير له كشكش، فبكى حزنا وهمس: ميرا! وانطلق صفير.

24

بدأ الحصار الطويل العريض فلنفصل الشارع عن الشارع وصارت المدن أشبه بأقفاص معزولة. فكل مدينة هي جيتو ضخم محاط بجنود ودبابات سدت مداخلها بخنادق وسواتر ترابية وحواجز. وكم مات شباب على الحاجز، ونساء يلدن على الحاجز، ومرضى يموتون على الحاجز، وعمليات قنص وتظاهر وحبس العمال في منازلهم وقطع الأرزاق. وانتفى التنقل بالسيارات، فعادت العربات والحناطير المجرورة بحمير القرى إلى الوجود كوسيلة نقل للمتسللين عبر الدروب الجبلية وصار الركوب على دابة موضة جديدة بعد أن غزتنا العولمة واسرائيل.

لكن مراسلنا فضل القسام، وبفضل الصحافة والإعلام والجريدة، تدبر أمره وألصق على سيارته الفولكس فاجن طابع صحافة وتلفزيون وعرض الكوفية خلف زجاج السيارة بوضع استعراضي حتى لا يصاب برشقة حجر أو صلية نار. وهذايعني أن المراسل فضل القسام وعائلته ماكانوا يحسون بالعزلة لأن لديهم سيارة صحافة بامتيازات لا يملكها إلا الأجانب والصحفيين، وطبعا كاميرات التلفزيون. لكنه، وبفضل عملية ابنه السخيفة، بات ممنوعا من التنقل بين المدن وبات رهين قفص الحصار مثل غيره. فاتصل بمجيد رغم أنفه، وكان ذاك قد قرأ في الجريدة وسمع من الراديو والتلفزيون أن أخاه وقريبه عيسى قد قاما بعملية جريئة وضبطا وهما يحاولان التسلل وزرع الألغام في مستوطنة كريات شيبع وانهما الآن في أحد السجون الإسرائيلية يتعرضان لشتى أنواع الاعتصار والتعذيب. اتصل الوالد وقال لمجيد أن المسؤول عن متابعة قضية أحمد لن يتمكن من تحقيق أي شيء يذكر ولن يتمكن من انقاذ أخيه لأنه عديم الكفاءة والاتصالات ولا يعرف كيف يصول ويجول بين العملاء والوسطاء وقوات الجيش. وأتبع ذلك بصوت يائس وقنوط شديد: وصيتك أخوك. أنت تحرك. وتحرك مجيد على الفور فذهب إلى الوشمي ليتواسطه ووجده هناك عند البركة حيث زاره في ذاك الصباح برفقة أخيه وناوله العنب والفقوسة.

حين رآه الوشمي ظنه جاء ليراجعه بشأن البعثة، فهدأ خاطره بقوله أن البعثة ستجيء حتما في أسرع وقت لكنه لا يعرف متى بالضبط، وان ما عليه سوى الانتظار بضعة أسابيع، وان لم تأت خلال بضعة أسابيع فبضعة اشهر. وهذا يعني أن على مجيد ألا ييأس وان يمضي وقت فراغه بشيء نافع. فماذا يعمل الآن وقد بات خريجا ويحمل شهادة معتبرة؟

سايره مجيد واستمع إليه بصبر جميل حتى ينفذ إلى فسحة صمت يدخل منها. لكن الوشمي عاجله بسؤال بليغ نزل على رأسه كالصاروخ. سأله بسرعة ودون اهتمام وهو يقشر حبات التين،

- قالوا ان أخوك زرع الألغام بكريات شيبع؟

هب مجيد وقال بحدة،

- لأ مش صحيح. هذا كذب. هذا افتراء.

حدجه الوشمي وابتسم ساخرا،

- طوّل بالك، خذ وأعط. كيف ممكن تعرف وتتأكد؟!

فعاد يحلف وكل أعضائه ترتجف بغيظ،

- والله العظيم! ورحمة أمي!

ابتسم الوشمي وقال مهدئا،

- خلي الأموات برحمتهم. المهم أخوك، كيف؟ مش عارف! لكن لو نعرف مين وكيف؟!

همس بلخمة،

- كيف مين وكيف؟

- كيف يعني كيف، ومين يعني مين، بدها شطارة؟

حاول أن يفتح فمه فرفع الوشمي يده وقال "بس"،

- اسمع يا مجيد، أخوك صغير وضحكوا عليه، لكن لو نعرف مين وكيف ممكن نقدر نتواسط له.

صاح مجيد محتدا،

- أحمد مظلوم. أنا متأكد.

ابتسم الوشمي وحرك رأسه يمينا وشمالا ثم لتحت عدة مرات، وهذا يعني أن التهمة قد لصقت به، لصقت بهم، لصقت بالعيلة بأكملها بمن فيهم هو. فما العمل وهذا الحيوان يترصد به ويحقق معه ويقول " مين وكيف؟" وتخيل أخاه يتعرض للمساءلة والتحقيق ثم للضرب والتعذيب فانخلع قلبه وأحس بدموعه تكاد تسيل فبلع ريقه وأخذ يتمتم "يا رب! يا رب!" تأمله الوشمي وقال بحزن،

- مسكين أبوك. وقعة سخنه. ويمكن الدار . . .!

صاح بحدة،

- ينسفوا دارنا ؟!

- كل شيء ممكن. لكن لو نعرف مين وكيف ممكن نقدر نتواسط له.

كز أسنانه وقال بغيظ،

- وأنا كيف أعرف؟

حدجه الوشمي وتأمل لونه المخطوف وقال بهدوء،

- لازم تعرف. ولازم نعرف معنى الألغاز.

- أي ألغاز؟

- قطط وكلاب والفهد الأسود والأبيض.

صاح بدهشة،

- تقصد القطة الصغيرة؟

لم يجبه الوشمي بل ابتسم بلؤم. فعاد يردد بشكل أقرب للاستجداء.

- أخوي بريء والمحامي قال حاجة بسيطة.

- حاجة بسيطة؟ هذي تهمة فيها ألغام وفيها الغاز، ويمكن تنظيم وبن لادن.

صاح وقد بدأ يفقد أعصابه،

- ألغام وألغاز وبن لادن؟ بلا حكي فاضي!

حدجه الوشمي وأحس انه قد بدأ يتمادى برفع صوته. وها هو يتهكم ويتطاول ويقول بوقاحة وقلة أدب: بلا حكي فاضي! هذا البستنجي دقاق العود.

قال بجفاف،

- طيب، طيب، انس الموضوع. لما تتوفر معلومات عن البعثة أنا أبعث لك.

انتفض مجيد وأحس بكوب ماء بارد ينسكب عليه وأخذ يتنفس بصعوبة. نظر إليه الوشمي ثانية من فوق لتحت وعاد يردد بملل وقرف،

- لما تتوفر معلومات أنا ببعث لك.

دار مجيد على عقبيه بحركة سريعة ومشى خطوات ثم أسرع، أسرع، أسرع حتى اصطدم بلورا الوشمي ففاجأته بكلمة "أهلا" طويلة عريضة مثل الموال. فزاحها عن طريقه وقال بعنف،

- زيحي بلا أهلا ولا سهلا، أما ولاد كلب! أما مساطر!

وخرج من الفيلا ورأى شابا يسقي الورود ويرش العنب بمضخة مبيدات حشرية، فتأمله بنظرة غاضبة مشحونة فابتسم ذاك، لكن مجيد استدار فجأة ووقف مقابل باب الفيلا وعاد يشتم:

- أخ تفو يا نور، قال بن لادن!!

فتوقف الشاب عن رش العنب وابتسم ثانية بوضوح.

25

أفاق على صياح ودربكة ولطم وعويل. خرج من الغرفة السفلية ووقف في ممر الكازيبو عساه يفهم ماذا هناك، إذ لا يمكن أن يكون الأمر مجرد سرقة أو مشاجرات عائلية أو أيشيء من هذا القبيل. فالزوجة ما زالت في كندا، والجدة تتصرف كالملكة، ولورا لا يمكن أن تصدر كل ذاك الصياح والحركة، فهناك الخدم والحراس وأصوات كثيرة وكبيرة. تسلل من تحت الدوالي حتى اقترب من الشباك وسمع كلمة " قتلوه، قتلوه!" ثم سمع السيارات وعويل زامور الامبولانس يهدر في الليل. ورأى الشرطة وقوات الأمن وعددا لا يقل عن العشرة يقفزون من الجيبات وبأيديهم الرشاشات. " طوقوا المكان، طوقوا المكان." سمع النداء فلمع الخاطر كلمح البرق في رأسه أنه سيكون أول مشبوه وخصوصا بعد اللقاء القبيح بالوشمي قبل ساعات ودفعه للبنت وهو يشتم ووقوفه في البابوهو يبصق وأخوه وعيسى وبن لادن. وسمع اسمه يذكر عدة مرات وأحدهم يقول، "خرج وهو يسب ويلعن وقال بن لادن." وبدون تفكير، وبردة فعل تلقائية، دخل الغرفة وسحب ملابسه وخرج بالشبشب يتعثر حتى وصل أشجار الكرز فخلعجاكيت البيجاما ولبس القميص لكنه سمع الأقدام تهبط نحوه، فقفز عن السور بحلاوة الروح وما درى إلا وأيد مجهولة تتلقفه وتشد به نحو سيارة خصوصية وشاب يقول " هس ولا كلمة." وانطلقت السيارة بدون هدير في شارع فرعي نحو الوادي، ثم ممرات جبلية، ثم الدخول بالسيارة في كراج صغير خلف بناية. وفي الكراج، وعلى ضوء كشاف متنقل خرج شابان وفكا لوحة أرقام السيارة واستبدلاها بلوحة أرقام إسرائيلية، وانطلقا بها. وهكذا اصبح مجيد طريدا مشبوها مطلوبا وفي أيدي ثلة من الثوار، وبذا ابتدأت صفحة جديدة في حياة الشاب الموسيقي، فهجر الجيتار وحمل الرشاش.

قال له الثوار: أنت منا. فابتسم بأسى لأنه لا يعرف من الثورة إلا كلمات كان يغنيها في الحفلات والمهرجانات فيحس النبض في القاعة ينتقل إليه فيعلو صوته ويندفع الدم إلى قلبه وأصابعه فيغدو الجيتار هديررعود. قال له أبوه "حركت الناس!" فطأطأ وهمس "طبعا، طبعا." لكنه في أعماقه كان يعرف دوافع نفسه، يريد أن يصل المارينا والى عمرو دياب. وها هو الآن في البرية، بين الشجر، تحت الزيتون ويختبئ في مغر منحوتة في بطن الجبل مثل الماعز. اليوم هنا، وغدا هناك، والمشي ليلا في الطرقات الجبلية وهم يحملون حوائجهم وقنابلهم وبعض الديناميت. أحيانا يفجرون سيارة جيش، أو يزرعون العبوات، أو يتسللون لمستوطنة وينسفون محطة كهرباء أو مخزن غاز. لكرهم في العمق، في عمق العمق، كانوا يعرفون أن القوى أقوى منهم. شلومو يحكم قمم العالم، من بكنجهام وواشنطن حتى موسكو. راحت موسكو، راح العالم وبقيت كوبا، وكوبا محاصرة محصورة مثل فلسطين. ذهب لينين وذهب ستالين وما خلفا إلا الفوضى وسقط الميزان واختل الوزن والتوازن وخسرنا الرهان وما نلنا إلا الحسرات والأرامل وجيش لا ينضب من الأيتام والعملاء. كان لنا وشمي واحد صرنا بأوشام. وأنظمة بعمائم ونياشين وحجاج وائمة وتجارة بالملايين. ونحن الملايين، نحن الأيتام مثل الخراف بلا راع يا بلد الشوم!

قال له في المغارة تحت المصباح "اقرأ." ابتسم وقال "ما أنا بقارئ." قال ثانية: اقرأ! فالتفت إليه وتأمل ذقنه وشعر يديه وأظافره. إنسان الغاب، عصر حجري، عصر حجارة وأنا وهو مثل الحجاج نصلي لإله لا يسمع فماذا نفعل؟ قالوا: اقرأ تفهم الكون والطبيعة وأغراض الناس وطلعات السوق. اليوم تطلع وغدا تنزل وما عليك إلا الرهان على علم الغيب.قال الرهان على علم الغيب؟ ما هذا الرهان؟ قالوا إذن، الديك بديل؟ راهنا على العلم ولم ينفع، راهنا على الفهم ولم ينفع، راهنا على الحق والضمائر فما وجدنا إلا غابة وعبدة أصنام وبوارص. أما نحن فلدينا ما هو أقوى، أقوى من الذرة وهيروشيما، أقوى من بوش. ومن هو هذا الأقوى من بوش؟ قالوا الإيمان، اقرأ، اقرأ، وصلي لله أن ينصرنا وان يكسرهم فلا غالب لهم إلاالقوة ولا حول ولا قوة إلا بالله. هز رأسه، ولم يجادل، ولم يناقش، وتمتم بأسى: إن ينصركم الله فلا غالب لكم. وخرج من المغارة يتفرج على الأباتشي وهي تقصف وتدك القرى والمدائن وتنشر الدمار في كل مكان. فرفع رأسه وقال لربه: خمس ركعات أم أكثر؟ ماذا يرضيك؟ وحين لم يجبه حمل الفرشة وبسطها هناك خارج كهفه ونام عليها وحدق أعلاه وقال بحقد: إن أنت غفرت فلن أغفر. إن أنت غفوت فلن أغفو. إن أنت حكمت، فأنا الحاكم. وأغمض عينيه.

27

هب أحمد واقفا وقال بدهشة: أخوي مجيد! فشهقت الأم واصفر الأب ووقف ليفتح.

بكى الرجل على صدر الشاب، لكن الشاب لم يبك، ووقف يتلفت ويتفحص أنحاء الدار. التلفزيون، وصوفا القعدة وطاولة الأكل وبوستر القدس في صدر الدار. ثم تأمل في وجه الأم حتى يعرف هل تستقبله برحابة صدر أم تتأفف خوفا على ابنها كالعادة؟ همست بخوف، "أهله وسهله!" ثم جلست على طرف الصوفا وانكمشت، فنهرها الأب، " لقمة لياكل." فقامت بتثاقل وتمط وهي تتفحص لقاء الأخوين. لم تبد على الأخوين أية لهفة أو أية بادرة من شوق.

جلس الاثنان على الصوفا والأب جلس في مقعده أمام شاشة التلفزيون والأم ذهبت إلى المطبخ. تأمل الأب الولدين ولاحظ فورا ذاك الانسجام الخفي المريب في جلستهما. لم يبد أحدهما أي اهتمام بالآخر. لم يتعانقا. لم يتصافحا، ولم يدل

أحدهما بكلمة شوق. لم يجفل أحمد ولم يرمش. كان يحملق في جهة ما ويرهف السمع ولا يبدي أي تعبير. اختلف الولد، الشاب. صار رزينا ويحكي باقتضاب وهدوء مريب. ومجيد اختلف هو الآخر. شعره قصير لا يلمع، وقميصه كالح ومغبر، ووجهه اسمر لوحته الشمس.

قال الوالد بحسرة وشجن،

- دنيا غريبة، مين يصدق؟

طأطأ مجيد وقال بجدية وخطورة،

- يابا الأوضاع بتتدهور.

علق الوالد بيأس وقنوط،

- أكثر من هيك؟

- أكثر، أكثر.

وتلفت حواليه بفراغ صبر وقال بقلق،

- أرتال الجيش والدبابات وألوف جنود الاحتياط. حضروا حالكم.

ابتسم الأب بمرارة،

- نحضر حالنا؟ أي تحضير؟ لا عندنا جيش ولا عندنا سلاح ولا عندنا ظهر. أي تحضير؟

فرد الشاب كفيه بقلة حيلة،

- رز وسكر وطحين وزيت، يعني تموين.

همر الرجل،

- أكثر من هيك؟

ونظر حواليه وتذكر أحوال الناس. ألوف العمال في كل صباح أمام المحافظات والبلدياتيطلبون العمل ويطلبون الأكل. الحصار استنزف مواردهم وقطع الأرزاق. سوق العمل في إسرائيل أو أي مكان في الضفة سدت بإحكام وبلا منفذ. الدبابات تحيط بالمدن ولا تبقي فتحة صغيرة ينفذ منها قط أو كلب. والاشتباكات اليومية على الحاجز في كل قرية ومدينة تصبحهم وتمسيهم بشهداء جدد وجنائز ومظاهرات فيها أعيرة نارية وشباب غاضب وشعارات. والأنكى من ذلك كله أن الخروج من ذاك النفق وذاك الحصار يبدو بعيدا وبلا تحديد. والآن شارون وحكومته ويمين اليمين يهدد بالغزو للكنتونات وترحيل الناس. أين يرحل؟ رُحّل من حيفا وهو صغير وعاش طفولته في المخيم وباع العلكة. وأبوه مات في المخيم على بسطة نعنع بعد الكرمل وبيع السجاد. وها هو يشهد تشريد ابنيه أمام عينيه ولا يقدر على ضبط الوضع. وهذا يعني أن ثلاثة أجيال من عائلته عاشت وتموت في هذا الصراع. وجيل ورا جيل سيتشرد. حرب بلا أمل ولا تكافؤ. دوامة تسحب ضحاياها للمستنقع والموت الرخيص بلا مقابل. فماذا يفعل هؤلاء الشباب أمام القوة؟ قوة محصنة بالطيارات والدبابات والصواريخ وأحدث ما تنتج أمريكا من أسلحة وأجهزة الموت. ماذا يفعل هؤلاء الشباب؟ ما نفع الموت والاستشهاد؟ موت عبثي بلا مقابل، وبلا مردودقال فجأة وبدون وعي أو تفكير،

- سلم نفسك.

التفت مجيد وحملق أحمد، لكنهما لم ينبسا بأية كلمة. كانا يعرفان أن الوالد قد بدأ ينخ لضغوط الوضع. الناس ما يشترون الكتب لأن الرغيف أهم وانفع. وجريدة القدس ما عادت تبيع لأن أخبار التلفزيون أوسع وأسرع. وأفراد الأمن

يكبسون الدار كل ليلة أو كل يومين أو ثلاثة. وإذا اجتاح اليهود مدن الضفة فاحتمال النسف وارد جدا. فماذا باستطاعة هذا الأب أن يتحمل أكثر من ذاك؟ وتبادل الأخوان نظرات الشك والرأفة فاغتاظ الأب وقال بحدة وهو يشير بإصبعه لمجيد،

- أنا مش أعمى. هذا الولد . . حرام عليك!

علق الصغير باقتضاب مريب، وبدون تأتأة وارتباك،

- أنا مش ولد. أنا كبرت في السجن.

لاحظ الوالد لأول مرة أن الولد ما عاد يتأتيء أو يخجل. ففكر بذهول: ربما السجن أو غيره، وغيره وغيره! لكنه رغم ذلك صاح مكابرا وبيأس شديد،

- لأ ولد ونص، لسه امبارح كنت تلبس شورت وتلعب بالقطة والألوان. كيف تغيرت؟ ليش تغيرت؟

ورفع إصبعه لمجيد،

- كله منك.

لمس مجيد ركبة أبيه وهمس بإشفاق،

- يابا مالك؟ أنت تغيرت!

صاح بحرقة،

- أنا أب يا مجيد، أنا بني آدم؟

صاح الصغير بدون توقع،

- يابا شو نعمل؟ قل لي شو نعمل؟

فوجئ الوالد بالسؤال فانطوى يجتر تردده وتساؤله وخوفه على بيته وأولاده. وتذكر ما كان يكتبه وينادي به ويحرض مجيد على فعله. ألم يقل له: خذه وعلمه؟ ألم يسخر من الولد لأنه مثل البنات بدون عضل؟ أما كان يخاف عليه من الدنيا لأنه ناعم وخجول ويتأتيء؟ فماذا جرى؟ لماذا تغير؟

قال مجيد بعد فترة صمت،

- هذا قدرنا.

وأبتسم ابتسامته الصفراء وأردف بأسى،

- معزوفة موت ولازم نرقص.

صعق الرجل وتخيل ولديه محمولين على الأكتاف ملفوفين بالأعلام والأزهار مثل الباقين، مثل الشهداء والضحايا بكل الأعمار. فلماذا الموت؟ أهناك سبيل غير الموت والتشرد والهرب من الجيش والشرطة؟

قال بهدوء، وحاول أن يبدو منطقيا مقنعا وغير منحاز،

- أنا من رأيي تسلم نفسك وتثبت للسلطة انك بريء.

تبادل الأخوان نظرات الشك فقال بحدة،

- إذا كنت بريء سلم نفسك.

سأله مجيد بابتسامة،

- وإذا سألوني مين القاتل؟

لم يجب الرجل. فعاد يلح ويرفع صوته،

- أقول مين قتله؟

وحين لم يجب أخذ يفصّل،

- إذا أنا سلمت لازم تحقيق، ويمكن تعذيب، ويمكن اضعف. انت بتضمن؟

لم يجب الرجل، فعاد يسأله ويستجوبه،

- انت بتضمن؟

همس الرجل بضعف وأسى،

- وتخسر حياتك وشبابك والمستقبل؟

خفض مجيد صوته وسأل بإشفاق،

- يابا شو أعمل؟ قل لي شو أعمل؟

لم يجب الرجل، لكنه أحس بنفسه يذوب في جلد ەخجلا، خوفا، حيرة وارتباكا. ما عاد يفكر بشكل سليم. فقد السيطرة على أعصابه فانشل العقل وبدأ يخرف. أيريد من ابنه أن يشي بالناس وأولاد الناس؟!

أمسك بيدي ابنه وقال مستعطفا وبقلب كسير،

- تطلع فيّ.

نظر مجيد مستطلعا ولم يفهم المقصود فأعاد الأب،

- عيني بعينك وقل لي المظبوط برحمة أمك.

انتبه الشاب ونظر بإشفاق لأن أباه فقد ثباته، ولأن الضغط بدأ يهده. ألح الرجل،

- عيني بعينك. برحمة أمك، أنت القاتل؟

هز مجيد رأسه وهمس بإشفاق،

- الوشمي لأ.

هتف الرجل،

- وغير الوشمي؟

لم يجب الشاب، فعاد يلح،

- برضاي عليك، قل لي المظبوط.

لم يجب الشاب، وسحب يديه وقام متجها نحو الباب يتبعه أخوه. وقف في الباب واستدار إلى الوالد وقال بإحساس،

- يابا ارض علي، هذا الواجب.

فأحس الرجل بالفجيعة لأن المصير قد تقرر وماعاد هناك مجال للشك. وهذا يعني أن ابنه صار شهيدا، مشروع شهيد. وهذا الذي كان يغني ويسبسب الشعر ويتولدن! وابنه الصغير ينتظر الدور. إذن هكذا، معزوفة موت ولازم نرقص. أهذا مستقبل أبنائه؟ أهذا مستقبل كل الأبناء؟

هتف مجيد وهو يرى أباه يحملق بجمود وكأنه فقد صوابه،

- يابا ارض عليّ.

انتبه الأب فتمتم بذهول،

- الله يرضى عليك يا ابن شهيرة.

وسمع امرأته تهتف خلفه،

- وابني أنا؟

همس بذهول،

- وابنك أنت.

وهبط على المقعد بارتماء ثم تذكر أن ابنه لم يذق العشاء، فحاول الوقوف ليلحق به. لكنه سمع الحركة وأصوات الشباب في الخارج فعاد وارتمى وهو يتمتم،

- وولاد الناس.

28

قسّمت البلد الى كانتونات، والأهل فقدوا التواصلمع الأبناء والحكومة. الحكومة بواد، والشباب بواد. حكومة تشتغل للحاضر ولا تعمل للمستقبل. والمستقبل هو هم الأهلوالأبناء. فماذا سيحل بهؤلاءالشباب؟ الحاضر ضباب، والمستقبل في يد عفريت، وضياع يقود إلى الهاوية واحتدام العنف. حتى هذا، هذا الأحمد، الولد الرقيق الخجول الرهيف، ما عاد يتأتىء أو يخجل، وما عاد يقعد في مكانه يقرأ ويرسم ويشاهد مايكل جاكسون. صار يفز عن الكرسي ويخرج من الدار ولا يعود إلا مع الليل. ما عاد يقعد في مكانه يقرأ ويرسم ويشاهد مايكل جاكسون. صار يفز عن الكرسي ويخرج من الدار ولا يعود إلا مع الليل. ماذا يفعل؟ وأين يغيب وبم يفكر؟ وماذا عن المدرسة ودروسه؟ قال الأستاذ: "طبعا، بالفعل، هو تأخر. وماذا تتوقع من ابنك؟ التجربة قفزت بعمره وما عاد بطفل. ولكن قل لي، هل من أخبار؟" ادعى الوالد عدم الفهم فالحذر مطلوب، والبلد مليئة بالعملاء والوشاشمة. فقال بغموض: ما من أخبار إلا شارون وفوزه بالحكم. وسيفعل بنا ما فعل بصبرا وشاتيلا. استر يا رب. همس الأستاذ: أقصد مجيد. حملق الوالد وقال بجمود: استر يا رب. سلامو عليكم. ومشى بلا إذن ولا استئذان. ماذا يفعل؟ الخوف يخيف. وحتى من كنت تعرفهم لا تعرفهم. فلان ابن فلان صار عميلا. وابن البقال صار عميلا. وابن أبو يوسف. وبائع زلابية وتمرية، وبائع ترمس يحمل بسطة ويدور بها بين الأحياء ويستطلع. صرنا أجراء، صرنا زبالة. ورغم ذلك فالعمليات لا تتوقف. بار ينسف، عبوة تُفجّر، وشباب ملوا القذارة والاحتلالوقيود السجن فباتوا قذائف. بات الشباب بلا أمل فأضحوا قنابل مفخخة تمشي وتنتقل على قدمين وتضرب في العمق وتتحدى حالة الطوارئ والاحتياطات والحواجز وحصارا خانقا دام سنة، ثم سنتين، ثم سنوات. أهناك أمل؟ أهناك مفر؟

قال مجيد لسعاد من تلفون قريب في الشارع ،

- حضروا حالكم. أرتال الجيش والدبابات والمجنزرات وألوف جنود الاحتياط.

قالت،

- أعرف.

وفتحت له الباب فصعد إلى السطح والعلية.

كان يعرف أنها تعرف لكنه أراد الإحساس بأنه ما زال ابن الدنيا وهاوي الغناء والموسيقى. وكان يريد بعض الرفقة أو بعض الدفء. العيش بعيدا عن أهله وحياة الناس جعله يجف. قلبه صدّى. إحساسه مات. والأمل السابق في أن يعيش للموسيقى انقضى اجله. فها هو يغطس في برك الدم ويتنفس دخان البراكين. لماذا ما عاد يخاف الموت، هو أو غيره من هذا الجيل؟! جيل ولد في الاحتلال وتربى عليه وعاش جوّه. والاحتلال يعني تناقض: ثورة وإذلال، عمالة وفداء، خسة ونذالة وتجسس، وكذلك تضحية قصوى تصل الفداء بتفجير الذات. وهو هناكفة ميزان تتأرجح، بل لا ميزان، فأمور الشعوب توزن

بالعقل والمصالح. أما هنا، فكل الحسابات بدون بواصل. وهذا ببساطة يفسر لنا لماذا غنى لمحمود درويش ثم غنى: سيبوني بحالي اروح مطرح ما اروح. هو ابن جيل طالع ونازل لم يعرف إلا الهزيمة واحتقار الذات. وكردة فعل تنتفخ الذات بقصيدة وحلم خارق يملأه الغاز ثم ينفجر بعملية في أفق ضحل.

عادت سعاد وفي يدها صينية عشاء. جلست على حافة السطح وهو يأكل. قالت همسا،

– أضواء الجيش والدبابات في راس الجبل. طوقوا نابلس، وما فيها منفذ لقطة. كيف تسللت؟!

ابتسم وقال وهو يمضغ،

– سر المهنة.

وصمت لحظة وأردف ببرود،

– لو حطوا سياج من السما للأرض نقدر نوصل ونفجّرهم.

وصمت الاثنان وهو يأكل والناس نيام. كانت نابلس تغرق في الصمت والتوجس. جوع الفقراء وفقدان الشباب والطيارات تقصف أهدافا مدنية وعجز الأهلين عن فك الحصار ورد الصواريخ جعلهم يؤمنون أن الحجارة ما عادت تفي بالغرض. أنت تقاتل الإف 16 بالمقليعة!! وانتشر القول بين الأهلين وصاروايسخرون من المواجهات العفوية بين المتظاهرين والدبابات، والطيارات، والصواريخ، ونوع جديد من المجنزرات أسموه "عزيزة" للتدليل قالوا لا يعطب أو ينفجر حتى بقنبلة ذرية. لكن أحدهم زنر خصره بشحنة ديناميت وتسلل تحتها فانفجرت به وانقسمت عزيزة إلى شطرين فاقتنع الناس أن الديناميت والجسدالحي هما العلاج وليس المقاليع.

قالت،

– عملية نتانيا، راح ناس كتير!.

هز رأسه ولوى شفتيه ولم يعلق. قالت بحيرة وتردد،

– بس يعني حرام المدنيين وستات بيوت وبني آدمين.

قال بهمرة،

– وإحنا شو إحنا؟

صمتت وما عادت تناقش لأن الموضوع أنهكه البحث وأقوال الناس حول الحلال والحرام والشماتة. كان الشامتون أكثر عددا، بل معظمهم، لأن المعظم في حالة ألم. والألم الطاغي لا يحيي لغة الإحسان. هذا واقع وحياة الناس.

حاول الخروج من الموضوع وتغيير النقاش. كان يريد كلمة حلوة، نهفة مرحة، ذكرى سعيدة تجعله يحس انه إنسان. فالاختباء طوال النهار والتسلل أثناء الليل جعلاه يحس انه يحيا حياة الخفافيش. فهو مطارد من قبل اليهود، ومطلوب أيضا للسلطة. ومع أن التنظيم أعلن مسئوليته عن الحادث وقتل العملاء بما فيهم بدر الوشمي، إلا أن اندماجه في العمليات جعل ظهوره في وضح النهار أمرا محفوفا بالويلات، فكتبت عليه حياة الخفافيش

قال بشرود،

– عندك أخبار؟

التفتت اليه لترى إن كان يقصد أخبار القلب، يعني لورا. لكنه كان متجهما كئيبا وبلحية نابتة لم تحلق منذ أيام فلم على ذكر اسمها لأنها حين ذكرته في المرة السابقة لم يتجاوب وقال بسرعة" أخبار الناس، انسي لورا، أخبار الناس!" فسردت أخبار الناس، أخبار الأهل، أخبار الشارع والجيران، إلا لورا. لماذا لورا من دون الناس؟ كيف نسيها؟ وهل ينسى المرء بكل سهولة؟ هي لم تنس قصتها الحلوة القديمة، وظل الرجل فيذاكرتها هو ذاك الرجل، ذاك الإنسان، ذاك الإحساس، وذاك

الفيضان من العواطف وحنين الروح . وكان أن ظلت عالقة بقصة مجمدة مبتورة كجرح غائر. أين هو الآن؟ قالوا لها في رام الله. من بعد الغربة رام الله. لكنه ظل بعيدا، وظلت هي تحلم برجل مثل ذاك الرجل. وظل الحلم لا يتحقق. وظل الإحساس كماء آسن. أحيانا تسمع أغنية فينساب الحنين. تشم رائحة حساسة فيندفع الشوق. ترى العشاق في التلفزيون فتتحسر وتقول لو، لو كان هنا، لو كانت هناك، لو لم تهجر، لو لم ينقطع الخيط ويموت الحب. لكن بالفعل هل مات الحب؟ لا لم يمت. تنس، فكيف إذن ينسى العشاق لماذا الرجل؟ أم أن الرجل ينسى بسرعة لأن مجالاته مفتوحة وبدون حصار؟ حصار الداخل، حصار الخارج وحصار المجتمع واسرائيل. للرجل فقط حصار واحد، أما هي، فكل الحصارات مجتمعة. وأحست بالغيرة من الرجل ومن ذاكرته ومن نسيانه ومن قدرته على التبديل. لكنها عادت تتأمل ملامحه وتجهمه ولحيته النابتة وهمومه وقالت بل هو مسكين!

قالت همساكي لا تزعجه،

- أخبار الناس مثل العادة، لكن لورا ....

- مالها لورا؟

- تنقل أخبار للتلفزيون.

لم يعلق فبادرت،

- لورا كفاءة.

التفت إليها وسأل بجفاف،

- لورا كفاءة؟!

حدقت فيه من خلال الليل وضوء فانوس البلدية وقالت بجدية وتمعن،

- لورا كفاءة، تعرف لغات ولها اتصالات وتعرف عادات ولغة الغرب.

التفت بعيدا ولم يشأ الخوض بذاك الموضوع فذاك هو نقطة ضعفه، بقعة رديئة في ذاكرته يود محوها والتنصل منها من غير نقاش. تلك الأيام، أيام الولدنة وطيش الشباب، كما أسماها، كان ضعيفا أمام المادة، أمام الأضواء، أمام الحياة ببهرجها وصورة عمان. صورة عمان ما عاد منها في ذاكرته إلا عبدون وذاك الدوار حيث الصبية في عمر أخيه يمشون بترنح كالدراويش ولا يعرفون من الدنيا إلا الممنوع وكلاب الليل حول الدوار تصطاد الممنوع والمحرم. قال له أحد الزملاء: غرب عمان ليس كشرقه. غرب العالم ليس كشرقه. ونحن هنا شرق العالم محاط بالغرب. لا تستغرب.

قالت سعاد،

- لورا اتصلت وقالت الجيش في كل مكان.

لم يعلق فقالت بخبث،

- سألت عنك.

التفت بذعر وسأل بحدة،

- سألت عني؟

لم تجبه وواصلت بصوت متأمل وكأنها تحكي مع ضميرها وضمير الليل،

- البنت المسكينة ظلمناها. كانت تبحث عن معنى نظيف. يمكن أخبارنا تساعدها.

همهم بنفور،

- ويمكن أخبارنا تخوزقها وتخوزقنا.

واستدار بوجهه لجهة أخرى حيث الأضواء والمآذن وبيوت الناسالمحشورين في هذا الحي وهذا الحصار. هؤلاء الناس هم المساكين، وليست لورا. لورا وأخبار؟ من يضمنها؟

قال بغضب،

- أخبار الناس وأخبارنا؟ لورا الوشمي؟! الدنيا حرب!

- وإن كانت حرب لازم نقسى؟

قال بحدة،

- طبعا لازم. القسوة وسيلة حماية. هذا العدو مثل الآلة. جرافة تجرف وما تخلي ولا عود أخضر والناس قدامها زي النمل. وحتى نقاوم لازم نجمد. لازم نكون زي الصخرة ما تزحزحها هبات الريح.

نظرت إليه ثم إلى الجبل وأضواء الناس ثم انفتاح شرخ الجبلين،وكان الهلال من جهة الغرب يخبو ويضيء في ليلبارد مثل الثلج. وهمست بحزن: هذا العدو مثل الآلة، وها نحن نصير مثل الآلة.أهناك أمل؟

29

اختبأوا في الكهف ثم انتشروا. واختفى هو تحت الزيتون وظلال التين، لكن الأباتشي ظلت تحوم فوق رأسه ورؤوس الشباب. أحيانا ترش، وأحيانا تقذف، وهو يقفز من واد لواد وبين الأشجار وبين الأنقاض حتى واجه جرفا خطرا عميق البؤرة. لكن الخطر من قصف السماء أكثر خطرا فقفوتدحرج بين الشوك وهبط في الجرف واختفى أثره.

حين أفاق كانت الشمس مثل الكشاف تعمي العينين. أغمض عينيه، لكن الصداع وصوت الذباب يئز حوله يجذبه الدم، والدم الجامد في رأسه وفوق جبينه. حرك رأسه فاسودّ الكون وغاب عن الوعي.

سمع صوتا يهمس باسمه. فتح عينيه. كانت الشمس عند المغرب، والأفق الأحمر كستارة تغرق بالدم. وهناك شباب مثل الأشباح. سمع الأصوات. قال أحدهم: شظية براسه. راسه مكسور! وغاب عن الوعي.

30

وقفت سعاد فوق رأسه، ثم أحمد. قالت همسا،

- هذا جلوكوز وهذي سوائل. حاول، يمكن. الله أعلم.

تلفت أحمد حواليه وتذكر يوم صعدا للعلية ورأى القطط تعبث بالصوف. وعبر الزجاج رأى القبة ومئذنة السوق، وهو معلق في العليةفوق العالم وعيون الناس، ولا شيء يصله منالحياة إلا الآذان وصوت الآلات ومواء القطط.

جاءت قطة ونظرت إليه مستطلعة فهمس بْس بس" لكنها لم تتجاوب واختبأت تحت سرير أخيه.

تأمل أخاه شبه الميت وأنبوب جلوكوز ينساب إليه ويبقيه حيا يتنفس. أحيانا يئن أنّة صغيرة ومن ثم يعود إلى صمته من غير حراك.

لا يصدق أن مجيد لا يتحرك ولا يحس ولا ينطق. ولهذا ظل ينظر إليه والى القطط ونقط الجلوكوز تقطر وتنساب إلى جسده.

قالت سعاد وهي تعطيه كتاب الأحياء: هذا الكتاب مليان رسومات، خذ هوتسلى. فأخذ الكتاب ووضعه قريبا من أخيه حتى يقرأ بصوت عال، فمجيد أيضا سيتسلى. وبدأ يقرأ. رفع صوته. سمع صوته. أعلى. أعلى. لكن مجيد لم يتحرك. ناداه: مجيد، سامع صوتي؟ لكن مجيد لم يتحرك. فترك الكتاب وأنصت يسمع صوت الدنيا وصوت الآلات والسيارات وصوت خطوات تتقدم.

توقف عن القراءة ونظر الى الباب. أطلت امرأة بالأسود. كانت عجوزا بلا أسنان وتحمل صرة. ألقت بالصرة على الأرض وجلست تلهث. لم يعرفها لأن اللباس قد غيرها وطقم الأسنان. نظرت إليه وهي تلهث و سألت بجفاء عن كيف أصيب؟ هز كتفيه وظل يحملق. سألت بغضب،

- مش عارفني؟

لم يجبها فالتفتت لمجيد واقتربت منه وانحنت فوقه تتأمله،

- قل له يا مجيد، قل له يا ستي.

وانحنت أكثر لتقبله، لكنه لم يتحرك.

التفتت للولد وسألته بغيظ،

- وين راح أبوك؟

قال بجمود،

- بعين المرجان. الطرق الوعرة والحاجز...ضغطه ارتفع وقلبه تعبان.

نزعت الغطاء عن رأسها بحركة سريعة وأخرجت من عبها طقم الأسنان ووضعته بسرعة في فمها وقالت بغضب،

- أما حالة! جبال ووديان وكل خطوة وخطوة الدبابات والطيارات ونا س بتركض وكأنها حرب. ألعن من حرب. قالوا لي حفيدك راح فيها، راح وودع. قلت يعني راح وكسر قلبي. لكن ما شا الله اسم الله عليه، ما ناقصشيء.

قال همسا،

- شظية براسه، ارتجاج في المخ.
- شو يعني؟ شو؟
- يعني راسه.
- يعني ما بسمع ولا بقشع؟ بلا حكي فاضي! قوم يا ستي. قوم يا مجيد يا حبيب قلبي. قوم يا عيوني.

وأخذت تهزه فتماوج كيس الجلوكوز فوق رأسه وكاد يقع فقالت بغيظ،

- شو هذا؟
- هذا جلوكوز .
- شو يعني؟ شو؟
- يعني سائل لتغذية الجسم.
- وليش ما باكل؟
- لأنه لا صاحي ولا واعي.

التفتت اليه وحدقت فيه وصفقت خده عدة صفقات،

- ستي يا مجيد. قوم يا حبيبي. هذا العكروت عامل حاله زي الميت. وله يا نصاب. يا الله تحرك.

أصدر مجيد أنة صغيرة فهتفت بفرح،

- شايف؟ شايف؟ مش قلت لك؟ هذا نصاب، طول عمره هيك بحب الحركات. وله يا نصاب يا الله تحرك.

لكنه لم يتحرك فأخرجت من صرتها علبة سعوط. نشقت منها عدة نشقات فبدأت تعطس وحمدت الله وشكرت فضله وكمشت نثرات وضعتها داخل أنفه فعطس عطسات قويةفاهتز الكيس وكاد يقع فوق رأسه.

صاح أحمد،

- الكيس، الكيس!

مشت يدها،

- بلا كيس بلا زفت وحكي فاضي. هات الصرة وهات الكاسة.

أخرجت شاشة من الصرة مربوطة على مسحوق غريب. بلت الشاشة في كوب الماء وبدأت تعصر بين شفتيه. لكنه لم يتحرك. همست برهبة وتشاؤم،

- معمول له عمل!

لم يجب وظل يحدق في وجهها شبه الميت ويهمس بذهول داخل رأسه: كاميرا، كاميرا. أراد تصوير ذاك الوجه. وجه من مادة لحائية مثل المطاط. ثنيات الوجه، كرمشة الذقن، وعيون مغروزة كما الأزرار.

صاح أحمد،

ـ فتح عينيه!

وهب واقفا واقترب منه وحملق في وجهه يتأمله. لكنه عاد وقعد وهمهم بشرود،

- يمكن بحلم.

سلمت على الملائكة وهي تصلي والتفتت اليه بتساؤل. همهم بأسى،

- فتح عينيه حظة واحدة وبعدين غمض.

قالت بثقة:

- كلها يومين أو ثلاثة ويصحى على طول. يا الله ندلك ظهره ورجليه. يا الله يا ستي.

وبدأت تدلك وتغني بصوت أجش: يا ريتني طير لأطير حواليك، مطرح ما تروح وعيوني عليك...فرمش مجيد وصاح أحمد،- رمش بعينيه!

نهرته بغلظة ونفاذ صبر،

- بس بلا غلبة، دلك، دلك.

واسترقت النظر الى وجهه فرأت جفنيه يرتجفان مثل ارتجاج عضلة صغيرة تحت ذبابة في كفل حصان.

سمعا خطوات فخرج أحمد وأطل من أعلى الدرج ليرى القادم وعاد مسرعا وقال بلهفة،

- عيسى، عيسى.

قالت الجدة وهي تدلك،

- أخيرا شرف؟ خليه يطلع.

رمش مجيد بعينيه ونوّس جفنيه. أراد ان ان يقول لها ان عيسى غير مضمون، وأن الزوار للمشغل غير مضمونين، وأن الأحوال من فوق لتحت غير مضمونة فالوضع خطير. لكن سته لا تعبأ، وكل همها في الدنيا ان تدلكه وتعيد الحياة الى جسده.

دخل عيسى وهو يحمل برميل غاز. فمن بعد السجن وطرده من مستوطنة كريات شيبع، بدأ يعمل كصبي غاز. يدور في سيارة بكب مع سائق كهل بلا أسنان، السائق يسوق وهو يوزع. يحمل البرميل على كتفه وبيده مفتاح الشد ويصعد ادراجا لعمارات وينزل دحلات لمواخير ويتعثر، ويلهث ويكح ويتمخط ورائحة العرق تحت ابطه مثل المرحاض.

قالت الجدة،

- روح عالحمام إغسل قرفك.

همهم وهو ينظر للجسد المسجى على السرير وابتسامة بلهاء على وجهه،

- ليش الحمام؟

صاحت بقرف،

- روح عالحمام!

هز رأسه وخطى خطوات نحو الحمام وهو يهمهم. كان يكره الحمام ولا يطيقه. ولولا الحاجات الطبيعية لما وطئت قدماه ارض حمام طوال حياته ولا لمست جسده قطرة ماء. حين يستيقظ صبحا يدخل حماما مثل الزفت تقفز الجرذان من احشائه وتحدق في عينيه وهو مقرفص ولا تخاف ولا تهرب مهما أحدث من انزالات. ولد فقيرا. مات أبواه وهو طفل صغير وربته عجوز من أهله كانت تعمل في بيوت الناس خادمة ثم ارتاحت حين بلغ الحلم ونبت الوبر تحت ابطه وصار يعمل عند البقال والخضرجي فبالات الألبسة الأميركية نصفها جيد والنصف الآخر مماسح. يغربل الألبسة ويصنفها عدة أكوام. كوم معقول ويباع للفقراء والفلاحين على أنه جديد بعد الصاق كرتونة كتب عليها الحجم والسعر. وكوم لا بأس به يكويه ويعلقه في الشارع تحت يافطة مزدانة بالشعشبون ووسخ العصافير كتب عليها: ألبسة أوروبية عالموضة. وكوم لا ينفع ولا يشفع يباع للكراجات والمشاحم أو لمنجد في طرف السوق يفرمه ناعما كالبقدونس ويحشو به فرشات ولحف الفلاحين. وحين أقيمت مستوطنة كريات شيبع كان عيسى أول من بادر للعمل هناك.

قالت الجدة،

- إسمع يا ستي يا عيسى. انت وأحمد تحملوا مجيد ونخرج من نابلس بنص الليل قبل الهجوم.

رمش بعينيه. اراد ان يقول لها ان نابلس محاطة بالجيش من كل الجهات، وألا ممر لقط أو كلب. كما أن عيسى لا يؤتمن فهو أهبل وشبه أميّ ولا يفهم. عيسى جاهل، شبه أمي، وهو من صنف رخيص يسهل رشوه. فكيف سيحمله، وأين يخبئه، وكيف سيتفاعل مع الأحداث اذا انزلقوا ووقعوا في مطب؟

قال عيسى وكأنه يلقي بنكتة طريفة،

- بحمله على كتفي زي الغاز.

أصر أحمد،

- لأ أنا وانت. انا من راسه وانت من رجليه.

وأخذا يتفاوضان حول اسهل الطرق وانجعها، فجسمه طويل وكتفاه عريضان وذراعاه وساقاه أطول بكثير مما يجب. إن حملاه بالطول تتدلى الساقان، وإن حملاه بالعرض تتدلى الذراعان، فما العمل؟ اقترحت الجدة ان يجلساه على كرسي يربطاه به فيحملا الكرسي من الجانبين وينزلا به الادراج درجة درجة. وبعد الأدراج؟ قال عيسى انه سيسرق سيارة الغاز ويمدد مجيد بين البراميل ويغطيه بالبالات. قال أحمد ان اليهود سيكتشفوه فهو ليس إبرة في كومة قش. لكن عيسى أوضح لهما انه سيقود السيارة في الطريق المؤدية الى جبل الطور ومن هناك الى القرية في منطقة "ج"حيث لا رقابة ولا تفتيش. ابتسمت الجدة باستحسان وقالت

- مشجعة: عفارم عليك، وتعرف مناطق الف وجيم؟

قال مفاخرا،

- هذا من الغاز. كله من الغاز. قالوا ممنوع نوزع غاز الا بمناطق الف وبا.

سأل أحمد بشك وقلق،

- ومناطق جيم؟

لوح عيسى باستهانة،

- بدها شطارة؟
- وعارف الطريق لعين المرجان؟
- بدها شطارة؟
- يعني عارفها؟
- يا سيدي توكل على الله. انت توكل. يا الله نجرب.

وبدأا يجربان على الجدة. جلست على الكرسي واسترخت فربطا يديها ورجليها وبدأا يجريان التجارب على افضل الطرق وأنجعها، عمودي ام أفقي ام بالميل. وفيما هما يحملانها ويتصايحان لمحت عينيه. كان يحدق، وكان في عينيه حزن وألم. وبدا من تلك اللمحة انه يحس وأنه يفهم. فصاحت بهما "استنوا شوي ، فكوا، فكوا!" لكنهما كانا في اوج انفعالهما وحماسهما لإكمال التجربة والنزول بها بضع درجات. وظلت تصيح وهما يصيحان: ارفع، انزل، لفوق، لتحت، إسحب، ميّل، لتحت، لتحت، حتى وصلا أول مصطبة ووضعاها ليرتاحا ويأخذا بعض الأنفاس فصاحت وهي تختنق من الأنفعال: "فكوا، فكوا. فتح عينيه، فكوا، فكوا!" حملق عيسى ولم يفهم، لكن أحمد بدأ يفك للحظة واحدة ثم التفت وبدأ يقفز كل درجتين أو ثلاثة حتى وصل باب الغرفة. ونظر الى السرير فوجد أخاه كسابق عهده، مغلق العينين بلا حركة.

32

حين خرجوا كانت نابلس تغرق في الصمت، لكن القصبة في حركة. أشباح الشباب بالعتمة تنقل صناديق المؤونة وعتاد الحرب. كل ما كان في حوزتهم كان ضئيلا: أسلحة خفيفة بدائية، خبز وحبوب، وشاش وقطن ومطهر.

مروا بجامع كان مضاء والحركة فيه لا تهدأ. شباب ببدلات رياضية وستر من جينز أو البالات، أحداث صغار، كهول كبار، وبعض الفتيات.

قالت الجدة، وكانت تجلس بجانب عيسى، وسعاد بجانبها تسمع،

- إسمع يا ستي يا عيسى، إذا كنت مش عارف طريقك يمكن سعاد تعرف أكثر.

هز رأسه وهو يتطلع في المرآة،

- عارف، عارف.

كان بطيئا وهي تريده ان يتحرك قبل بزوغ الفجر وانبثاق الضوء، فالضوء عدو للحركة في هذا الوقت. قالت بقلق،

- مالك بطيء؟ يا الله تحرك.

لم يجبها وظل يحدق في المرآة ويرى خيالات الشباب وهم ينقلون الصناديق الى الجامع وأسطح الدور والمخازن وأحمد يقف في الخلفية بين البراميل ويحجب الرؤية عن عينيه. ففتح النافذة ومد رأسه وصاح به،

- أقعد حيلك. انزل، انزل.

وكاد البكب ان يخرج بهم عن الإسفلت فصاحت الاثنتان: اوعى، أوع! فأدخل رأسه وابتسم ابتسامته البلهاء. وانعكست اضواء البلدية على وجهه ورأت سعاد وجها تعرفه ولا تعرفه. لا تعرف وجهه شخصيا، لكنه الوجه المألوف لشاب عربي نصف قروي، نصف مدني، نصف أمي، فقير الأصول، قليل الطموح، يعمل في الغاز والمشاحم ولا يقرأ الا اليافطات بالخط العريض فوق الدكاكين وأسماء الشوارع والحارات.

استدارت سعاد وسألت بقلق،

- هذا الطريق؟

هز برأسه ولم يجبها. كان يفكر ان هذه البنت السقعة بالبنطلون والشعر القصير وحذاء الرياضة والكنزة ليست تحفة، وليست فلتة، فهي لا أكثر من رعناء مخترقة أو أية صيغة من الصيغ ذات الأبعاد الملغومة لأنه يعرفها ويعرفهن فهن كثيرات في الجامعة وفي الكليات والمنتزهات يلبسن البنطلون والضيق ويحملن الكتب حتى نعرف انهن متعلمات وبنات ناس ومحترمات وهن لا أكثر من مخروقات، الواحدة منهن لا تنفع الا لكذا، ورغم ذلك، فعليها منافس كالخنافس. بنات منفوخات كالبالونات وفقوس الحمار اذا نكشته مجرد نكشة يفقع ويرش ويطرطش. لكن يا عيني على الجعصة! الله أكبر!

سألته سعاد،

- هذا الطريق؟!

قال بحدة،

- آ هذا الطريق. مش عارفتيه؟

قالت الجدة،

- أسكت وله وخليك ساكت، البنت بتسأل ومش أكثر.

هب بحدة،

- البنت بتسأل وتتفلسف. من ساعة ما خرجنا من نابلس وهي تسأل: هذا الطريق؟ هذا الطريق؟! اذا كانت خايفة ليش تيجي؟

امسكت الجدة بيد الفتاة وشدتها حتى لا ترد على كلماته فيشتبكان ويحتدان، فالوضع لا يحتمل تعب الأعصاب. نحن ما فينا يكفينا، فالمصاب هناك في الخلفية مع شحنة غاز، وأخوه الصغير ينشف في البرد وندى آذار، ونابلس في خوف وترقب، والجيش يحاصر جبليها ومداخلها ومخارجها وهذا الطريق الى مخرج ام هو منزلق الى جهنم او دبابة؟

وقاد بالفعل الى جهنم. دبابة مجنزرة من أوسخ نوع. اذ ما ان وصلوا منتصف الطلوع الى جبل الطور حتى وجدوا في مواجهتهم مجنزرة ضخمة كالمنطاد تسد الطريق الى القمة وتسد المسالك والرؤيا. ما هذا البلاء؟ أما مصيبة! صرخت الاثنتان وهما تخبئان عينيهما من وهج النور والكشافات.

صاح جندي،

- وقف. وقف. انزل سواق. انزل عندك.

همست الجدة،

- اذا سألوك قول انا امك وسعاد أختك وأحمد أخوك. اوعى تغلط.

- انزل، انزل. ارفع ايديك.

واقترب جنديان احدهما صغير والآخر كبير. وظهرا بمعداتها الحربية وطواقي الحديد كانهما من سكان الفضاء. وآخر في أعلى الدبابة يصوب بوز مدفع بحجم مدخنة ضخمة. ورابع ينظر من كوة صغيرة في بطن البرج. صوت المجنزرة مثل طائرة ضخمة بعدة محركات ونفاثات، وهدير الهواء من حولها مثل الحوام.

- افتح قزاز، انت خليك وانت انزل.

نزل رافعا ذراعيه الى أعلى ووقف مكشوفا تحت الأضواء. قال كلمات لم تُسمع وحاول اخراج هويته فانقض عليه احد الاثنين وضربه شلوتا بالبسطار على قفا ساقيه فانثنت ركبتاه ونزل على الأرض. رفع ذراعيه بتلقائية ليحمي رأسه فانهال عليه بكعب سلاحه حتى ارتمى على طرف الرصيف. صاحت الجدة ومدت يدها خلف الزجاج: حرام عليك! وبدأت تدفع بكتف سعاد حتى تنزل: خليني انزل وأحكي معه. لكن سعاد صدتها وقالت لها: لأ انا بنزل. وفتحت الباب بحركة سريعة فقفز اليها الجندي الصغير وبيده السلاح وصاح بها:

- وقف. وقف.

فوقفت في الحال ورفعت يديها وكان الباب نصف مفتوح والجدة تبسمل وتحوقل وتقول لها: الله معانا، اوعي تخافي. فهزت رأسها وأنزلت يديها وشدتهما الى صدرها وأخذت نفسا وهي تنظر مباشرة في وجهه. ورأت وجها مراهقا في عمر أحمد أو أكبر بعدة سنوات، والكشافات تحيل العتمة الى ضوء نهار فيبدو وجهة الناعم مثل وجه فتاة. نظرت اليه ونظر اليها وظل شاهرا سلاحه لا يتحرك. ارادت ان تقول له وتحكي معه، لكنه وبهذا السلاح ، وبهذا اللباس، وطاقية حديد ودبابة كان غريبا. ما نفع الكلام! لكنه ليس مخيفا. رغم السلاح ليس مخيفا، ورغم الكوابيس ورغم جهنم. ونظرت اليه ونظر اليها. وأحست بارتباكه وصغر سنه. قليل الخبرة. لم يجمد بعد. لم يتمسح. أما هي . . ومرت بذاكرتها كل المشاهد مذ كانت طفلة. وقوف الحواجز والطوابير. اقتحام الحرم واعتقال الشباب. واعتقال والدها منذ أكثر من ربع قرن، وكانت ما زالت طفلة. وعاشت بلا والد كالأيتام. ثم التنظيم، والمنشورات، والملصقات ومجلس الطلبة وغناء مجيد. آه يا مجيد. أهم الهموم ألا يجدوك. دار الآخر من خلف البكب. وحرك سلاحه باتجاه أحمد باشارة: انزل. ورأته ينزل بكل هدوء، والآخر يراقبه بتوجس.

- ارفع ايديك. لفوق. لفوق.

ودفعه ببوز سلاحه وأوقفه قريبا من سعاد وحركهما بعيدا عن الباب.

نظر الى الجدة ونظرت اليه وقالت بخوف:

- يا أدون ابني، ابني وبنتي.

لم يجبها. اقترب وفتح الباب بشكل كامل ونظر الى الداخل يتفحص، أرض البكب عند الأرجل، وخلف العجوز، المقود والدواسات. ثم استدار للخلفية فبدأت ترجف وطقم الأسنان يصدر تكتكة تسمعها فيزداد الطنين في اذنيها ويزداد صاحت: يا أدون، انا ختيارة. عجوز كبيرة وختيارة. صاح: شيكت! وعاد ينظر في الخلفية بين البراميل. اقتربت سعاد تسمح؟ فالتفت الكبير وصاح بعربية مفهومة: هس ولا كلمة. وحدج الصغير يزجره بنظرات آمرة تدعوه لأن يكون أكثر حزما. لكن الصغير نظر اليها وهي نظرت اليه وقالت بلطف: تسمح؟ فنظر الى الكبير ولم يقم بأية حركة. فاقترب الكبير ونظر اليها،

ورأت في وجهه معنى الشؤم. كان كبيرا. جثة ضخمة. وجه أسمر. شارب أسود. وثنيات في وجهه وتجاعيد. سحنة شرقية عربية او اوروبية؟ شرق أوروبا؟ لم تعرف بعد، ولن تعرف.

قال بحدة، وبالعربية،

– هات هوية. هات تصريخ.

استدارت عنه وحاولت العودة للسيارة لأحضار الهوية والتصريح. فصاح بها،

– وقف عندك.

أشارت للبكب وقالت بهدوء،

– هوية وتصريح.

أشار للجندي الآخر، فوقف الآخر عند باب البكب وسلاحه مصوب نحو الداخل. أشار الكبير الى الداخل وهو يعني ان بإمكانها احضار ما ترغب بإحضاره. فاقتربت من الصغير وهي تنظر اليه، لكنه لم يتطلع وظل يتجاهل نظرتها. مدت يدها وسحبت شنطتها من الداخل. صاح الكبير،

– وقف، وقف. ارمي على الأرض.

فحملت الشنطة من كعبها ودلقت ما فيها من اشياء: حافظة نقود، مفاتيح الدار، فرشاة اسنان، علكة وقلم وبعض الأوراق. أقترب من الكومة ونثرها بطرف الرشاش. وحين تأكد بأن الأغراض لا تخفي شيئا ملغوما قال صارخا: هوية، هات هوية، هات تصريخ.

ناولته الهوية فصاح: تصريخ، هات تصريخ. برمت شفتيها وكفيها وقالت همسا:

– ما فيه تصريح.

– ما فيه تصريخ؟! ارجع. ارجع. نابلس ممنوع.

مدت الجدة رأسها من النافذة وقالت بصوت مترجرج،

– الله يخليك، أنا مريضة.

ابتسم جانبا بغيظ وقرف واستدار لعيسى يتأمله ثم خبطه بطرف البسطار وصاح به،

– قوم يا الله قوم. ارجع. ارجع.

حاول القيام وهو يزحف، يرتفع قليلا ثم يهوي. فصاح الجندي: يا الله، يا الله. وركله ثانية في قفاه فقب عيسى عن الأرض وهرع نحو السيارة. وركبت سعاد وظل أحمد في مكانه ينتظر الأمر. فأشار اليه بطرف سلاحه،

– اركب. اركب.

وأثناء صعوده للخلفية ناوله شلوتا ضخما كتحية ختام.

33

فجأة انطلقت الرشاشات فاستلقى الجنديان على الأرض وبدأت المجنزرة تضرب وتستدير لكل الجهات. شرقا، غربا، ونحو الأشجار وصخور الجبل والمرتفعات والطريق المنحدرة الى نابلس فصاح الكبير: الغاز! الغاز! لكن صرخته ضاعت في الوطيس وقنابل يدوية ورشاشات ومدفع يطلق قذائف تحدث فجوات عميقة في بطن الجبل وأديم الأرض. فارتمى أحمد بين

البراميل قريبا من أخيه تحت البالة فهمس الآخر: "ما تخاف، ما تخاف ، قوي قلبك." وجاءت الهمسة في أذنه، منتصف وغطت على كل الأصوات والقنابل والرشاشات وصياح الشباب في أعلى الجبل يكيلون السباب والشتائم ويطلقون صرخات الرعب. رفع رأسه وشد بيديه على البالة وبذقنه اخترق الأسمال يبحث عن وجه وصوتأخيه. أهو حقيقي؟ أهذا صوته؟ أم هو الرعب وخيال الموت يهيء له شتى الخيالات؟ ناداه بدهشة وقد نسي الذعر: "مجيد، مجيد، انت صاحي؟!" وارتطم بوجه أخيه فأخذ يقبله ويختبيء فيه ويخبئه. كان وجهه باردا يسمط كالثلج ووجه أخيه دافئا تحت الأسمال ودموع أحمد تصطك كجهاز رجّاج. صاح بنحيب: " انت صاحي؟" قال الآخر: "ساعات وساعات." وانطفأ التيار وتوقف. كانت موجات الصحو لديه تأتي فجأةثم تنفك وتتقطع مثل التيار في أسلاك تشكو الصدأ والإرتخاء. تحتك الأسلاك فيشتعل النور، تعود وتنفك فينقطع النور. وفي تلك اللحظة المجيدة، لحظة الموت ولقاء الرب همس بحسرة: "ساعات وساعات." لكن الكلمة وفهم المعنى وبات يعلم أن أخاه رغم خرسه، ورغم الضربة، ورغم الآفات والمدافع وصراخ الجنود ما زال يصحو من . . ساعات وساعات. إذن فالشلل ليس حقيقة، وارتجاج المخ ليس حقيقة، والموت السريري المزعوم تشخيص بدائي قال الطبيب: "موت سريري واضح." قالت سته: "بلا حكي فاضي. أنا الاستخارة قالت لي نايم وصاحي." قالت سعاد بتفاؤل: "يا ريت يا حجة يكون صاحي. يا ريت، يا ريت !"

وعاد يهزه: "انت صاحي؟" لكنه لم يتحرك فأخذ ينشج ونسي الأصوات من حوله والرشاشات وصراخ الجنود وقنابل يدوية ومدافع. وأحس بيد تمتد اليه وتشد به وتسحبه بعيدا عن أخيه. حاول التشبث بمكانه فمالت براميل وتدحرجت فوق رأس أخيه فتلقاها بحافة كتفه والتفت للخلف فرأى الجندي بالطاقية، طاقية حديد، يشده للخلف ويسحبه بعنف عن البالة. اراد أن يقاومه ويستغل الفرصة ويدحل برميلا على رأسه، لكن خوفه على أخيه واكتشاف مخبأه ربّط يديه وجعله ينصاع ويتدحرج. ألقاه عن الحافة فهبط على الأرض عند رجليه. رفعه بيد واحدة كشوال طحين واقترب به من الجندي الصغير وكان ذاك ملقى على الأرض. ضربه بطرف البسطار وصاح به كي يتحرك. التفت الصغير وكان يبكي، وكانت الدموع في عينيه وعلى وجهه وحتى ذقنه. ورآه أحمد على الأرض مكورا مثل كلب جريح ووجهه الناعم مخفوق مثل وجه فتاة. كانت لمحة، لمحة واحدة كالتصوير، لقطة سريعة، صورة مكبرة بالأنوار، وبلا ألوان، فقط الأنوار، وبرق ورعود وشظايا وريح الخماسين. القاه فوقه فالتحما وأحس بجسده يتشنج مثل الرجّاج. أية مأساة، بل مهزلة! قبل لحظات كان فوق أخيه وها هو الآن فوق هذا. وأراد ان يدق بخناقه ويفرغ ما في صدره من أحقاد، لكن الآخر كان يهز ويخفق مثل البنات. وأحس بقلبه يتشتت ودموعه تسيل باردة مثل السكين. فغمر وجهه في ظهر ذاك وشد عليه فاستكان الآخر واستسلم بانتظار الموت أو الرحمة. ووجد الإثنان نفسيهما في وضع غريب، الواحد منهما يشد بالآخر بشكل محموم متشنج ويبكيان بلا تحفظ، مثل البناتورفعه الكبير ورفع عيسى. دفعهما أمامه فباتا درعين بشريين للجنديين. فخفتت أصوات الرشاشات وظل المدفع يضرب في الصخر وبطن الجبل وشجر الزيتون حيث الأصوات المنطلقة والرشاشات والطريق المنحدرة الى نابلس. وخلال لحظات كانا مقيدين على واجهة المجنزرة في وضع صليب، والمجنزرة تسير بهما في الطريق المريب بين الزيتون وتلاحق أشكالا في العتمة تقفز في الليل كما الأشباح. وغاب الجنود والدبابة وعيسى وأحمد، وظلت سعاد في حضن الأم. كانت تقول: يمه، يمه. مع كل ضربة وقذيفة تصرخ: يمه! وتخبيء وجهها في صدر الأم، وتلك تبسمل وتذكر الله وملائكته وتقول لها: قولي آمين.

تركهما الجنود على سفح الجبل فتسللا للبلدة القديمة وتوجها إلى مشغل أم سعاد. فوجئا بوجود لورا الوشمي وبصحبتها شاب أجنبي ومصور تلفزيون وآلة تصوير. كان منظر الشابين مثيرا للرعب. إذ بعد استعمالهما كدرعين بشريين تركهما الجنود في حالة يرثى لها بعد أن ملأوهما بالكدمات.

هرعت إليهما أم سعاد وصفقت خديها وهي تراهما في تلك الحال وتوقعت الأسوأ لبقية الركب وابنتها سعاد. فأسرع أحمد يطمئنها ويقول بثقة، " تركناهم بخير تحت الزيتون." وأوجز المشهد باختصار شديد لكن عيسى كان يقاطعه ويصف الأهوال والقنابل والرشاشات والمجنزرة الضخمة التي وصفها وه و يشير بامتداد ذراعيه: أكبر من هالأوضة بعشر مرات.

أمسكت لورا بذراع أحمد وشدته بعيدا عن المجموعة وقالت همسا،

- كيف حال مجيد؟

أسبل عينيه وهو يفكر: لورا الوشمي؟ كان ناقصنا؟!

وضعت يدها حول فمها وقالت همسا،

- مجيد صاحي والا مشلول؟

نظر إليها نظرة سريعة بلمح البصر كانت كافية ليرى الانفعال في عينيها. لكنها بنت الوشمي، الوشمي القتيل، الوشمي العميل، الوشمي من تسبب بضياعه وضياع أخيه. ضياعه هو كان الأبلغ بسبب قطة وميرا وزريبة حيوانات. ميرا ولورا، لورا الوشمي، لورا وأجانب وتلفزيون.

ورأته يحدق بالكاميرا ولا يتجاوب فقالت برجاء،

- إسمع، صدقني يا أحمد، أنا قلبي نظيف.

وشدت على يده بيديها وكررت بصوت متهدج،

- أنا قلبي نظيف!

نظر إليها ورأى دموعا شفافة ووجها أحمر لكنه نظيف من المكياج والتأنق، بل إن شكلها بكامله بدون تأنق: جاكيت صوفي أغبر وبنطلون جينز كالح ولفحة قديمة بوبر مفتول. ولفت نظره شعرها المشدود إلى الخلف بمحبس معدني يحتجز الشعر كأنشوطة فيبدو الجبين بلا هالات، بتقشف. فكيف إذن قالوا عنها تعمل مذيعة في التلفزيون؟!

أشار إلي الشابين وسأل بجفاف،

- من PBC ؟

لم تنظر إلى الآخرين بل ظلت تمسك بيديه وتحدق في وجهه بإلحاح وكأنها تستعطفه كي يثق بها ويقول لها أخبار مجيد، لكنه أسدل عينيه والتزم الصمت. ابتعدت عنه واستدارت للنافذة ومسحت عينيها وعادت للمجموعة وهي تمد يدها بكرت صغير وتقول لأم سعاد بصوت خافت،

- هذا كرتي فيه عنواني والتلفونات. سلمي على سعاد. وإذا احتجتم شيء، أي شيء، أنا بالخدمة.

وأشارت بيدها نحو الأجانب وكأنها تقول: من خلالهم أو معهم أو بواسطتهم أو أي شيء من هذا القبيل.

فهزت أم سعاد رأسها وقالت"شكرا" وانتهى الأمر.

وحين سمعت خطواتهم تتلاشى في أسفل الدرج هرعت إلى الشابين وبدأت تسأل عن وضع البكب وسعاد وما حل بهم. الوضع خطير. حاصروا رام الله والبيرة، الهجوم قريب، والشباب في الحي يتحصنون في الأحواش والمساجد. فماذا سيفعلان وقد أعيدا إلى نابلس؟ والسيارة؟ ومجيد وسعاد؟ طبعا مستحيل الرجوع للسيارة فالبلد

بالخنادق والدبابات ، وهناك حواجز ومتاريس. أين يبيتان؟ وهكذا وجدا نفسيهما وقد انضما لجموع الشباب خلف المتاريس في حوش عتيق في نابلس القديمة تحت القناطر والأقواس.

لأول مرة يرى الشرطة وقوات الأمن في وحدة حال مع الأهلين وشباب حماس وكافة الفصائل والتنظيمات من كل خلفية وتوجه. بالنسبة له، وللكثيرين من أمثاله وأمثال أبيه، كانت السلطة هي حكومة، شبه حكومة، حكومة جاءتهم بالممجوج. إذ بعد الثورة في بيروت والنضال العظيم وأفكار النور والحرية وكوبا وموسكو وأشعار التحرر والتحرير جاءوا لهم بنظام حكم لا يختلف من حيث الشكل والمضمون عن الأنظمة العربية. فوضى وفساد وضرائب وأجهزة قمع واستزلام. إذ أين العمل؟ أين الإنتاج؟ أين الوزارات ونواب الشعب؟ وكم سمع أبوه يجهر علنا بما يعجز قلمه عن رصده. وكان النتاج صورة قبيحة، صورة مهزوزة بلا "فوكَس"، أو بالعربي، من غير هدف وبلا تركيز. إذ ما التحرير؟ أرض تبلع؟ ماء يسحب؟ سياج ومعابر واستيطان، وقوات أمن تمنعنا من قول الحق والتذمر واكتفوا بالقول "هذه أوسلو وطريق السلام!" وها هو السلام وأوسلو والسلطة وقوات الأمن في الشارع وعلى المحك، تحت المجهر. قالوا له: "أنت معهم." وألبسوه رداء أبيض وعلموه كيف يضمد ويشد الأربطة حول الكسور ويدق الإبر. أما عيسى فأرسلوه لفريق الطبخ والطباخات وتوزيع الأكل على المجموعات. لكنه بعد يومين رآه مع فريق زرع الألغام قرب الجامع. كان يحمل ربطة أسلاك وجهاز موبايل وترانزستور. قال له وهو يضحك: " هذي آخرتها، صرت مهندس!" فصاح به أحد الشباب: "وله يا عيسى هات الأسلاك." فغمز بعينه وقال بغبطة: " محسوبك مهم، بكره تشوفني لما يفوتوا." وكان يقصد بدخول اليهود . . إذا جرءوا. إذ من يجروء على غزو البلد والفصائل وقوات الأمن والشرطة وقد أضحوا جميعا في وحدة لأول مرة منذ أوسلو وقيام الحكم؟ من يتجرأ؟ قوات الأمن، قوات حماس، فتح والجهاد والشعبية والخ الخ . . حملوا الأعلام، رفعوا الشعارات، هزوا الأسلحة الرشاشة فوق الرؤوس المذعورة للخارجين من الجامع والمجتمعين في البلدية وباب الساحة وقالوا كلمات أكبر منهم ووعدوا بالنصر والحرية من خلال الخطب وعدد الأعلام والفصائل وإطلاق الرصاص على الفاضي والأنتينات والمآذن. من يتجرأ؟

زرعوا الألغام في المداخل. قسموا القوات إلى مجموعات، وزعوا الأدوار، أقاموا مستشفيات ميدانية في المساجد، رصوا المتاريس، حرسوا الأسطح، نصبوا المناظير على المآذن وغنوا بالليل أناشيد النصر.

أحس أحمد أنه منهم، من هذا الشعب، من هذا النبض المتسارع وأغاني الفداء والمعاني تنساب إليه فترفع روحه فوق عيبال فيغدو كالطائر بجناحين ويرى الدنيا مثل الشاشة ومعارك نبيلة واستشهاد. ونسى أمه، ونسي أباه وتذكر ما لاقاه حين اعتقلوه بسبب قطة وحين شبحوه على دبابة وجعلوا منه شبه وسادة ودرعا بشريا يحميهم وخرقة إنسان. في ذاك الوقت، في البداية، بكى وخاف مثل الأطفال وتمنى الاختباء في بيت الدرج أو حاوية خلف عمارة — كما كان يفعل أيام زمان. ثم مع الوقت، ومع التكرار، ومع سماع كلمات الحقد من الجانبين بات حقودا. امتلأ بغضب متفجر يهز كيانه ويجعله يحس بأعصابه كتلة أوتار مشدودة إذا ما نقرت ينفجر اللحن بنغم صاخب، معزوفة موت. وتذكر أخاه شبه الميت. وتذكر إحساسه عند الركل، تحت الصفعات، والقنابل ، والرشاشات، وهو الأعزل. لكنه الآن ليس بأعزل. ورغم أنه غير مسلح إلا أن الشباب من كل الاتجاهات والفصائل، وقوات الأمن، والمداخل، وزرع الألغام، والطباخين، والمآذن والمناظير وسهر الحراس، كل هذا وذاك جعله يحس أنه محروس، ليس بأعزل. وهذا هو النصر. هو في الجهاد، هو في الإيمان والموت النبيل والاستشهاد.

وانتحى جانبا عند المحراب في مستشفى ميداني داخل مسجد، وقرأ الفاتحة ثلاث مرات، ومسح وجهه ثلاث مرات، وصلى لله أن ينصرنا لأنّا مع الحق ضد الباطل.

35

وجدتهم لورا كما وصفا تحت الزيتون. لم تر مجيد لأنه مخبوء داخل كهف. وحين بكت وهزت يدها في وجه سعاد وقالت بمرارة وحرقة قلب: "أنا قلبي نظيف،" أدخلتها تلك لعمق الكهف فرأت وجهه. وجهه ذكرها بماضيها قبل أشهر، أو قبل سنة. كانت ما زالت دلوعة، بنت الوشمي، بنت الوجهاء والولائم وحفلات الأنس والكازيبو. كان أبوها مثل ستار يختبئ العالم من خلفه فترى الأشياء ضبابية، بدون زوايا، وبلا تحديد. وحين تلاشى وتلاشى الستار وانزاح الصخب وانقطع سيل الولائم وجو الحفلات باتت نكرة، فاستفاقت. ما عاد أحد يسألها أين أنت، فباتت أصلب. أمها هربت، جدتها لبست الأسود، والخدم غابوا في إجازة، إجازة طويلة، ثم تلاشوا فردا فردا. وكذا الأصحاب والأقارب أيضا هربوا، فردا فردا. خافوا من التهمة والشبهة. ما عاد الوشمي وسيلتهم للترقي والوصول السريع إلى منصب أو الى صفقات، بل أصبح ماضيه وسمعته وأمه وابنته وأملاكه في عداد الغائب والمفقود. غاب عن الجو والمصالح فغاب عن الذكر والترحم واهتمام الناس. وما بقي لأمه وابنته إلا الخيبة والحزن البليغ وخوف من شبح يهددهم بشكل شحاذ أو شرطي أو ساقي الورد. فأقاموا الحديد على المدخل ووضعوا القضبان على النوافذ وطردوا الحراس وساقي الورد وباتت حديقتهم خرابة والقصر بيتا للأشباح. وقضت الاثنتان وقتا صعبا وهما تحاولان التأقلم مع ذاك الوضع. فعادت الجدة لرسم الصور بدهان الزيت وقراءة الكتب الفرنسية ورامبو وبودلير. وبدأت تدعو، وبحذر شديد، بعض الزوار من الأجانب والصحفيين لشرب الشاي والنسكافيه. وبذا دخلت الصحافة الى ذاك البيت، وأضحت حفيدتها صحفية.

36

قالت الحجة بتودد،

- رسومك حلوة، ما شاء الله، كأنها مطبوعة بالكربون.

لم تجبها المدام أم الوشمي وقالت "هم هم" لتسكتها، لكن الحجة لم تسكت. إذ ان جفاف ست البيت يهدد بالطرد من ذاك القصر والجو المريح لابن ابنتها وخدمات لورا المسعورة لإرضاء سعاد والأكل والشرب بدون تقشف والنوم في سرير بشراشف ووسائد ريش. كما أن الطريق إلى نابلس وعين المرجان باتت مقطوعة نهائيا. فكيف ستعود؟ وأين ستقيم؟ وكيف تترك ابن ابنتها في ذاك الحال؟ كما أن البنت الجميلة تحبه بجنون وتلاطف سعاد وتلاطفها. لكن الست الكبيرة ذات منافس كالخنافس! وهي قد اعتادت ذاك النوع، نسوان الأكابر المحترمات ومن ذوات الأصل المتغرب يحكين انكليزي وفرنسي ولدغة بالراء. هي تعرفها، لا تعرفها، بل تعرف معدن هذا النوع. نوع مغرور متكبر، يفخر باقتناء أغلى الأشياء ويسخر من العربي والشرقي ويلبس برنيطة ويتلون حتى في الحداد! فان كانت تحد فلماذا تطيل أظافرها وتصبغ الشعر وتتزوق وطلاء المناكير دوما طازج. هل هذا حداد؟ هل هذا حزن على الموتى واحترام الفقيد؟

قالت الست الكبيرة، مدام الوشمي،

- بعد الظهر عندي زوار.

وأرادت أن تقول "يعني اختبئي، يعني اختفي، يعني تواري عن الأنظار لأن مرآك يسد النفس،" لكنها لم تتمكن لأن الصراحة بذاك الشكل غير مفيدة. فبالإضافة إلى أن الشاب ابن تنظيم وله أتباع ومجموعات والله أعلم، فمثل هذا الكلام لا يقال علنا بل خلف الظهر. ولهذا غافلت الحجة وهمست للبنت حفيدتها وقالت بغيظ،

- يعني كان لازم هالورطة؟!
- أي ورطة؟

وادعت البنت أنها لا تفهم ما الورطة. وكانت تفهم، تفهم جدا. تفهم أن وجود الشاب في حوزتهم فيه خطورة. فهو رغم براءته من دم أبيها، إلا انه – كما قيل لها – قام بأعمال رهيبة: فجر قنبلة على الحاجز وهرب أسلحة وذخيرة وزرع الألغام. فاسمه الآن على قائمة المحكومين المطلوبين، في أعلاها. لكنها لا تعبأ بالحكومة والمحكومين. هي فوق الحكومة والسلطة، فوق الاحتلال والحواجز وحصار الناس، فهي كندية – أميركية وتعمل مراسلة للتلفزيون. أي أنها محاطة بحماية لا يملكها حتى عرفات، ولا حتى شارون. الأول يخاف من أميركا ومن إسرائيل، والثاني يخاف من السلام والمسلمين، وهي محمية من الجانبين لأن أبوها قدم خدمات بلا تحديد للمعنيين، وله أفضال على الجانبين وله عزوة. فرغم وفاته، إلا انه بفضل القنوات وامتداده، ما زال يمثل ما يخفون عن عيون الناس. فهي إذن فوق الحكام والحكومة والمحكومين، فوق الأنظمة والقوميات لأنها كندية – أميركية وجدتها تركية من ثالث جد ولها جذور قد تصل الصرب. وفوق هذا وذاك فهي تعمل لل PBC. قالت جدتها باستغراب،

- أنا بستغرب. انقطعوا الشباب؟ هذا تروورست!

ابتسمت لورا لأن جدتها تصر على خلط العربية بالإنكليزي ولأن كلمة إرهابي بالنسبة لها مجرد تعبير عن فعل خطير لا يعجبهم. لا يعجب من؟ لا يعجب شارون؟ ومن هو شارون؟ من هو باراك؟ من هو شامير؟ من هم هؤلاء؟ أليسوا مثله؟ بل أسوأ منه. كما انه أجمل منهم، قطعا أجمل، أطول وأجمل وصوته جميل ويعزف جيتار. كم قتل هو؟ خمسة؟ عشرة؟ أما هؤلاء فقتلوا الآلاف. على كل حال، هو لم يقتل، هرب أسلحة وذخيرة وفجر سيارة للعسكر. فهو إذن ليس بقاتل، بل مغامر، مثل همنجواي ورواياته وسير ووليم سكوت. كما ان المسألة نسبية. بالنسبة للناس، فهو مناضل. وللناس هناك، فهو تروورست، يعني مخرب. وهي وقد اجتازت التصنيفات والحواجز وذاقت مرارة أن تكون بنت الوشمي باتت تعرف أن لغة الأخبار، أية أخبار، هي لغة محطات ومواقف. خبر نسبي!

قالت جدتها،

- حتى لو كان بريء ومظلوم، هو فاقد وعيه ومش صاحي!

قالت بعناد،

- لأ صاحي كتير.

وخرجت من غرفة جدتها وذهبت إليه في العلية.

أغلقت مدام التلفزيون بصرخة قوية:

- هذا استشهاد؟ هذا جريمة!

ونظرت إلى الحجة بغضب وقرف فأحست تلك أنها لا شيء، مجرد لاجئة بلا قيمة، ضيفة ثقيلة، نكرة وجاهلة وفقيرة. واستفاق فيها حس مغروس في الأعماق أنها من طينة ملوثة تحت الأرجل، من أوطى نوع. وكذلك حس الشماتة والاستفزاز لأن الوشمي هو أيضا حقير من أصل نور. فالتفتت إلى الفتاتين وقالت بخبث:

- مالنا ومالهم، خلينا نغير الموضوع. افتحي يا سعاد المستقبل خلينا نشوف السوبر ستار. يا سلام يا سلام عالسوبر ستار. لو كان بزماني كنت طلعت السوبر ستار على طول الخط.

استدارت المدام بوجهها لجهة أخرى وهمست بقرف:

- السوبر ستار!

واصلت الحجة مرنمة بصوت أجش وهي تتأمل النجف المدلى من أعلى السقف،

- يا سلام يا سلام على أيامنا، أيام العز. كان كريستال حيفا ويافا زي الألماس. وليالي الأنس والتجلي بالبيارات زي الجنة! في البيارات يا ما عملنا ويا ما سهرنا لطلوع الصبح. وأنا كنت صغيرة وسنيورة زي اللعبة، وصوتي يلعلع ولا أم كلثوم. لما أغني وأقول يا ليل كانت نجوم السما تهتز وطربوش الباشا والبكوات ويقولوا آه لحد ما يدوخوا. ومرة واحد قعد لي على الأرض وقال لي يا ست، انت يا ثومة، فشرت أسمهان وأم كلثوم. ولما سمعني عبد الوهاب قعد يترجى ويستعطف إني أمثل معه في السينما زي ليلى مراد وأم كلثوم.

ضحكت الفتاتان وتمتمت المدام بكلام غامض فصاحت لورا،

- عبد الوهاب؟! هو بذاته؟
- بذاته وصفاته وكبر قدره.

نوّست المدام عينيها وأخذت تكبس الريموت كنترول فتنقلب المحطات وتتشقلب وهي تدمدم بكلام غريب غير مسموع. حدجتها حفيدتها وقالت بمرح مصطنع كي لا تنتهي الأمسية بالنكد كأمسية الأمس،

- آ يا حجة، عبد الوهاب؟ هو بذاته؟ كان ييجي هون؟ هون في بلدنا؟

علقت سعاد بلهجة مريرة،

- كانت بلدك.

قالت الحجة بحماسة،

- بلدي وبلدك غصب عنهم وغصب عنك واللي مش عاجبه يشرب البحر احنا صامدين زي الجبل ما تهزه الريح.

صاحت سعاد،

- يعيش أبو عمار!

فهزت الحجة رأسها وقالت بود،

- يعيش أبو عمار. آ والله يعيش.

سألتها سعاد،

- أعطاك كتير؟

ابتسمت الحجة ولم تفصح. فسألتها لورا بفضول شديد،

- انت شفتيه؟ ايمتى يا حجة؟

هزت الحجة رأسها وقالت كذبا،

- شفته وشافني.
- ايمتى شفتيه؟

هشت الحجة يدها وقالت بغموض،

- شفته وخلص. مالك ومالنا.
- وهو شافك؟
- طبعا شافني وقال لي يا حجة يسلم هالصوت.
- وليش قال لك هيك؟
- لأني غنيت.
- انت غنيت لأبو عمار؟
- طبعا غنيت لأبو عمار. أذا ما غنيت لأبو عمار لمين أغني؟

أطلقت المدام همرة ساخرة وقالت،

- هه!

تجاهلتها حفيدتها وقالت بحماس،

- كيف غنيت؟ أيمتى ، قولي؟ بالله تقولي. قولي يا حجة. انت غنيت لأبو عمار؟
- طبعا غنيت، ولما سمعني قال لي يا سلام، يسلم هالصوت!

همهمت المدام بقرف ساخر،

- يسلم هالصوت!

تبادلت الشابتان نظرات ضاحكة ثم انطلقتا تقرقران بصوت مكتوم، أما المدام فابتسمت بأنفة وقرف. لكن الحجة وقد انسحبت لأيام العز هربا من حاضرلا يعد بالمسرات، فقد انساقت تحكي قصصا لا تعرف إن كانت فعلا قد وقعت أم كانت تتمنى لو وقعت. لكن سيان، فهذا الزمن هو زمن النحس، يكفي الإنسان أن يتذكر أو يتخيل ما قد ينسيه ألم الواقع. فعادت تسرح،

- يا ريتنا بقينا بأراضينا ولا كنا هيك تبهدلنا وشفنا الويلات.

هزت الاثنتان رأسيهما لكنهما لم تناقشاها، فما نفع النقاش؟ ما نفع الحسرة على الميئوس؟ لكن لورا وقد انسجمت بقصص الحجة والخوف من الكآبة وجدتها عادت تستزيد وتتساءل،

- آ يا حجة. وكيف غنيت لعبد الوهاب؟

سرحت الحجة بعينيها وتنهدت وقالت "يا سلام" وعادت للذكرى والأحلام،

- كانت بيارة زي الحلم والكهارب زي الألماس وبرك مرمر وزهر الليمون عابق في الجو والسما مخمل، مخمل مرصع بالألماس. ولما غنيت وقلت "يا ليل" وقفت نجوم السما في الجو وطارت طرابيش ومسابح وعصي الأبنوس. وقالوا "الله" لحد ما داخوا. ولما سمعني عبد الوهاب قال لي "برافو، انت ولا أجدع أم كلثوم. لازم تيجي تمثلي معنا ادوار الحب زي ليلى مراد وأم كلثوم." بس أنا رفضت.

لم تعلق سعاد، بل ابتسمت، وكذلك ابتسمت مدام الوشمي، لكن لورا صاحت بعتاب،

- انت رفضت؟ ليش رفضت؟ حدا يرفض يمثل ويغني مع عبد الوهاب؟

هزت الحجة رأسها بحزن وندم،

- آ والله رفضت.
- انت رفضت؟!
- آ والله رفضت.

اندفعت المدام بسؤال قفز إليها ففاجأ الجميع وفاجأها، لكن السؤالجاء خبيثا ومبطنا بالسخرية والاستهزاء،

- وليش رفضت؟

لم تنتبه الحجة لذاك السؤال ومن السائل وما هو مقصود بذاك السؤال فقالت بأسى،

- أنا مجنونة، يا ريت قبلت.

عادت المدام تسألها وتحقق معها باستهزاء،

- وليش ما قبلت؟
- لأني مجنونة وحمارة.
- وليش حمارة؟
- لأني كنت واقعة بحب كبير.

لم يجبها أحد، وأرخت الفتاتان جفنيهما من باب الذوق، أو ربما من باب الحزن والتعاطف. فهذه امرأة في الثمانينات، وربما في التسعينات، وما زالت تحن لماضيها، ماض مليء بالأحلام والخيالات والمسرة. فما كان كان ولن يرجع. كانت صبية وجميلة وكان لها صيت واسع وكانت أيامها في يافا أيام عز. واليوم لا يافا ولا صيت ولا عز ولا مستقبل. وهذا محزن، فعلا محزن. وساد الصمت بضع لحظات لكن الحجة استمرت وعادت تسرح،

- كان ابن البيك، وكنت صغيرة، حلوة وسنيورة و قهورة. ولما قال لي " انت عمري" فرحت وصدقت. كان ابن البيك. وكان شكله قمر وعيونه زرق وشعره أشقر. كان يجنن. رحت انجنيت وحبلت منه.

صاحت لورا،

- حبلت منه؟!

أردفت الحجة بسرعة واربطلك،

- بس عقد علي، كتبنا الكتاب وتجوزني.

سألتها المدام بلهجة تحقيق،

- مين؟ ابن البيك؟ مين، أي بيك؟

نفضت الحجة يدها بتملص،

- البيك وخلص.

عادت المدام تلح عليها،

- مين، أي بيك؟

لم تجبها الحجة ولزمت الصمت. فعادت المدام تلح عليها وتحقق معها بغضب مكتوم، إذ أي بيك أو ابن يكتب كتابه على هذه، هذه، هذه! وتأملتها بغضب وقرف وأحست أنها تطعن في الظهر. إذ ألا يكفي أنها تفتح بيتها لهؤلاء الناس وتدعهم يأكلون مما تأكل وينامون في القصر حيث تنام ويجلسون في غرفقا دخلها إلا الوجهاء والعظماء

وأصحاب القدر والقيمة ثم تأتي هذه، هذه المسخ الشرشوحة لتكذب عليها وتتبجح وتقول لها – بكل وقاحة – أنها زوجة البيك أو ابن البيك؟ فعادت تلح،

- مين، أي بيك؟ أنا اعرفهم واحد واحد، وما سمعت ولا واحد أو ابنه تجوز واحدة .. واحدة.. واحدة زيك. استفاقت الحجة من الأحلام وسألت بغضب،

- واحدة زيي؟ ليش أنا مالي؟

لم تجبها المدام واستدارت وأمسكت بالريموت كنترول وأخذت تعبث بالمحطات تقلبها وتشقلبها بغضب حاقد. فعادت الحجة تهمس دون أن ترفع صوتها أو تطلق العنان لغضبتها "ليش أنا مالي؟" إذ ان أي كلام قد تدلي به وهي غاضبة مستثارة قد يجيء عليها وعلى المصاب ابن ابنتها بمصاب جديد. إذ ألا يكفي أنها وابن ابنتها وهذه الفتاة المسكينة ضاعوا وتاهوا وما عاد لديهم من مأوى إلا هذا: بيت الوشمي؟! فماذا تقول للست المدام؟ لا لن تقول ولن تتفوه بأية كلمة. لكن سعاد فزت بغضب وقالت لها،

- قومي يا حجة.

38

في الأمسية التالية كان الوضع قد تغير. كانت سعاد قد شحنتها وقالت لها أن الوشمي وأم الوشمي من أصل نور وأنها لن تطردهم مهما فعلوا لأنها تخاف من التنظيم ورفاق مجيد. فقالت الحجة بتأفف: ومالنا إحنا ومال التنظيم؟ قالت سعاد: لأ مالنا كتير. إذا قالت طالع أو نازل قولي التنظيم تسكت على طول. فاهمة يا حجة؟ فاهمة، فاهمة. ووازنت الأمر طوال الليل وقالت فعلا، هو في التنظيم وأنا في التنظيم. واستقر الرأي على هذا.

قالت سعاد لتنكشها وتختبر الجو:

- عمرك حبيت يا حجة؟

نظرت إليها ولم تجب إذ لم تفهم ما هو مطلوب. فكما قالت لها في ليلة أمس أن عليها ألا تسكت للمدام وترد لها الصاع صاعين إذا فتحت فمها بكلمة وتهددها بكلمة تنظيم". وفهمت الحجة أن الكلام يتعلق بكلمة تنظيم وسياسة، فما دخل الحب؟! وعادت تحملق كي تفهم ما هو مطلوب. فغمزتها سعاد وقالت ببطء كي تفهمها:

- أقصد يا حجة قبل البيك مين حبيت؟

قالت بحيرة وتلعثم،

- حبيت كتير.

- يعني كم واحد يا حجة؟

قالت بحيرة وارتباك،

- والله ما بعرف، عمري ما عديت.

عادت تلح وتغمزها،

- يعني عشرة؟ يعني عشرين؟ يعني أكثر؟

رفعت يدها بشبه استسلام وقالت،

- أكثر، يمكن أكثر.

صاحت لورا بمرح صاخب،

- أكثر من عشرة ومن عشرين؟

قالت جدتها باستنكار،

- بتقول أكثر!

صاحت لورا بدهشة وحبور،

- صحيح يا حجة؟ ومين حبيت؟

قالت الحجة بتواطؤ وهي تلاحق غمزات سعاد،

- حبيت كتير. بقدرش أعد.

- وكانوا أوادم؟ يعني مهمين؟

قالت سعاد،

- طبعا مهمين، كانوا سفرا وكانوا وزرا وكل واحد طربوشه يهز الكون.

علقت المدام بلؤم وقرف،

- بقول ليش انهزت اسرائيل!

فانكمشت سعاد لأن التعليق أصابها في العمق، إذ طالما حقدت عليهم .. أهل الطرابيش وذوي اللفات والدشاديش. وكانت تقول بلا توقف "هم أصل الهم، هم أصل الشوم." وها هي المدام تذكرها أن هؤلاء هم من نكصوا لأن من كانوا في الموقع وفي الترسانات كانوا واقعين لشوشتهم بأمثال الحجة سنيورة أيام العز. فلو كان رجال الطرابيش بمواقعهم بلا سنيورات فهل كنا نصبح بلا مأوى؟ هل كنا نلجأ لبيت الشؤم؟

صاحت لورا بمرح وننزق،

- قولي يا حجة، بالله تقولي مين أحلى حب؟

قالت بحنان لأن الرجال في هذا العمر وفي الذاكرة مثل الأطفال،

- كلهم حلوين.

- لأ يا حجة، لأ مش ممكن، لازم يكون واحد أحلى.

قالت بجدية ودون ابتسام،

- كل واحد بوقته يكون أحلى.

هتفت لورا بدهشة وإعجاب؟

- كل واحد بوقته يكون أحلى؟ وبعدين شو بصير؟

قالت بصدق،

- بعدين يموت.

قالت سعاد بعدم تصديق،

- كلهم ماتوا؟

هزت الحجة رأسها وقالت بملل،

- لأ ما ماتوا، قصدي عن الحب.

- الحب يموت!

صاحت مدام بدون استئذان، فجأة، وبدون مقدمات وبحرارة،

- هذا مش حب.

قالت الحجة بصدق وثقة ودون أن تنتبه من قال هذا ومن قال ذاك،

- لأ طبعا حب.

صاحت مدام بحقد وغضب،

- هذا مش حب، هذا شهوة، يعني افتتان، يعني سخافة. هذا مش حب!

هزت الحجة رأسها وقالت بثقة،

- لأ طبعا حب.

صاحت المدام ثانية وكأنها أصيبت في صميم الكرامة والأخلاق،

- هذا مش حب، هذا شهوة.

وصمتت فجأة وعادت تمسك بالريموت كنترول تقلب المحطات وتشقلبها وهي تنفخ وتهمس بغضب: هذا مش حب. ثم انتبهت على العيون تراقبها فرمت الريموت وفتحت علبة السجائر وأشعلت واحدة وأخذت تنفخ. انتبهت لحالها فماذا فعلت؟ ولماذا الصراخ؟ كانت تدافع عن الزوجات، عنها هي، عن ست البيت. عن كل امرأة محترمة ذات إحساس متعفف عن كل رديء. فهذه المرأة الحيوانة عاشت في العهر والخطيئة. خطفت رجالا وأغرتهم فتركوا الزوجات وذهبوا إليها، كما ذهب هو. وتذكرت ليالي الوحدة. وتذكرت إحساس القهر. وتذكرت ما قال لها وما قالت له ثم انفلتت، ذهبت هنا وذهبت هناك ولكن في السر، بدون فضائح، وبلا أجراس. يعني حفاظا على العيلة واسم العيلة واسمها هي وحتى الأبناء. أما هذه، فلا بيت ولا اسم ولا أبناء لأنها منحطة بلا أخلاق.

قالت بهدوء وهي تحاول أن تبدو رصينة ومعقولة أمام الفتاتين،

- الست المحترمة الموزونة تعيش وتموت على حب واحد، على حب كبير.

هزت سعاد رأسها بدون تعليق، إذ إن الحب ليس لعبة نلعب بها وحين نمل نرميها، وهو ليس افتتانا آنيا يذبل ويموت بكل سهولة. فالحب الكبير كالقضية، كالسياسة، مثل فلسطين، ويدوم الدهر حتى نفنى ويفنى معنا. الحب إذن ليس لعبة، بل هو مبدأ، قسم والتزام. وتذكرته، جاء إليها، أطل برأسه من مكان بعيد. فهمست بأسى "لأ مش ممكن!" وأخذت تنبش في داخلها عما يصلح لقياس الصدق، فرأته يغيب، يغيب، يغيب لأنه في البعد بات بعيدا، ولأن القلب ما عاد يدق، بل يتخبط، فلا هو في الحب ولا ضده. هو في الذكرى، هو في المبدأ. هو حب كبير. كان ويبقى ويظل يكون، كالقضية، مثل فلسطين.

قالت لورا بعدم تصديق،

- معقول يا تيتا ما حبيت غير حب واحد؟

قالت بغضب،

- طبعا معقول.

ضحكت لورا،

- وليش زعلانه؟ انت زعلت؟

قالت بغيظ،

- لأ ما زعلتش.

ونفخت دخان السيجارة وغابت عنهن، دخلت أعماق سريرتها تبحث فيها عن سر الحب، عن سر الصدق، عن سر حقيقة كل الناس. ما معنى الحب؟ ما شكل الحب؟ كم هو وقته؟ وهل يبقى الحب – كما قالت – إلى أبد الدهر؟ وأحست بالغيظ يتملكها لأن الشرشوحة الخربوشة جاءت لتهز قناعتها، أو على الأقل، ما اقتنعت به عبر المنطق وأمام الناس. لكن في العمق، ها هي تعرف، أن ما قالته وظلت تقول لحفيدتها وأمام الناس ليس حقيقة. ربما ما كان كذبا وخداعا، بل ربما كان. أو ربما، وهو الأصح، كان تضحية من أجل الغير، حب الأبناء، واسم العيلة، والكرامة، واحتفاظ المرأة بماء الوجه. هذا هو الحب. وهو المقصود.

قالت سعاد تناقشها،

– لأ يا حجة. الحب الكبير يعيش على طول. ولا يمكن يموت إلا بموتنا.

هزت الحجة رأسها وقالت بصدق،

– لأ يا بنيتي، هذا مش حب، هذا تفكيرك عن الحب.

ضحكت لورا وحملقت المدام لكن سعاد لم تتزحزح بل أخذت تدافع عن موقفها وعن المبدأ، عن الالتزام، فقالت بغضب: انت بتعرف تماما يا حجة عن ايش بحكي.

هزت الحجة رأسها عدة هزات ولم تعلق. فقالت سعاد،

– الحب يا حجة مش لعبة، الحب التزام.

فقالت الحجة بتأمل،

– يعني تنظيم.

فصاحت لورا وهي تصفق وتضحك وتولول وتحدق في وجه سعاد وكأنما تتحداها. فهتفت مدام بحماسة وهي تنظر باتجاه سعاد،

– إذن أنا وانت متفقين!

فهمست سعاد بقلب مذعور "لأ مش ممكن!" إذ ما هذا؟ هي والمدام في نفس الصف؟ هي والمدام ضد الحجة؟ هي والمدام ذات الأصباغ والأظافر وريش الطاووس وكلمة فرنساوي وانكليزي ولدغة بالراء؟ هي والمدام أم الوشمي في هذا القصر، في هذا الوكر، في هذا الفخ ضد امرأة أكلت معها وشربت معها وكانت رفيقة رحلتها عبر الوديان والبراري والدبابات؟ هي وامرأة ذاقت معها مرارة الخوف وحضنتها حين خافت وقرأت لها سورة ياسين وآية الكرسي وغنت لها ولابن ابنتها بصوت أجش، لكن حنون، وحكت لها في رحلتها عن ماضيها وعن ابن البيك ويافا وحيفا وعبد الوهاب؟ لا لم تكذب، فعبد الوهاب كان حقيقة، وابن البيك كان حقيقة، وسهر الليالي والألماس وعصي الأبنوس والبيارات، كله مظبوط، كان حقيقي، لكن " ولا أجدع أم كلثوم!" ليس كذبا، بل هو أحلام. وهذا مسموح. أحرام أن نسبح بالأحلام؟ أما المدام أم الوشمي، فهي الأصباغ بكاملها، وهي التزييف بلا منازع. وهي الإنسان بلا هوية وبلا أعماق. وأحست بالمبدأ يتطاير، والقضية، وما تؤمن به، وهي تهتز. فأصابها غضب لا تدري أين تنفثه فقالت بغيظ: قومي يا حجة. أنا بدي أنام.

أصرت المدام على مغادرة المجموعة لمنزلها، فها هم الناس يتطايرون في الشارع مثل العصافير، والسيارات تتدافع فيختنق السير وتبدو الشوارع مسدودة كالبلاعات والشمس تغيب بين الأمطار وغيوم البرد والإذاعات كلها تهدر بما قال شارون. وشارون يقول أن المسئول عما يحدث هو أبو عمار. وكانت شاشات التلفزيون شرقا غربا وحتى نيويورك كلها تعرض آثار الهجوم والعملية وقتلى وجرحى على نقالات وحكومة شارون تصرخ وتعيد: هذا عرفات، هو أبو عمار.

قالت مدام أن الاجتياح لن يرحمهم، ودخول اليهود لرام الله يعني تفتيش، يعني اقتحامات، يعني مصائب. ونسف البيوت وارد جدا، ففي أي بيت وعمارة يختبىء الشباب ورجال الأمن ستحدث مجازر حقيقية ونار ودخان وكوارث: أنا لن أظل، أنا لن أبقى، يا أنا يا هو.

انفعلت لورا وقالت بغيظ: في هذا الوقت! وهو المسكين مصاب وضعيف؟! قالت جدتها بتحفز: بل أنت المصابة وضعيفة، قلبك ضعيف، عقلك ضعيف، ولا تعرفين أن أي حب في الدنيا يذبل ويموت بمرور الوقت. همست لورا كالمصعوقة: وماذا عن حب المحترمات؟! لكن تلك لم تجبها بل هرعت إلى النافذة لتتأكد أن الاجتياح لم يبدأ بعد. ورأت أرتال السيارات تنطلق بسرعة كالصواريخ، ورأت الجيران وفلول الناس كل يحمل كيسا بيده: أكياس الطحين والقرشلة وخبز وحليب وفواكه وبامبر أطفال. وجيبات الأمن تندفع هنا وتندفع هناك وزامور طويل للإسعاف يخترق الجو فيهز زجاج النوافذ وبخار البرد وقطرات المطر المتجمد على ورق الورد. فقالت بحزم : يا أنا يا هو.

وبعد أخذ ورد واستشارة سعاد اتفق الجميع على أن المكان الوحيد المناسب له هو عند الرئيس، فهناك جنود وحراسة ورجال تمريض ومطا في ء، عند أبو عمار.

فتح عينيه وأغمض عينيه وتمتم بقنوط: لأ أبو عمار! لكن أحدا لم يسمعه، إذ كان الجميع في دوامة والراديو يصيح والتلفزيون والسيارات وقوات الأمن والسماعات تهتف وتقول: اجتياح قريب. وشباب ببنادق ورشاشات حول الدوار والمنارة ومداخل الشوارع والعمارات ومقر الرئيس.

فتح عينيه وأغمض عينيه ورأى صورة، صورة للأقصى وأبو عمار. وعرف على الفور أن المكان هو ما يرفض، وأن المرفوض بات حقيقة، والأمر الواقع وأبو عمار.

بالنسبة له، كان أبو عمار مجرد صورة، صورة يراها في كل مكان فتثير لديه إحساسا غريبا لا يفهمه. فهو مع الرفض لأن الواقع هو فخ كبير. لكن الرفض هو أيضا فخ. وما بين هذا وذاك الفخ يدور المرفوض والرافض في دوامة ولا يلتقيان، وقد يلتقيان، لكن أيضا في دوامة. ويكتشف الواحد في الآخر ما ليس لديه فينقم على نفسه في الآخر ويضحي النضال صورة مهزوزة بلا "فوكس" تنعكس عليه فيتجمد. ويبدو الإنسان بلا حركة داخل صورة من غير إطار.

وهكذا وجد نفسه في غرفة مليئة بالصناديق والخزائن وسرير محاط بخرائط وصورة مكبرة لأبو عمار. وتحت الصورة، رأى جدته تتوضا ثم تصلي وتدعو لله أن ينصرنا ويعيد إلينا صحوتنا ويعيد مجيد إلى وعيه قبل بدء الهجوم. وقالت يا رب، بجاه السموات وملائكتك فك سراحه وأطلق جناحه واجعل أيامه نور وسرور. فسأل بدهشة:

- معقول يا ستي أنا صاحي؟

فالتفتت إليه وابتسمت وقالت بثقة:

- طبعا معقول. أنا الإستخارة قالت لي انك صاحي، نايم وصاحي. أقعد يا ستي لأحكي لك عن هذا المكان.

قال بذهول:

- عارف، عارف.

الجزء الثاني

ابتدأ الضرب. لكن قبل ذلك قطعوا الأسلاكوالتلفونات والأنتينات وكذا الجوال وشبكة الماء والكهرباء والتلفزيون ولم يبق يصلهم بالعالم إلا أصداءكلاب تنبح وسط سكون ينذر بالموت.

بدأ مع الفجر في يوم ماطر وعواصف وضباب كثيف يغطي العالم بدخانأبيض مثل الثلج فترى نفسك كالشبح يهيم في فضاء سحيق. حشود بمئات الدبابات تهدر في الليل عبر الضباب مع شق الفجر من عدةمحاور نحو الرئيس. فوقف الحراس فوق البنايات بانتظار البدء برد الهجوم. لكن على من؟ ضباب أبيض وهدير رعود وسط الآلات، والدبابات، والطيارات، وسكون مريب ينذر بالموت.

التفت إليه قائدهم وقال له لا تتحرك، أنت هنا مع ثاني صف على باب الرئيس. وهذا يعني أن عليه مع زملائه أن يرد الهجوم عن باب الرئيس، أن يحمي الرئيس، وان اقتضىالأمر، أن يهب حياته وشبابه من أجل الدفاع عن رجل غريب لا يعرفه، ولا يفهمه، ولا يؤمن به. فلماذا الموت من أجل رجل لا يعرف عنه إلا صورة؟ صورة لنظام لم يدرأ عنه الأخطار، بل جاء بها. فلولا النظام، لولا السلطة، لولا اتفاق متعثر على أرض تموج بلا محور هل كان يغيب عن الدنيا ويفقد وعيه؟ هل كان سقوطه في الحفرة وارتجاج المخ في البرية وسط الذباب وذئاب الليل والأباتشي تقصف وتصيب ما هو أبعد قدر مكتوب بلا مهرب؟

قال القائد: اضرب، اضرب. وبدأ يضرب من خلف جدار متحرك على هدف بعيد يصعب وصفه، فاقترب الصوت، أكثر، أكثر، حتى رآه لأول مرة فوقف زميله ليؤدي السلاملكن الرئيس أشار بيده فعاد مكانه، ثم تحرك. كانت لمحة ثم ساد سكون. وبغمضة عين اختلف الوضع. رآه أقصر مما تصوره، وعيناه أرق، وإشاراته، ونظرة قلقه تشبه ما يطحن أعماقه، خوف وغضب، حزن وغضب، يأس وغضب لأن العالم قد يتّمنا وبتنا بلا أهل ولا صاحب. غاب العالم، صمت الحكام، صوت اختنق العرب، وانتصر شارون. لا ليس بعد، لن يصل إليه، لن يقضي عليه. صورة مكبرة بالألوان كلنا فيها. كلنا في الصورة المهزوزة حتى تثبت. يد بيد. نحن على العهد. رجل واحد. كجدار صلب. اضرب يا خال، اضرب، اضرب، فانهار رفيق. أخذ سلاحه واشتد الضرب. سقط الآخر، وأصيب ثلاثة على المدخل، وانهار السور من جهة الشرق ثم من الغرب وبتنا بلا حاجز يحمينا من فوهاتمدافعهم والدبابات، والجرافات تلقي بمئات السيارات تحت الدواليب وتسحقها مثلالصراصير، وكذا الإسمنت والحجارة ومقر الرئيس. اخترقوا بناية الاستخبارات وأضحواكالموت المتربص، بضعة أمتار، فنزل الرئيس إلى ثاني

ومر به ولمس كتفه لمسة صغيرة كانت كافية لتعيد الدفء والحنيّة ورأى الهدف أوضح من قبل. التفت إليه ليتبادل نظرة لكن جدارا تهاوى فارتمى خلفه وسط الركام ودخان الحريق.

في تلك الأثناء كانت البوابة الداخلية للمقر تشهد معركة شرسة بين حرس الرئيس وقوات أمن الرئاسة والمحتلين المدعومين بالدبابات والمجنزرات ، إلا أن المتاريس المصفحة التي وضعها حرس الرئيس في مقدمة البوابة لم تصمد، حيث استشهد خلال الدقائق الأولى من الاشتباك أحد الضباط وأصيب أكثر من 18 جنديا وضابطا من حرس الرئيس.

بالقصف المتواصل استطاع جنود الاحتلال من إحداث ثغرات وتمكنوا من النفاذ إلى مبنى المخابرات، وبذلك أصبحت الجهة الشرقية لمبنى الرئيس محتلة بأكملها ولا يفصلهم عن غرف الرئيس سوى حائط. ازداد الوضع خطورة مع محاولات تقدمهم من جهة مقر المحافظ حيث يتواجد المغاوير الذين شكلوا رأس حربه في معركة الدفاع عن حياة الرئيس. المعركة بدأت تشتد وتتصاعد وصارت الإشتباكات وجها لوجه ومن غرفة لأخرى، فجنود الاحتلال يقتربون من مقر المحافظة عبر البوابة الرئيسة ومن الفتحات الداخلية للغرف. في تلك اللحظة قرأ جميع من في المقر الفاتحة وتلوا الشهادة... الرصاص ينهمر كالمطر من كافة المحاور لصدهم ومنعهم من التقدم أكثر. وبالفعل، بعد أكثر من ساعة ونصف من المواجهة داخل غرف المحافظة استطاع المغاوير من صد الهجوم.

حين انتهوا، صعد إلى الدور الثاني حيث الرئيس واندس بصمت بين الحراس. ورآه عن قرب، مسافة أمتار. أخذ يتأمله ويتفرس فيه ويسأل نفسه: أهذا الرجل هو أبو عمار؟ كانت جدته قد قالت عدة مرات انه طويل عريض مثل المارد صوته كالرعد وعيناه تخترق كالمخرز وحد السكين. والآن يراه مثل كل الناس، ليس بمارد، وصوته لا يرعد أو يزبد، لكن عيناه، فعلا عيناه كالمخرز. وأسدل عينيه أمام النظرات المشحونة. كانت عيناه، رغم قلة النوم والجهد المتواصل والإجهاد، وفي هذا العمر، ما زالتا أحد من المخرز، تخترق وتقطع كالسكين. كان يتفحص الموجودين فردا فردا وكأنه يبحث فيهم عن سر الحياة. من منهم عاش، من منهم مات، من منهم ضعف أو استسلم. هذا الزمن هو زمن النحس، وهذه اللحظات هي قول الفصل، فإما تنهار وتستسلم أو تتجاوز. لا حل وسط. هذا عدو لا يرحم، بلا حل وسط. يريدك كلك، اسمك جسمك قلبك روحك حلمك وتراث أجدادك. لن يبقي لك إلا ذلّك وفتاتا يلقيها لتلعقها تحت الأقدام مثل كلب حقير. هل أنت كلب؟ هل أنت حقير؟ وترضى بزريبة حيوانات؟

كان ما زال يتأملهم يبحث فيهم عن سر الحياة، عن سر الخوف والشجاعة وقال بصوت أقرب للهمس، كصلاة وداع،

- أهلا بالموت في سبيل الحياة.

فصاح أحدهم،

- أهلا بالموت.

فرفع صوته ليصححه،

- في سبيل الحياة.

وتأملهم. حدق فيهم ورأى دموعا في عيني شاب لم يره من قبل. لكن لا بأس، هذه هي الحال، فهذا المكان هو ملجأهم، أو آخر فخ. اقترب منه وتأمله من مسافة ذراع. فشد مجيد قامته وأسدل عينيه واستعد لأي سؤال. وجاء السؤال، نزل على رأسه كالبلطة،

- أنت مقاتل؟

بلع ريقه وذل دموعه وإذلال حياة بددها سوء الطالع والاحتلال والغيبوبة. وقال بصوت حاول أن يبدو فيه قويا،

- أنا مقاتل.

اقترب منه، أكثر، أكثر. وهمس في أذنه،

- وهذي الدموع؟

أحس بالسؤال يقطع لحمه. أراد أن يدافع عن ضعفه وعن إحساسه ويقول له لأني فنان" لكنه خاف وخجل من القائد ورفاق القتال فقال بوجل،

- لأني إنسان.

فهز برأسه ومشى أبعد. فصاح أحدهم،

- بالروح، بالدم، نفديك يا أبو عمار.

هتفوا من خلفه فاهتز البناء. فرفع يده ليصححهم وقال مهدهدا، وبلهجة أقرب للصلاة،

- بالروح، بالدم، نفديك يا فلسطي ن.

فصاحوا ثانية من خلفه،

- بالروح، بالدم، نفديك يا فلسطين.

اهتز البناء ثانية، أو ما بقي منه. فالتفت مجيد نحو القائد، ثم إليهم،فردا فردا، وأحس بدفء في قلبه، لأن العيون، كل العيون، فيها دموع مثل دموعه، وهو الفنان !

40

ها أنا أكتب في مفكرتي حتى لا أفقد ذاكرتي وتعود الي الغيبوبة.

كل الخطوط مقطوعة، والخلويات، والأنتينات، وكل ما يمكن أن يصلنا بالعالم وحياة الناس. بتنا في سجن، وقعنا في الفخ، واشتد الحصار.

صاح الرئيس في اللاسلكي:

- هذا مجنون، هذا مجرم، افعلوا شيئا.

سمع شارون اللاسلكي فأمر جنوده بتكثيف الضرب. قنابل وقذائف وصواريخ من كل الجهات. نار جهنم. فالتفت الرئيس للمدنيين من صحفيين ومن عمال وقال لهم: سدوا الشباك بالخزانة وانزلوا عالأرض، يا الله انبطحوا. نزلوا على الأرض وانبطحوا وهم يتلون سور القرآن.

ساد السكون بضع لحظات فسمعنا في الممر أحد الحراس يودع خاله باللاسلكي ويقول له: سامحني يا خالي، سامحني. وكتب آخر على الجدار بخط واضح: أهلا بروائح الجنة. فأيقنا جميعا أن الجنة وملاك الموت باتا يتربصان على العتبة. فدعونا الله أن يرحمنا وتذكرنا من يذكرنا. من يذكرني؟ أحمد وأبي، ستي الحجة، لورا وسعاد؟ هل يغفرون حماقاتي؟ هل يذكرون حسناتي؟ هل لي حسنات؟ سامحني يابا، سامحني. وأنت لورا، هل آذيتك؟

عاد يكرر: سامحني خالي، سامحني. فأحسست بالموت يتقمصني، وكذلك هم. بعضنا هرب من الواقع عبر نوم غريب. أحدنا نام وهو مقرفص، وآخر نام في سبات عميق طوال أيام ولم توقظه القذائف والصواريخ وأزيز الرصاص وسباب المشعبشارون اللاسلكي فقرر النزول إلى الساحة لتنفيذ الأمر بكفاءاته. وفيما هو يشحذ همته وأعضاءه كان وزير حربيته يعلن للعالم والرؤساء أن عرفات ومن معه باتوا في أمان، بخير وأمان. فصاح عرفات في اللاسلكي:

- كذاب، كذاب، شارون كذاب.

سمع شارون الإهانة فقرر أن يفعل فعلته وينهي الموضوع. وفيما هو يهرول شرقا، قيل له أن الموضوع بات عويصا وأن عرفات يرقص فرحا. لماذا؟ ما الأمر؟ قيل له جاءت نجدة من دعاة السلام من كل لون وجنسية: إنكليز، ألمان، أمريكان وطليان وحتى يهود. يهود؟! يهود؟! وهذا بالفعل ما فاجأنا. لأنا اعتقدنا طوال الوقت أن العالم قد نسينا، وأنا بلا أهل ولا صاحب، وأنا أيتام في وليمة لئام. لكن جاءوا، جاءوا بالفعل، ومن ثم كتبت في مفكرتي حتى لا أفقد ذاكرتي وتعود إلي الغيبوبة:

جاءوا وهم يرفعون اللافتات ويرددون الهتافات. أطلق الجنود النار فوق رؤوسهم كي يرتدعوا، لكنهم لم يرتدعوا، وواصلوا تقدمهم في الساحة حتى باتوا قرب البوابة والمتاريس. استعد الحراس للاستقبال، ففتحوا فسحة في التحصينات، وبالفعل مروا ووصلوا المقر وسط التصفيق والتهليل فلاقاهم رئيسنا بالقبلات.

مسئولة الوفد الفرنسية:كلوديا لوبوستيك قالت لنا: حين سمعت عما يجري في رام الله توقعت ارتكاب مجزرة جديدة فقررت المجيء بأي ثمن. وقالت لنا أن أعضاء الوفد يؤمنون أن الصمود الفلسطيني يعزز الصمود ضد العولمة وهيمنة أميركا وإسرائيل. لكن الفلسطينيين ومن معهم سيكسبون الحرب في النهاية، وأن شارون هو الخاسر. وقاطعت الحديث اليهودية الكندية نتايا غولان وقالت: أريد أن يعيش أولادي بحب وسلام، ولكن في ظل الاحتلال، لن يعيش أحد بسلام...

طوال أيام زيارتهم، رفض الأربعون، أعضاء الوفد، أن يعاملوا كضيوف بامتيازات، بل قاموا معنا بكل الأعمال بما فيها الطبخ والتنظيف، كما أصرت بعض المتطوعات على طبخ ما تبقى من وجبات. كانوا قد جلبوا لنا الحلوى ووزعوها علينا بالتقسيط. وفي ساعات الليل كانوا يتوزعون على غرفنا ليكونوا دروعا بشرية أمام الهجمات المحتملة.

كانوا يعملون كخلية نحل، فهذا البروفيسور جرار ابن الستين يواصل ليله بنهاره في كتابة مقالات وتقارير عما يحدث. وجوليا الفتاة الرقيقة تمزق قميصها لتقوم بتضميد جراح أحد الشباب. ومحمد بن بركة من المغرب، رغم علمه بوفاة أبيه أصر على البقاء في مقر الرئيس. ورغم الأحزان احتفلنا بعيد ميلاد نكلسون الخامس والخمسين. وكمفاجأة لضيوف الحفل حمل نكلسون صينية احتوت على قطع الحلاوة والبندورة كبديل عن الكيك والشوكلاتة وشمعة أطفأها وسط التصفيق والأمنيات بعيد سعيد. ثم أهديناه علم فلسطين وميدالية بيت لحم 2000 وكم كبير من القبلات. بعد ذاك التقطنا الصور لذاك الحفل العجيب الغريب. وما زلنا نحتفظ بتلك الصور كرمز للحب والصداقة وتآخي الشعوب.

هذا ما كتبت في مفكرتي حتى لا أفقد ذاكرتي وتعود إلي الغيبوبة، فهل أحيا يوما كي أنشر؟

42

وزعوا علينا كسرات الخبز وقطع الجبن ورشفات الماء بالقطارة. ابتدأت معركة مريرة ضد الأمعاء والعطش والجوع والنظافة. الحمامات، رحلة تعذيب حقيقية. فإن أنت دخلت موت أحمر، وإن لم تدخل عذاب ومغص وتوتر. حياة الجرذان والخنازير أفضل منا. لكن الصبر مفتاح الفرج. هذا ما قال جاري الأول. وجاري الثاني قال الإيمان. وجاري الثالث قال التفكير بالمآكل وحنان الأهل يضعف ما بقي من القوة ويهز العقل. فقلت آمين، لكن قلبي في الداخل ازداد شوقا وحنينا لستي الحجة وجوع الأمعاء جعل التفكير بمآكلها هاجس أيامي وأحلامي. محاشي ومخاشي ومسخن وخبز الطابون. آه يا ستي!

توقف القصف وابتدأ القلق. ماذا ينوون؟ متى يضربون؟ من أي اتجاه؟ كيف نقاوم وبأي سلاح؟ وبلا مؤونة وأخيرا قلنا سنجازف. أحد المخازن ما زال بحاله سليمة، فيه عبوات من الماء، لم ينسف بعد. وصفوه بدقة فتذكرت حيث

جلسنا أنا وستي على السرير قبل ساعات، قبل أيام، لا أتذكر. فتحت عيني على صورة وتحت الصورة كانت ستي. قلت يا أنا صاحي. قالت بالفعل، نايم وصاحي. ثم تبخرت، وغاص العقل في غيبوبة. ثم تذكرت. وابتدأ الهجوم.

والآن عدد من المغاوير سيحاولون دخول الموت من أجل الماء. خذوني معكم. رفضوا كليا وقطعيا. اكتشفوا أني متوتر، غير طبيعي. أحيانا أصحو وأتذكر، وأحيانا أغيب عن الواقع بدنيا الأحلام. وحتى لا أفقد ذاكرتي بدأت أدون ما يحدث، ما قالوا لي، ما قلت لهم، وكل ما يخطر على بالي. وطبعا أتذكر ما كنته قبل الضربة، وقبل الوشمي، ولورا وسعاد والموسيقى. هنا الحياة بلا موسيقى. لكن أحدهم يدندن أو يؤذن فأحس دموعي تتدحرج، تقفز مني غصبا عني، وأشلق لستي ولأحمد.

تسلل المغاوير من قاعة المؤتمرات في الطابق الثالث ودخلوا نافذة في الطابق الأول تؤدي للمستودع الذي تسيطر عليه قوات العدو. مارسوا التضليل وفنون الخداع للوصول إلى الموقع. ورغم احتمال وقوع مجابهة مميتة مع العدو أو الوقوع في كمائنه، فقد أصروا على إحضار عبوات الماء. وفعلا تقدموا بخفة ورشاقة وقطعوا الأنفاس. وبعد أقل من عشر دقائق عادوا إلينا بعبوات الماء، وبدأوا يدخلونها من النوافذ. شعرنا بالنصر وارتحنا بعد طول انتظار. وأصر الجميع على أن تكون أولى رشفات الماء من نصيب هؤلاء الشباب.

أنا أموت من أجل الهواء. وهم يموتون من أجل الماء. ويقولون أن هذي حياة.

بدأت أضيق بذاكرتي، وكم تمنيت لو عادت إلي الغيبوبة حتى ارتحل عن الواقع ولا أتذكر. وأنا أيضا قد كدت أموت في سبيل الهواء. خرجت من الطابق لأتنفس. فهذا الطابق بات سجنا، بات زريبة. سدوا نوافذه بخزائن، وأكياس الرمل والتحصينات وركام القصف والحمامات! أكاد أختنق، أكاد أموت. خرجت من الطابق لأتنفس. صعدت الدرجات. رآني الضابط. قال تفضل. تشرب قهوة؟ طبعا أشرب. في هذا الوضع، وهذا الحال، وهذا الجوع والعطش والحصار، فنجان قهوة! ترف ملوكي لم أحلم به. وليمة فخمة. أنا ممنونك. أين الفنجان؟ وجلست بجانبه أشرب ذاك الفنجان. فجأة، وبلمح البصر، طار الفنجان وطرت أنا وطار الكرسي. صاروخ لاو هز الدنيا وألصقني كالعجينة ببطن الجدار. خسرت الوليمة الملوكية، وخسرت القهوة والفنجان. حدث عابر. غيض من فيض. نقطة في البحر من هذا الحصار. ويقولون أن هذي حياة!

43

التصق أحمد بأم سعاد. فبالنسبة له، كانت تعويضا عن أمه وأجواء البيت. كانت من نوع يحبه فهي صلبة، وكذلك حنونة وسخية. كانت تحب أن تطعمه كلما جاء لزيارتها. فهذا سمبوسك وهذه مناقيش وأصابع زينب وعوامة. وحين بعيد ميلاده صنعت له كعكة جميلة وزوقتها بورق الليمون والفراولة. أعجب بالكعكة فصورها وصور القطط وهي تلعب بطبب الخيطان. كان ما زال يحب القطط رغم فجيعته ودخول السجن بسبب قطة. لكنه حين تحدث إلى أم سعاد وحكى لها قصة سجنه قال بخجل، لولا القطة ما كنت وعيت ولا كنت دخلت بكل هذا. وأشار إلى معطف الإسعاف والهلال الأحمر أشارت إلى الكاميرا لتستفهم فقال بخجل: هذي هواية. وأراها صورا كثيرة، صور القطط، صورة ميرا في مستوطنة كريات شيبع، وعيسى ومجيد فوق الهضبة وفي الخلفية مراجيح أطفال كريات شيبع عبر الشبك وسياج الخوف. سألته لماذا يسميه الخوف؟ قال بفتور: هذا السياج ليحميهم. سألت بابتسام: وهل يحميهم؟ قال بسرعة: كيف يحميهم؟ أنا دخلت من تحت الشبك وميرا دخلت وبوبو وعنبر. سألت بفضول: وبعد السجن ممكن تدخل؟ فكر بجدية ودون ابتسام وهمس بحيرة: يمكن، الله أعلم. وحدق في وجهها كي يسألها لماذا تسأل، فهو يعرف عن ماضيها وعن حاضرها وزوجها السجين وابنتها

لكنه خجل وابتلع السؤال. فهذه المرأة تجعله يحس أنها أمه، مع أنها ليست أمه، بل هي نقيض لأمه، فهي قوية، وصلبة وذات لسان مثل المبرد، ولها ضحكة ذات أصداء تهز الحارة. امرأة قوية وسخية وتحب الضحك وصوتها عال مثل المدفع الخضرجي والفران وبياع الشومر والنعنع وتقول لهم: كيف الأحوال؟ فيقول هذا مستورة والثاني يقول الاجتياح قريب وثالث يقول بدنا جرازي. فتلف الجرازي في صرة وتلقي بها من سطح الدار أو من شباك وتقول لهم: أنا عندي ضيوف. ابعثوا لي ولحمة وعكوب وقنينة زيت. وتلتفت إلى البنات في مشغلها وتصيح بهن: يا الله يا بنات، ما لكم واقفين؟ أنا عندي ضيوف. لازم أطبخ. وتستدير إلى أحمد وتقول له: وأنت يا حمادة يا حبيبي لازم اليوم تاكل معنا. فيحمر ويخضر وينظر بالورب فيرى البنات ينظرن إليه فيهرب ويقول: أنا عندي شغل. فتصيح به فوق الأدراج وهو يهبط: وله يا حماده بزعل منك. لازم تتغدى اليوم معنا. فيعود الظهر ليتغدى رغم خجله ورغم نداءها "وله يا حماده" أمام البنات. يعود ليأكل رغما عنه لأنه ما زال يحب بطنه، ولأنها تشعره بدفء البيت.

44

ابتدأ الضرب فنادوهم بالسماعات: يا أهل نابلس استعدوا، هجم اليهود. فضحكت أم سعاد وقالت للبنات: يا الله اشتغلوا، مالكم واقفين؟ كانت تريد تسليم الشغل وقبض الثمن قبل بدء الهجوم، فهي المسئولة عن فتح البيت وهي المسئولة المشغل وأجور البنات. مذ فارقها وقبع في السجن صارت امرأة قوية. في البداية، ككل النسوان، قبعت في البيت تطبخ وتنفخ وتحبل وتلد مثل القطط والأرانب. ففي كل سنة ولد في البطن وولد في الحضن وولد يلتصق بركبتها حتى طفحت أركان وما عادت تتسع لفقس جديد فجاء اليهود ورحموها. أخذوا المحروس فقاس البيض وتركوا الدجاجة والصيصان. صاحت وشدت الشعر ثم انتفضت وبدأت تعمل. باعت أسورة مبرومة واشترت ماكينة لحبك الصوف. ثم أخرى، ثم أخرى فامتلأت الدار بالماكينات. وكبر الأولاد وذهب سعيد ليدرس في الشام، وعزيز ذهب إلى المغرب، ومروان هاجر لأميركا، ومحمود استشهد بعملية بغور الأردن، وجميل راح وعماد راح وما بقي منهم إلا سعاد. فكيف إذن يقولون البنات لا نفع لهن! وكيف إذن لا تحب سعاد؟ وكيف إذن لا ينادونها يا أم سعاد؟ سعاد إذن هي ست الكل والنوارة. وأبو الأولاد لم يورثها إلا القلق والهم والغم ومصروف الدار ومصاريفه. فهذا محامي، وهذه مصاريف الزيارة، وهذا مصروف لدخانه وأكله وشربه حين حين تزوره، وقبل أيام، تبدأ بتحضير السلة، كبة وصفيحة وسمبوسك وكعك بعجوة وكعك بسمسم وجبنة وحلاوة ونموره. البداية، ما كانت تعبأ بمصروفه بسبب الأولاد وهمّ الأولاد، والأكل والشرب والمدارس، وهذا قميص وهذا بنطلون ولتلك وكتب وأقلام ودفاتر وماء وكهرباء وبرميل الغاز. شيء مقرف! كل هذا وذاك من أجل من؟ وبفضل من؟ بفضل زوج لم يرحمها؟ حين كان هنا كان كالبغل، رأسه يابس. يصرخ الصوت فيهز الدار. يقول لها: وله يا حرمة، وله يا هبلة، وله يا حمارة. وكانت تقول: طيب، طيب، بس انت روق، طول بالك. وتركض هنا، ثم تركض هناك، تمسّح لهذا، وترضع ذاك، وتعكز أمه للحمام. ثم سجن هو، وماتت أمه، وراح الأولاد وبقيت هي، ولكن أقوى. ولو عاد اليوم وقال يا حمارة ستقيم الدنيا على رأسه. لكن للحق أصبح أحسن. أصبح في السجن أحسن حالا، أهدأ بالا، ألطف وأظرف ويحكي النكت علموه في السجن. صار بني آدم. عشرون سنه، خمسة وعشرون، أهي عمر قليل؟ دخل السجن وهو في أواخر العشرينات هو الآن فوق الخمسين، وهي أيضا أم أربعة وأربعين، فقال لها وهو يضحك: أربعينية؟ أم اربعة وأربعين؟ ففقعت ضحكة السجن حتى اليهود خافوا منها وقالت بفخر وهي تؤشر بأصابعها لأن أصابعها تدر الذهب والمصاري: أم أربعة وأربعين؟ تجوز علي. فضحك لها وغمز بعينه وقال لها: أنا أتجوز؟ منين يا حسرة؟ ثم باس إصبعه الشاهد وألقاه لها من خلف الشبك وقال

والله لو يصفوا لي الحوريات ويقولوا خذ، خذ ونقي، ما أنقي غيرك يا مجنونة. ففقعت الضحكة ثانية وطردها اليهود. شيء مذهل، بسبب اليهود صار بني آدم!

قالت: يا حمادة تعال احمل. فحمل لها أكياس الأرز وقناني الزيت وعلب السمنة. وقالت له نادي عيسى. فنادى عيسى، ونادى خليل وروحي وحمزة وصفوا الشوالات في ارض الخان حيث المطبخ بين البايكة والحاكورة. جمعت نسوان كل الحارة ووزعت عليهن كل الأدوار. أربعة للأرز، أربعة للعجين، أربعة للطبخ وتقشير الفول والبطاطا وتقميع الفاصوليا والبامية. مطبخ عظيم، مطبخ ممتاز يطعم مئات المقاتلين وسكان الحوش. حوش العطعوط حوش الفقراء، حوش الثورة، حوش العتمة والفضا والضوء يضوي على كل المحرومين. بدك تاكل؟ تعال عندنا. بدك تشرب؟ تعال عندنا. وتشرب أرجيلة ومعسل؟ وقرفة وكمون وتمر هندي؟ عندنا الخيرات مثل الجامع، مثل الملجأ، مثل المطعم يطعم ببلاش، يا الله تفضل.

قالوا: اليهود وصلوا الدوار. فقال الشباب: خلينا نشوف مين رح يدخل. كانوا قد أعدوا الكمائن وزرعوا الألغام في المداخل. في كل زاروب وحاكورة، في كل مدخل للقصبة، أمام الجامع، باب الساحة، خان التجار، ودير فنشر. البلدة القديمة، أو القصبة، نابوليس الروم، شكيم كنعان ويبوس وحمير، أقدم مدينة في التاريخ، أريحاأقدم، لكن أريحا القديمة غرقت في البحر، ضاعت في الماء، وضاعت سدوم وعامورا. أما نابلس، فبقيت هنا كعروس الليل، كعروس النهار، كعروس الماضي والحاضر ومتحف آثار، بمآذنها، بجوامعها، بقباب السوق والحمامات ورائحة القرفة والصابون وحلاوة قرع وطحينية. نابلس هذه ظلت كعروس لا تتغير، عبر التاريخ. كبرت، عظمت، شابت، شاخت، أمست كعجوز ألفية، ورغم السنين ظلت حلوة بعطر التاريخ، جوها عنبر، أرضها سكر، أحشاؤها لوز وصنوبر. هي في الماضي قلب نابض. هي في الحاضر حب أكبر.

45

هرع إليها أحمد وقال: هجموا اليهود. فلم تصدقه، لأن اليهود كانوا قد توعدوا عدة مرات – ولم يفوا بالوعد –أنهم سيهجمون، وسيحتلون، أو بالأحرى، يعيدون احتلال قطع السلطة. وقطع السلطة كانت أشبه بقطع السَلَطة، والناس أيضا في الشارع كانوا يقولون بغيظ ضاحك: أمن السَلَطة، حكومة سَلَطة، فوضى السلَطَة وقرف السَلطَة. قطع السلطة كانت مساحات جغرافية أشبه بقميص ممزق كل قطعة بواد. الياقة هنا والكم هناك وقطعة من الصدر وقطعة من الظهر وبلا أزرار. تراها على الخريطة كبقع الزيت في ماء عكر فتحزن وتقول: ما هذا الحل؟ لا شكل ولا حد ولا فاصل. أما القادة، ففصائل وقبائل وتنظيمات مثل الخيار والبندورة والفجل والخس والبقدونس في سحارة ينقصها القعر والسقف والغطاء وبلا جوانب. جاءوا بها من أرض الملح وفرموها مثل البالات وحشوها مثل الفرشات وباعوها للفلاحين والفقراء والأرامل. وكذلك شعب كالسلطة. فهذا فلاح من طوباس، وذاك بدوي من خان يونس وذاك مثقف في رام الله كلمة عربي وكلمة انكليزي وبنات يلعبن بالشورتات وحريم يتلفعن بالجلباب واليوانس. خليط عجيب بلا تجانس، وبلا تجنيس. وهناك خليط أحلى وأروع، فهذا مستوطن من كندا، وذاك مستوطن من باريس وروما ولندن ثم بلغاريا ورومانيا وسود وزنوج من الحبشة ومن أثيوبيا. شيء لا يخطر على بالك، خريطة عجيبة، ملعب أطفال، ساحة مجانين وطبق بضخامةقدر العرس يجلس فوقه طباخ مثل الغول يحمل مغرفة سداسية ويحركنا مثل الحساء حتى يأكل.

إذن المهم أن أم سعاد لم تصدق والتفتت للبنات وصاحت بهن: يا الله يا بنات، مالكم واقفين؟ كما أن الرصاص الصواريخ صاروا عادة، شيء عادي مثل الراديو وأذان الظهر ونشرة أخبار التلفزيون تسمعها فتنصت لدقائق أو لثوان ومن ثم

تعود إلى عملك. لكن أحمد صاح بهن: بقول اليهود! وحملق بهن مثل المجنون وسط الغرفة فهجمت كل واحدة على وخطفت الشال وهي تركض.

وأخيرا اقتنعت أم سعاد وبدأت تنزل درجات الدار وما زالت بيدها طبة خيطان. كانت قد بدأت جرزاية لشاب مقطوع من غزة. شاب جميل ومرتب وصغير السن، في عمر سعاد أو أصغر. قال لها أنه عريس ووحيد أمه بين سبع بنات وأنه مقطوع عن أهله منذ بدء الحصار. رجل سلطة، قوات الأمن، وبلباس كاكي واسع مثل الشروال. قال لها انه بردان ومرشّح وهواء نابلس يخترق العظم، وهو لم يعتد هذا البرد لأنه من الساحل، مرغزة. فقالت له: أنا أدفيك، وبإيدي احيكلك جرزاية يا ابن غزة. وها هي تسرع كي تفي بالوعد لابن غزة، للعريس الجديد وحيد أمه بين سبع بنات، قبل بدء الهجوم.

عادت إليها إحدى الفتيات وعلى يدها طفل يرضع وآخر يشد بأذيال الثوب وصاحت برعب: اليهود، اليهود، دخلوا من الشرق، هدموا بيتنا.

رمت الخيطان واندفعت تركض للشباك. نظرت شرقا ورأت أرتال الدبابات حول الدوار. ونظرت غربا فلم تر شيئا لأن البيوت الملتصقة والمآذن والأنتينات وأطباق الدش فوق الأسطح تحجب الأفق الغربي فلا ترى إلا الجامع ودخان حريق متصاعد. ثم سمعت شيئا يهدر مثل الشلال، يوشوش ويطقطق ويرشرش. كانت مصبنة أثرية منذ التاريخ لصنع الصابون، وكانت تحترق وتتوهج بنيران الزيت والصودا ودخان كثيف. ثم صاروخ نزل على السقف فاهتز البناء وطارت أشياء وانقلبت وانتشر الصوف وطبب الخيطان وتساقط زجاج النوافذ والشراعات والتلفزيون. فهرعت للدرج وهي تصرخ: هجموا، هجموا. وسبقها أحمد وهو يقول: أنا لازم أروح. أكيد المستشفى صار مليان. وهبط الأدراج فلاقاه الشاب الغزاوي أسفل الدرج وسأله عما يعرف وأين وصل اليهود؟ حملق عينيه واستدار إليه وسأل بحدة: تسألني أنا؟ اسأل حالك!

كان من الواضح أن الغزاوي مثل غيره من المقاتلين وقوات الأمن لا يعرف شيئا عن الموقف وحقيقة الوضع. كان القادة قد أفهموهم أن اليهود بجحافلهم والدبابات والمجنزرات والطيارات لن يخترقوا زواريب السوق لأن الزواريب ذات التواءات ومنعطفات وقباب وسقوف واطئة أضيق وأعتم مما يطيقون. فهؤلاء اليهود، رغم التدجيج والسلاح العظيم والطيارات، لا يساوون شيئا على الأرض حين الاشتباك بالسلاح الأبيض من دار لدار. فنحن هنا أبناء البلد نعرف تفاصيل أزقتنا ومداخلها ومخارجها وأسرار المخابيء والحارات. هم سيكونون مثل الصيّع في هذا اللغز لأن أزقتنا والزواريب هي فعلا لغز، ولا يقدر على اللغز إلا أهله. فليستعدوا للقاء الموت حين الاشتباك على سطح الأرض خارج جدران الدبابات والمجنزرات وأجنحة الأباتشي والطيارات. نحن لهم مثل العفاريت سنفاجئهم من خلف الدور ومن العتمة ومن فوق لتحت نقفز كالجن وسنريهم الموت ونجوم الظهر.

لكن الاشتباك لم يحدث قط، وظل اليهود في الدبابات والمجنزرات والطيارات يقذفون القنابل والصواريخ ويخترقون الأزقة بمدرعات مثل الغيلان الواحدة منها بطوابق مثل بناية بثلاثة أدوار أو أكثر ولا أحد يطل أو يظهر إلا المدافع والأنتينات وكاميرات تصور من أعلى وتخترق العتمة وتخترق الضوء. ثم أمثال عيسى وموسى ومن باعوهم واشتروا منهم أبطلوا مفعول الكمائن وتلك الألغام، فصاح الشباب: خيانة، خيانة، وركضوا ليختبئوا من النيران. شاب فدائي فجر نفسه بالدبابة وبعض بطولات خارقة لكن المد، والجحافل، والدبابات والليزر، ومجنزرات تهدر في الجو وفي الزواريب وتجرفها وتحرق وتدمر وتفجّر فيرتفع اللهب وتنسحق الأبنية وتتكسر ويصيح اليهود في السماعات: سلم نفسك، سلم، سلم. يا أهل نابلس يا شراميط، احنا جايين نفعل فيكم. وصاح الشباب: انسحبوا لجوه لقلب السوق. يا الله انسحبوا. انسحب هذا وتخلف ذاك وآخر استشهد في مكانه ورابع اختبأ خلف الجدران فسحقوها على رأسه ورؤوس الناس. والناس يصيحون، والنساء تصيح، وعويل الجرحى والأطفال. فوضى مخيفة، وقيامة تقوم في المدينة والناس في هلع والزلزال مثل السينما وأفلام الرعب وغزو الفضاء ويوم الحشر كما نسمع عنه، يوم قيامة.

كانوا ما زالوا يطبخون ويوزعون أطباق الأرز والفاصوليا. النساء يطبخن ورجال الأمن يوزعون الأكل على الفقراء والمنكوبين. بدأ الهروب من الأطراف إلى الداخل. بعض جيوب المقاومة ما زالت تقاتل ببسالة. كانت أحلام معركة الكرامة ما زالت تلوح لهم بالنصر ودحر الأعداء. كما أن الفوضى وفقر التنظيم وشح التسليح والمعلومات جعل جيوب المقاومة مثل أطفال في غابة ضاعوا وتاهوا عن قائدهم ولا يعرفون كيف يعودون أو يتقدمون وفي أي اتجاه. فظل كل واحد في مكانه يضرب ويموت وهو مكانه ولا أحد يدري عن الآخر ما حل به وماذا يفعل. أما السكان فهربوا بالحال، حملوا الأطفال والبطانيات وركضوا في الأزقة والعتمة مثل الفيران. فهذا الهجوم لا شبيه له ولا يقدرون على وصفه. حتى نكبة 48 ما كانت مرعبة بهذا الشكل، و67 كانت ألعن، إذ هزم العرب بدون قتال، و73 كانت بعيدة في الصحراء وسمعنا عنها في الإذاعات وقرأنا عنها في الجرائد والمجلات. أما هذه، هذه المجزرة الدموية وفنون الحرب الفضائية وجيش بمدافع وصواريخ وطيارات ومجنزرات وجرافات تجرف الأبنية بغمضة عين وتمشي على أفخم مرسيدس فتصبح مرقوقة كحصيرة، ورقة كلاج. لكن الناس كانوا قد رأوا في التلفزيون أفلام أميركا وغزو الفضاء وحرب النجوم ورامبو وجيمس بوند والبيونيك مان وعرفوا أن هذا الهجوم مثل السينما والتلفزيون، مثل أميركا والهنود الحمر، مثل فيتنام حين تجلت عظمة رامبو وقتل الأعداء بألاعيب والتقنيات وهو يضحك، وهو ينكت، ويحب ويعشق ويتمعشق وينكح بنات. مثل جيمس بوند، مثل رامبو، مثل أميركا، مثل السينما، شيء لا تعرف كيف تصفه وكيف تقاومه، إذن الهروب أحسن فكرة، أهرب، أهرب. فهرب السكان إلى الداخل وامتلأ الحوش بالمنكوبين والمصابين وعويل الأطفال والصبايا والتصق الجرحى بالجدران والزوايا لأن الأسرة في الجامع امتلأت بمئات المصابين والمبتورين وجثث ممزقة محروقة وروائح كريهة والغازات والحرائق وبراز الأحشاء المفغورة وتبول الناس على أنفسهم، فهذا يشخ على حاله، وطفل يتبرز ويتقيأ، وبقايا كلب متفحم، ومصاب يصرخ مشان ألله، عشرات يصرخون مشان الله، و[illegible] أحمد مفغور الفم وقد جمدت الدمعة في عينه وما عاد يعرف ما يفعل وبمن يبدأ.

" أعطوهم بنج، أعطوهم دم." صاح الطبيب بمن حوله، فصاحت ممرضة من خلفه: "لا بنج ولا دم، البنج خلص والدم فاسد لأن الكهربا مقطوعة." فاستدار يحملق كالمجنون ورأى أحمد يقف منتصبا كالضائع وسط الجرحى والأيدي تمتد إلى ساقه تسحب رجله تخمش قدميه وهو واقف مثل الصنم لا يتحرك. فصاح به " أنت، تحرك!" فظل مكانه لا يتحرك. صاح ثانية بهستيريا "وله يا ولد، انت يا مجنون، تعال، تحرك." شدته يد تحت رجل البنطلون وخمشت ساقه وركلته كوع فسقط على الأرض. وحين سقط بدأ يصحو ففز عن الأرض حتى يهرب لكن ممرضة محترفة أمسكت به وشدت كتفيه وصفعت وجهه فاستفاق وقال "أيش عم بيصير؟!" صاح الطبيب " تعال انت هون." فدفعته من ظهره حتى وصل، وحين وصل ورأى البطون المفتوحة واللحم والدم والتفحم، أغمي عليه.

حين استفاق أخذ يبكي، لكن الطبيب صاح ينبهه: "يا الله يا بطل، اليوم يومك، الناس بتموت." فقام ببطء، ثم بسرعة، وأغمض عينيه في البداية وهو يمسك شابا مصابا بشظية بترت ساقه واضطروا لبتر ساقه الأخرى من غير بنج. أمسكه بقوة وشراسة وأغمض عينيه. ثم مع الوقت، فتح عينيه وأخذ يعالج، يقطب جرحا، ينظف حرقا، يربط ويضمد ويغز الإبر. فقد الإحساس. صار يمشي مثل الآلة ويسمع الصراخ ولا تهتز له شعرة. أصبح همه، كل همه، أن يعطي شيئا لهؤلاء الناس، شيئا من قلبه أو من دمه، ولو قدر أيضا على روحه لأعطاهم روحه أو أكثر، فهؤلاء الناس مثل الأيتام بلا مأوى وبلا طعام وبلا

إله يرعاهم. فماذا فعلوا حتى ينالوا كل هذا؟ ماذا فعلوا؟ سرقوا؟ نهبوا؟ قتلوا؟ حرقوا؟ ألا يكفيهم ما هم فيه؟ مرض وفقر وبطالة، وعري في البرد، وتجيء أميركا وإسرائيل بكل هذا. لماذا يا رب؟ أين عيونك؟

سمعه الشيخ وهو يصرخ: أينك يا رب! فوضع يده فوق رأسه وأخذ يقرأ سورة ياسين. اقرأ، اقرأ، قل من خلفي، قل يا جبار، قل ياقهار، قل أعطيناك فارفع عنا هذا البلاء وهذا الشر وهذا الفسق وسامحنا واعف عنا واجعلنا عبيدك في الجنة يا ملك الملك. قل من خلفي. فقال وقال حتى هدأ وكل لسانه، ونام في المذبح وهو يقول: أعف عنا يا ملك الملك.

47

ما زالوا يطبخون ويأكلون. هذا رابع يوم من الاجتياح، ومطبخ الحوش ما زال يعطي ما قدر عليه. جاء الغزاوي وقال لها: يا أم سعاد، عندك جاكيت أو شال قديم؟ استدارت إليه وأحست بالحسرة من برده، إذ بدأ الهجوم ولم تقدر على الوفاء بما وعدت به وظلت الجرزة بلا أكمام. فقالت بحزم: أقعد للرز خليني أشوف. ووقف أمام حلة الأرز يراقبها ويكشف الغطاء كل دقيقة حتى لا يجف الماء عنها ويحترق الأكل. وغابت دقائق وعادت إليه بجرزة قديمة، جرزة لسعاد بنّاتيّة فاتحة اللون فنظر إليها وابتسم بخجل فقالت: البس يا شب مين صاحي عليك؟ فوقف في الزاوية وخلع الجاكيت ولبس الجرزة تحت الكاكي وقال بأدب: على كل حال الجاكيت واسع. فابتسمت له وقالت مازحة بمرارة: أكيد وسعوه حتى يوسع، كانوا عارفين! فابتسم لها لأنه يعرف ما الذي تقصده أم سعاد ذات اللسان مثل المبرد. وما تقصده أم سعاد أن السلطة، وهو منها، كانت تعرف أنَا سننضرب ونتخوزق. ولهذا وسعوا البدلات ووسعونا حتى تتسع ونتوسع وناكل خوازيق. في هذا الزمن، لا فرق كبير بين البدلة ومن يلبسها. فابتسم لها، وابتسمت له، والتصق بها مثل أحمد، إذ كان رقيقا وخجولا وبحاجة للدفء مثل أحمد. أحمد مثل الشبح وقال لها أنه تعبان ويريد النوم فقد أعطوه إجازة قصيرة لعدة ساعات حتى ينام ويعود لهم، والوضع هناك في المستشفى ... ورفع يده وهز برأسه ففهمت عليه وأمسكت به وجرته إلى الداخل في المخزن، وكان هناك سرير عتيق بلا شرا شف ولكن بلحاف ومخدة. فاستلقى بطوله وحذائه وحاول النوم فلم يقدر. غطى وجهه بطرف اللحاف وأخذ يردد ما قال الشيخ: يا ملك الملك أعف عنا، يا ملك الملك.

عادت إليه بطبق الأرز وعليه لحم وفاصوليا وجلست بجواره وقالت: كل، لازم تاكل حتى ما تهبط وتظل قبضاي وتظل تعطي. هز برأسه وقال: نعسان. فعادت تربت على ظهره: قم يا أبني، لازم تاكل حتى تقوى على هذا الهم. هز برأسه وقال: تعبان. فعادت تربت على كتفه: لازم تاكل لأنك صغير بأول عمرك ولازم لك أكل حتى تكبر.

فصاح فجأة، وبدون وعي:

- أكبر؟ أكبر؟ على شو أكبر؟ ولمين أكبر؟ انشا الله أموت ولا أكبر وأظل أشوف اللي صار واللي عم بيصير.

صفعت ظهرة وأخذت تؤنبه:

- وله يا مجنون وحد الله. الله ابتلانا بهذا البلا حتى يمتحنا بإيماننا. هذا اختبار. هذي حكمة. جايين يتشطروا علينا بالدبابات والطيارات والصواريخ؟ بس بالإيمان إحنا أقوى.

صاح بها:

- أي ايمان يا أم سعاد؟ أي ايمان؟

وأخذ يشهق وهي تربته وتقرأ على رأسه الآيات والدعوات وما قدر العقل على حفظه أو تذكره. إذ ان العقل في هذا الظرف يفقد قدرته على الاستيعاب والتذكر، لكن المؤمن يتذكر، قل لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم. له ملك السموات والأرض، قل يا الله، قل يا الله. فقال يا الله عدة مرات، عشر مرات، عشرون مرة أو أكثر. وسمعت الغزاوي خلفها يردد مثله: يا ملك الملك، يا ملك الملك، اعف عنا يا ملك الملك.

وضعت إصبعها على فمها وهي تحمل طبق الفاصوليا وقالت: تعال، خليه ينام. وخرجت لتجلس على الدوشك بجوار الباب. وفرشت له حصيرة وطراحة وقالت: نام، الدنيا ليل ولازم تنام. فهز برأسه وقال بحسرة: مين اللي ينام؟ أنا من يومين مش قادر أنام.

وأخرج من يده صورتها، صورة عروسة جميلة بنت 17 وقال لها أنه عريس 3 أيام ثم أخذوه لقوات الأمن في الضفة ولم ير عروسه من 3 سنوات، 3 أيام و 3 سنوات، كان عريسا 3 أيام، وها هو الآن في قوات الأمن في الضفةمن 3 سنوات. وسأل بحسرة: مين الأحسن؟ أكون عريس والا جندي؟ فلم تجبه، وأمسكت الصورة تتأمل في وجه البنت، بنت 17.

قال لها مثل الأطفال: مشتاق لأمي يا أم سعاد. فهزت رأسها وتذكرت سعاد وسعيد وعزيز ومروان وكل الباقين. وتذكرت أيضا زلمتها خلف القضبان. لماذا يا رب تحرمنا من أحبتنا وهم أحياء؟ لماذا تشتتنا وتفرقنا وتجعلنا أرامل ويتامى ونصف أحياء في هذه الحياة؟ قدرك يا رب، عطفك يا رب. أعف عنا. لا بد أن الناس كفروا وفجروا حتى ينالوا مثل هذا العقاب. لكن يا رب، يا رب، يا رب!

قال برقته الطفولية:

- مش قادر أنام، خليني أنظف المطبخ وأجلي الجليات.

حدقت فيه وفهمت عليه وقالت: طيب، يا اللهنظف. كان قد قال لها أنه وعد أمه بألا يقاتل،وها هو الآن وقت القتال فهل يقاتل؟ هل يحنث بوعده ويقاتل أم يسمع كلام أمه ويبر بالوعد؟ فكرت لحظتها لدقائق، فان قالت "قاتل"، معنى ذلك أنها تهديه إلى الباطل فيحنث بالوعد، ووعد الأم وعد مقدس لأنه بالذات هو وعد الأم. وان قالت "لا تقاتل"، فهذا يعني أنها تشجعه على الخذلان والخيانة ، وهو جندي! لكنه ليس بجندي، ولا بشرطي، ولا عسكري، فما هو إذن؟ هي لا تعرف وهو لا يعرف ولا أحد يفهم أو يعرف بمن فيهم من جاءوا بالحل وجاءوا بهذا، هذا الكاكي. ثم فكرت بتأمل، وبمنطق، أن الكاكي، هذا الكاكي، لأنه بلا هدف ولا منطق، فلا هو جندي ولا عسكري ولا شرطي ولا أي صيغة من صيغ القتال المفهومة، فلماذا إذن يحنث بالوعد ويَقتل و ‘يقتَل ويقاتل؟ لماذا القتال أصلا يا ناس؟ لو كل أم طلبت من ابنها مثل هذا الوعد فهل كنا نقتل ونقاتل؟ وهذا اليهودي في الدبابة، أليست له أم؟ وهل كان يقتل ويقاتل لو طلبت أمه مثل هذا الوعد؟ إذن المهم، هذا العريس الغزاوي لماذا يقتل؟ لا ليس خيانة ولا نذالة ألا يقاتل. لأنه بالأصل لم يوظف من أجل القتال. وبهذا وصلت إلى قناعة ووجدت الحل فقالت بحزم: الوعد دين يا ابن غزة، أوعى تقاتل، ولازم تسمع كلام أمك. فهز برأسه، لكنه ظل مثل الضائع، حائر وعصبي ويدخن.

قال لها: خليني أنظف المطبخ وأجلي الجليات، مش قادر أنام. طيب، طيب، يا الله نظف. فرفع الحصيرة عن الأرض، وشمر أذيال بنطلونه وأخذ يشطف بلاط المطبخ من الدهن والوسخ وبقع الدم.

حين انتهى، جلست واياه على الدوشك وقالت: هلقيت نشرب فنجان قهوة. قال: طيب. وقام هو ليغلي القهوة وكأنه ولد من الأولاد. باتت تحس أنه منها، ابنها هي، ابن الحارة، ابن نابلس هذا العريس ابن غزة. أولادها باتوا في الغربة وهو أيضا متغرب عن أمه من 3 سنوات. لو أنه يعود إلى أمه ويعود سعيد وأخوته لها، لكن الحظ، والرزق، والنصيب والمستقبل. هناك الأولاد لهم مستقبل، أما هنا، ماذا يجدون؟ ما يجده الآن ابن غزة؟

ونظرت إليه، لابن غزة، ورأته جميلا وطويلا، ورأته صغيرا ورقيقا مثل البنات لأنه كان وحيدا بين 7 بنات. أمه ربته على الدلال فطلع رقيقا لا يتحمل رؤية الدم. جاءها ملهوفا قبل يومين وهو يركض حين رأى رجلا ينزف. "الدم، الدم." أخذ يصرخ، "قطعوا رجليه وفتحوا بطنه." فقالت له: وحد الله. أنت رجال، مالك يا شب؟ صلي على النبي وقوي قلبك. فأخذ يبكي وهو يتمتم: مش متعود، عمري ما شفت هذا المنظر!

طبعا ما شاف هذا المنظر، رجل مفغور كذبيحة، أطراف مقطعة مرمية كل قطعة بواد. رأس مهروس مثل تينة. طبعا ما شاف، لكن سيشوف. ولماذا يشوف هذا الوحداني ابن غزة؟ اقعد، أقعد. سحبته من يده وهو ينتحب مثل البنات. وها هو الآن يغلي قهوة.

جاء الزملاء، ثلاثة زملاء جاءوا وقالوا: دورك يا عريس يا ابن غزة. حاول التملص فتبادلوا نظرات الغيظ، لكن لا وقت للتشاحن، لازم ياخدوه على قد عقله. فقال أحدهم: الوضع سليم والحاجز أمان. ما عليك غير توقف على الحاجز وتنادينا إذا شفت أي شيء. أذعن لهم وقال طيب، وخرج من الباب وهي تناديه: خليك لتشرب القهوة! لكنه خرج حردا ورفض أن يشرب القهوة.

بعد دقائق سمعت صاروخا هز الحوش، فخرج أحدهم وعاد يصرخ: هذا المسكين ابن غزة! فخرجت حافية مكشوفة الرأس تتعثر فوق الأوساخ والزجاج والوحل ووجدته هناك متناثرا مفغور البطن كل قطعة بواد فأخذت تلطم وتصيح بهستيريا: عريس جديد، أول عمره! الله يساعدني ع هالمنظر. يا حسرة أمك يا مسخم!

وأخذت تلطم وتبكي وتهتز كالمجنونة، فأمسكها أحمد وسحبها وقال:

- يا الله، يا الله على البيت.

التفتت إليه وهي تحملق ورأته يحملق هو الآخر، وقالت بجنون:

- غلى لي القهوة وما شربها، وحكت له الجرزة وما لبسها. عريس جديد بأول عمره. حسرة أمه!

فهز رأسه وقال بجمود:

- يا الله على البيت، هذا نصيبه!

" يا أهل نابلس يا شراميط إحنا جايين نفعل فيكم." صاحوا في مكبرات الصوت المنتشرة فوق مآذن وضعت هناك خصيصا لنداء الرب، لكن الرب كان بعيدا، وكانت نابلس تحترق ببطء.

قالت: استغفر يا أحمد، الله ابتلانا بهذا البلاء حتى يمتحن قوة صبرنا.

رفع يده وهو يمشي وقال بذهول: حلي عني!

كان قد سمع كثيرا عن ذاك الصبر والإيمانوالامتحان العجيب الغريب من طرف الله لعباده الصامدين الصابرين القادرين على التحمل أكثر من أي شعب في الدنيا لأنهم من طينة عجيبة معجونة بماء العفاريت ولهذاأسموهم جبارين. لكنه الآن وقد رأى ما رأى، وسمع ما سمع، ما عاد يطيق ذاك التفسير. فأي تفسير هذا الذي يقول أن الله يمتحن الناس بكل هذا؟ ما هذا الامتحان الطويل العريض، ألا ينتهي؟ ما هو طوله وعرضه ومداه؟ خمسون عاما أو أكثر، وجيل وراء جيل، ثلاثة أجيال، أربعة، خمسة، عشرة، ألا يكفي هذا؟ ألا يكفي؟

قال له شيخ الجامع: استغفر ربك يا أحمد. هذا قدر، قدري وقدرك وقدر أبو رامي وابن غزة.

وأبو رامي هذا كان قائدا عسكريا في قوات الأمن. "مسكينة السلطة شو ظلموها!" قال ضاحكا وهو يأكل أرز وبامية عند أم سعاد. "السلطة سلطتنا يا أحمد، إحنا سيئين؟"

نظر إليه أحمد ورأى عينيه مثل عيني أبونا خوري اللاتين. في طفولته وضعته أمه في حضانة دير اللاتين، وكان هناك خوري كبير مثل الملاك شعره أبيض وثوبه أسود ويضع صليبا على صدره بحجم المقلاة. كان يداعبه ويدعه يلعب بمسبحته ويقول له وهو يهدهده: أحمد حمادة سيد الولادة أمه بتحبه وأبوه بزيادة مين أحسن مسبحة أو قلادة؟ فينظر إليه ولا يفهم ولكنه يظل يلعب بأطراف مسبحته المدلاة من طرف الثوب وذاك الخوري ينبش شعره ثم يمسده. وكانت عيناه مثل الحليب، مثل الحمام، وسماء صيفية ونسيم عليل. وعينا أبو رامي مثل عيني أبونا الخوري: حليب صاف، حمام أبيض، نسيم وسماء صيفية.قال له وهو يأكل: مسكينة السلطة شو ظلموها! سألت أم سعاد بحرقة وألم إذ كانت ما زالت تتلوع على ابن غزة: وإحنا يا أبو رامي مين ظلمنا؟ قال: اسرائيل. قالت: خوتونا بإسرائيل. ظلم الأهل أمر وأقسى. قال بحنية وفهم كبير: يا أم سعاد، يرضى عليك، مين السلطة؟ مش أنا وانت؟ إحنا فلسطين. لكن فلسطين بعدها طفلة، في حالة مخاض، ولما تولد ويكبر الطفل بكبر عقله، صح والا لأ؟ هزت رأسها وهي تحرك المغرفة في قعر القدر وقالت: صح. قال لها: عفيه عليك، صرنا أصحاب؟ التفتت إليه وكانت الدموع في عينيها وقالت له وهي تنزف: أنا قلبي انحرق على ابن غزة، قلبي مذبوح وعيني ما تنام وولادنا يموتوا وينذبحوا مثل الخرفان.

هز رأسه وهو يدخن وقال لها وهو يحدق بعيني أحمد: الصبر الصبر يا ملكتنا يا ست الكل يا أم الحارة يا مختارة يا أحلى أم. ابتسمت بعزاء لأن أبو رامي ناداها أمام الشباب والأشبال ونساء الحارة والجارات: أنت الملكة أم الحارة أنت المختار. ضحكوا الشباب وكذا الجارات وسألوها: أنت مختارة أو مختار؟ قالت بفخر: أنا أم الحارة المختارة، ها شو تقولوا؟ صاحوا معا: نقول آمين لما ناكل. وها هي تطعمهم وتسقيهم وتبكي عليهم حين يموتون. ويقول لها الشيخ: هذا النصيب، هذا قدرنا. وهي بالتالي تقول لأحمد: أوعى تكفر، هذا النصيب هذا القدر هذا امتحان ربي وربك. فيهمس يغضب: حلوا عني! لكن أبو رامي يقول لها، وكذا الشباب أنها المختارة النوارة وست الكل ست الحارة.

لكن أبو رامي هو أيضا راح وودع وبكت عليه مع أنه كبير فوق الستين. رأته يموت يوم التسليم. يوم التسليم في ذاك المساء، قبل ساعات من موته، جلس في المطبخ يتعشى ويشرب قهوة. قال لها: يا أم سعاد، الموت حق ووعد مكتوب ما منه خلاص. وإذا كان الموت لا بد منه فلماذا نموت مثل الأنذال؟ الموت لبلدنا شهادة، وشهادة الشهيد أحسن فرمان لدخول الجنة بدون واسطة. وضحك وضحكت وقالت: صحيح، يسلم لي لسانك ما أحلاه! وتذكرت في الحال زلمتها خلف القضبان إذ كان مثله يحب النكت ويحب الضحك حتى على الموت. الموت فرمان، الموت ميدالية وشهادة، ودخول الجنة بدون واسطة. ما أحلى الكلام عن الموت لما يكون الموت من غير تعذيب. فكرت كثيرا وهي تحرك قعر الحلة وتتذكر العريس الجديد ابن غزة. حسرة عليك يا ابن غزة. حسرة عليك يا أم العريس الغزاوي. أبنك وحداني بين سبع بنات الله يعينك! إذا كنت أنا انحرقت وقلبي ذاب، كيف حالك أنت يا مسكينة؟ والعروس الصغيرة 3 أيام، 3 أيام ولبست أسود! مسكينة يا ويلي على شبابك، بعدك صغيرة يا مسكينة، لسه طفلة، أصغر من سعاد، أصغر بكثير! وينك يا سعاد؟ وين أراضيك؟ قال أبو رامي يهدئها: أكيد برام الله يا أم سعاد، ورام الله بخير أحسن من هون، الضرب والضرب على رئيسنا، لكن رام الله بخير وأمان، أحسن من هون بألف مرة.

حمدك يا رب. الحمد لله أن سعاد ما كانت بنابلس ولا شافت كل اللي جرى. الحمد لله. لكن يا سعاد ولو بالتلفون كلمة صغيرة، كلمة، مرسال أو رسالة. لكن لا كلمة ولا تلفون ولا رسالة، كله مقطوع. حتى ولا كهربا ولا هوا ولا ماء،

كله مقطوع. وما هو مخزون في براميل على الأسطح هدروا ماءه، رشوه بالرصاص وصار يرشرش مثل النوافير، أو بالوا فيه، شخوا، تغوطوا، يعني تذكار.

أبو رامي قال: ولا يهمك، أنا بكرة بشوف وبتأكد. كيف تتأكد؟ سألته بشك، كيف ممكن تقدر تتأكد؟ قال باسما: أنت مالك؟! أنا بكره بشوف وبتأكد. ومشى في الحوش وسط الشباب وهو يضحك، يداعب هذا ويتحرش بذاك ويوزع سجائر وعرق سوس. كان حنونا ويحب الأطفال ويحب الشباب ويحب بطنه مثل أحمد. قال أحمد: يا ريت أبوي كان هون معنا. فقالت بهم: خلي أبوك هناك بهمه، مش كافي ولاده محشورين كل ولد بواد؟ أنت بنابلس وأخوك هناك في البرية أو رام الله وسعاد معه والله أعلم إذا كانوا عايشين والا ميتين. قال أبو رامي: لأ عايشين، أنا أضمن لك. التفتت إليه وابتسمت: أنت تضمن؟ قال بثقة: طبعا أضمن. أنا قائدكم، والقائد دايما يقول الحق ودايما يضمن. صفقت يديها وقالت يعيش، يعيش القائد، أحلى نكتة! فغمز بعينه وقال ضاحكا: يا أم سعاد، حطي في الخرج. صاحت بغيظ: امتلأ الخرج وما عاد يسع. ثم تذكرت جاكيت العريس ابن غزة وبنطلونه الواسع كالشروال وقالت بأسى: امتلأ الخرج لكن وسع وتوسعنا من كثر الضرب وأكل الخوازيق. كانوا عارفين، صح والا لأ؟ كانوا عارفين!

وفي الضحى حين فقدته لم تلطم عليه كما لطمت على ابن غزة، بل بكت بصمت وتذكرت ما قال لها وما قالت له وكيف أعطاهم سجائره والعرق سوس وكيف كان يجلس على كرسي القش عند الباب وهو يأكل بكل تواضع، وبصبر كبير وقلب كبير والضحكة السمحة الرنانة ونكاته الحلوة وحبه للشباب. كان أبوهم، أحسن من أب، ثم تركهم مثل الأيتام. لكنه عاش عمره كله، فوق الستين ولم يكن بأول عمره مثل ابن غزة وأحمد وسعاد وألوف الشباب والصبايا والحبل الطويل على الجرار. آه يا بلدنا! آه يا بلدنا يا نوارة يا ست الحارة يا مختارة، يا أم الشباب وأم الغزاوي ابن غزة. أمه ربته على الدلال ، وهي ربت كوم الصيصان وحين كبروا أطلقتهم ليلاقوا نصيبهم في الدنيا، دنيا الغربة، وها هي الآن تعيد الكرة، تطبخ وتطعم وتلبسهم من جرازيها لتدفع عنهم غائلة البرد، لكن نابلس بردها قاس يخترق العظم. ورغم النيران والضرب والطخ ما زالت نابلس مثل الثلج.

في ذاك الصباح كالعادة، أو ربما فوق العادة، وكأنه كان يودع، وزع سجائر وشواكل، ووزع عليهم عرق السوس وحبات العلكة والنعنع. أعطى لهذا وأعطى لذاك من كل الجبهات والفصائل: هذا فتحاوي وهذا حماس وشيوعي وجبهاوي وبلاوي، ما كان لديه أي تمييز. كان أبوهم. كان القائد. والقائد أب، أحسن من أب. هذا ما كان يشرح ويقول وهو جالس عند العتبة، على كرسي القش وهو يأكل، يأكل بامية، خبزة وجبنة، زيت وزعتر أو ما تيسر. لا شيء خاص لأجل القائد. يا ريت كل القادة مثلك! قالت له وهي ترمقه بعطف وإعجاب. يا ريت كل السلطة مثلك. قال بحنان: مثلي وأكثر، بس لسه صغار لأن فلسطين بعدها طفلة، ولما تكبر ويكبر عقلها منصير كبار. صح والا لأ؟ قالت: الله! يسلم لي لسانك ما أحلاه! يا ريت كل قادتنا مثلك. هز برأسه: الله كريم يا أم سعاد، ربك قادر.

لكن الرب أخذ القائد، القائد المتواضع ابن الناس ذي القلب الكبير والعقل الكبير وأبقى لنا ذا العقل الصغير ماذا نفعل؟ لماذا يختار من هم أحسن؟ قال ضاحكا قبل موته: لأن الله يحب الأحسن. وإذا الله أخذني قبل الكل، فلأن الله يحب الأحسن. وابتسم لها، لكن الآن هي تبكي عليه. تبكي وتقول: ارحمه يا رب. الرحمة تنزل على روحه، كان أحسن أب، كان أحسن أخ، كان أحسن قائد في الدنيا، وبموته يا رب تيتمنا. لماذا يا رب؟ لأن الله يحب الأحسن. هذا ما قال. لكن عتبي، عتبي عليك يا مولانا، يا سيدنا، يا ملك الملك، لماذا تأخذ الأحسن وتبقي الأنذال؟!

شقت النافذة تحت الحرام، بطانية قديمة سوداء بلون الليل، والمخزن عتمة بلون الليل، والدنيا نهار في الخارج. رأت حسني مرفوع اليدين على الحائط، وأبو شعبان لصق الجدار هو الآخر مرفوع اليدين. انتبهت للحال وقالت: يهود! أكيد

اليهود!! وفتحت الباب للحاكورة ورأت الجنود. كانوا هم أيضا بالكاكي. وكانوا هم أيضا بشوارب مثل العرب. كاكي بكاكي، هل تفرق كاكي عن كاكي؟ ثم فهمت، لأن كاكيهم كان أجد، أجد وأحسن. وكانوا مدججين بالخوذات وأسلحة جديدة وقنابل وحاجات تلمع. ابتسم لها ذاك الضابط وقال: أهلا، أهلا وسهلا يا ست الكل يا مختارة، روحي قولي وراك خلص خلصنا، قعرنا الدف وبطلنا الغناني. كل واحد يسلم سلاحه وبلاش الدم ينزل أنهار. ابن القحبة بحكي عربي! مظبوط أحسن منا! فأغلقت الباب وهرعت للشاب بديل أبو رامي وقالت يا شاب، يا ابن الناس، اليهود صاروا في الحاكورة وقالوا نسلم. بهت وجمد في مكانه، إذ ان الضرب وقطع الاتصال والحشر في الحوش وضجيج الناس والصواريخ جعلوهم لا يعلمون ما حل بهم. دخل اليهود واجتاحوا السوق وقضوا على الشباب ونزعوا الألغام وحين انتهوا اخترقوا الجدران بالبلدوزر والدبابات ودخلوا من غرفة إلى غرفة ومن دار لدار ومن حي لحي حتى وصلوا لحوش العطعوط حيث المعقل ونهاية المطاف.

دبت الفوضى بين الشباب. بعض الشباب قالوا نسلم، والبعض الآخر قالوا نموت، نقاتل ونموت ولا نسلم.

ثم هدرت السماعات تعلن إخلاء كل القصبة، البلدة القديمة بكاملها، من أولها حتى آخر حجر فيها ستخضع للنسف. من جامع الخضر ودير فنشر حتى الحسبة ستخضع للنسف. خلال دقائق. أخلوا البلدة.

وبدأ الركض باتجاه الغرب، باتجاه الياسمينة ودير فنشر. أركض، أركض. حفاة، عراة، بالحفايات والشباشب، مع الأطفال وبلا أطفال وكبار السن والعجزة والمصابين فوق الأنقاض والحجارة وزجاج وحرائق وزبالة في كل مكان وجثث وجرحى وإصابات من كل حجم ونوعية، هذا يده، هذا رجله، هذا أعمى من وهج الحم، وهذا أخرس وقد فقد النطق، وصياح وجراح ومكبرات تنعق وتقول: النسف، النسف، سلم نفسك.

آه يا بلدنا! يا أم الشباب، يا ست الشباب، يا ست الحارة يا نوارة، يا مختارة. وحدك في الهم؟ لست وحدك، فألوف الناس، ملايين الناس الغلابى والمنكوبين قاعدين حدك. أنظري حولك.

نظرت حولها ورأت أكواما بشرية مكدسة هنا ومكدسة هناك في قاعة مدرسة حكومية حيث درست ابنتها سعاد. كانت تأتيها في الحفلات وأعياد الأم والتخرج وكانت سعاد تغني لفيروز وتنشد أناشيد وطنية. والآن سعاد في البرية أو رام الله، الله أعلم! أبناؤها كل واحد في بلد، وأبو الأولاد مرمي في السجن، وهي هنا بين الأكداس البشرية تسمع بكاء أطفال الناس ونواح الأمهات واليتامى وعويل مصابين لم تصلهم أيدي الهلال والإغاثة بسبب المنع.منع التجول طال وطال وامتد أياما وأسابيع ثم أشهر. ولا شيء تحرك في الأجواء إلا شاشات التلفزيون وصوت الراديو. الناس تظاهروا بالملايين عبر الشاشات ثم همدوا. هذا هو الحال، تظاهر تظاهر ثم همود. تظاهر تظاهر ثم جمود، ويظل الحال على حاله. ونظل مسمرين أمام الشاشات ننتظر الفرج بنشرة أخبار. أهناك فرج في الأخبار؟ وحتى هذه، حتى الأخبار نسيتنا لأن الأخبار الجديدة ألذ وأحلى. أخبارنا باتت قديمة. أخبار العراق، أخبار اليمن والسعودية، أخبار يوغوسلافيا ورواندا، ونحن تراجعنا للآخر. صرنا بايتين. بضاعة وقديمة.جاء من ينجدها. جاء يتعثر بين الناس ويفحج ويدعس ويتبعثر فوقأطراف البني آدمين المستلقين على بطانيات وفرشات اسفنج وحصر القش. جاء ليقول: يا أم سعاد بنتك بخير ومجيد صاحي وأنا رايح أقاتل في مخيم جنين.

نظرت إليه ورأت شعره طويلا منفوشا مثل ريش الديك، ورأت شعرات متناثرة فوق ذقنه طالت وتلوت في حلقات مثيرة للحزن. أما عيناه، فعيون الضبع أفضل منها. ما هذا الشكل؟ ما فعلوا به؟ كان ما زال بالمعطف الأبيض والشارة، لكن الدم،

هذا الدم؟ أما زال هناك قتلى وجرحى في هذا المنع؟ أيام طويلة قد مرت وهم محبوسون في هذا الخم، في هذا السجن، في المنع. أما زالوا يقتلون؟ أما شبعوا؟

جلس بجانبها على الأرض وقال: زهقت، وقال: قرفت، وقال: كفرت. لا تقولي ألله ولا محمد، أنا مش صاحي وقلبي مليان ومش قادر أفكر بأي شيء إلا بالقتل. لازم أقتل.

نظرت إليه وفرت الدمعة من عينيها. فهذا الشاب، بل هذا الطفل صار كالضبع، كحيوان جريح يتضور ويحلم بالقتل، فماذا سيصير حين يكبر؟ رأى ما رأى، وسمع ما سمع، وها هو الآن يتضور ويحلم بالقتل. قتلوا قلبه، قتلوا عقله، فقد الإحساس والمنطق، ألديه سلاح؟ ألديه قيادة أو تنظيم، ماذا لديه ليقاتل به؟ انتهى كل شيء. لم يبق شيء من أوسلو. قتلوا أوسلو. ضربوا القيادة وضربوا الناس وضربوا أوسلو، فكيف يقاتل؟ لم يجبها وجلس على الأرض إلى جانبها وغرق في الصمت كان من الواضح أنه لا يعرف ماذا يفعل. فجنين حرثوها بالمحراث، كما قال لها، وأخوه أتصل باللاسلكي من عند الرئيس لأن الرئيس أيضا محبوس، وأمه وأبوه، ألله أعلم.

– فقدنا كل شيء يا أم سعاد. فقدنا كل شيء. البلد خرابة، والناس طردوهم من بيوتهم والفلاحين خلعوا شجرهم ودمروا البيوت ونسفوا مساجد وجرحوا المئات واعتقلوا ألوف. ما ظل ولا شيء نعيش من أجله. يا أم سعاد شو أحكيلك؟ وأنا في الطريق راكب في سيارة إسعاف ومش قادر أسعف بني آدم. شوارع فاضية ومحروثة ضاع أثرها، صارت ولا شيء، صارت تراب، صارت ساحات وملاعب للدبابات. ودوار البلد اللي كله زهور صار مهشم، خلعوا البركة، كسروا النخيل، مشوا على النجيل بالدبابات وهرسوا الددونيا وحرقوها. ما ظل رصيف، ما ظل دوار، ما ظل أضواء وكهارب. حتى الإشارات الضوئية رشوها رصاص. ومقر الشرطة المسكينة ومكتب البريد والبلدية، يا أم سعاد شو أحكيلك؟!

قالت: إحك، إحك، إحك وفضفض لي وفش قلبك.

قال: الإسعاف، حتى الإسعاف ما خلص منهم. 20 سيارة أو أكثر كلها بيضا وكلها إسعاف بهلال أحمر وصليب أحمر سحلوها سحل ومشوا فوقها بالدبابات زي الصاصير وأنا منها نجيت بأعجوبة. يا أم سعاد شو أحكيلك؟!

قالت: إحك، إحك، إحك وفضفض لي وفش قلبك.

قال: وجنين كمان لعنوا دينها. حرقوها حرق، حرثوها حراث، طردوا الأهالي من بيوتهم وناس هدموا بيوتهم فوق روسهم ومشوا فوقهم بالدبابات. والناس اللي خرجوا من بيوتهم تحت الشتا وبالهوا والبرد حتى الطبيعة ما رحمتهم. عمرك شفت نيسان قاسي بهذي القسوة؟ مطر وزوابع وبرد وريح والناس مش عارفه وين تهرب أو تتخبا من ظلم السما أو ظلم الأرض. عمرك شفت؟! أنا مش عارف ايش عملنا؟ ساعات بقول الموت رحمة. وساعات بقول إحنا كفرنا، ويمكن عشان إحنا منكذب ونضحك على حالنا وعلى الناس الله سخطنا. ويمكن عشان إحنا ساكتين على اللي خانونا وباعوا بلدنا الله ما تطلع بخلقتنا. عيسى باعنا يا أم سعاد. عيسى وأمثاله بالعشرات، ويقولوا مئات. قالوا الشباب عيسى وغيره كشفوا الألغام وكشفونا. ولما دخلوا اليهود مشوا على الأرض فوق الأسلاك المقطوعة لأن عيسى، عيسى وغيره، كشفوا الأسلاك وكشفونا، لكن بعدين اكتشفناهم. هيك بقولوا. وقتلوه بالبلطة قدامي وأنا مش قادر أنسى عيونه. تطلع في وهو يبكي وينادي: أحمد، أحمد، وأنا مش قادر أشوف هالمنظر. مش قادر أفتح ولا أغمض ولا قادر أقول حرام ومظلوم. أنا مش عارف عيسى مظلوم أو مش مظلوم. عيسى جاسوس أو مش جاسوس. أنا مش عارف. أنا مش فاهم. معقول عيسى يخون العشرة؟ معقول عيسى يكون باع أهله؟ باع أهله وناسه وأصحابه؟ أنا كنت معاه طول الرحلة وما قال أي شيء أفهم منه أنه خاين. معقول يا خاله يكون خاين؟ معقول يخون؟

طأطأت الرأس ثم رفعته ونظرت حولها لجموع الناس المكدسين مثل بضائع في مخزن كبير تنتظر البيع. مثل خرفان في المسلخ تنتظر الذبح. مثل البلح يسقط على الأرض في أرض بور ولا يجد من يلمه.مثل الدواب، مثل الديدان، مثل الشجر، مثل الحجر وتراب الأرض، كله للبيع.

عاد يسألها ويتساءل ويقول: معقول؟

هزت رأسها وقالت:

- طبعا معقول.

فز عن الأرض وقال بحدة:

- أنا رايح أقتل وأقاتل في مخيم جنين.

نادت، نادت ولم يسمعها من ضجيج الناس. فأطرقت الرأس وهمست بهم:

- يا حسرة عليك وعلى شبابك.

ثم تذكرت أنه ما زال طفلا قاصرا لا يعرف رأسه من قدميه، وتذكرت أمه وألمها مثل أم العريس ابن غزة، فنفضت يدها وهمست بأسى: كله واحد!

50

ها أنا أعود لمفكرتي حتى لا أفقد ذاكرتي وتعود إلي الغيبوبة.

ثمانية أيام مرت على بدء الحصار وما زالت الوشة في رأسي تروح وتجيء وتذكرني بارتجاج المخ وارتطام الجدار . ذاك الجدار يبدو تسبب في إعطابي وما عدت أفهم ما يدور وكيف أدور وأتجاوب. أو يبدو أني من حم الضرب وتتابعه فقدت القدرة على التركيز. كان التفجير والتجريف والقصف والنسف قد طال جميع المباني وانحشرنا جميعا في رقعة صغيرة في جزء من بناية مضروبة لكن فيها شريحة يتيمة ما زالت تقف على رجليها. ذهب عنا نشطاء السلام وبقينا وحدنا في الساحة يركبنا القلق والهم والغم من أن يجدوا قيادة بديلة مثل قرظاي افغانستان، وبالتالي نموت وينسانا الناس.

كان شارون قد أعلنها عدة مرات أن عرفات لا يعجبه وأنه منذ أيام بيروت وتونس كان يلاحقه ، وها هي الفرصة قد سنحت للتخلص منه. أما أوسلو ووعود السلام والمؤتمرات والمصافحات أمام أعيان العالم في واشنطن وسلال الورد والميكروفونات ومكبرات الصوت والكاميرات ومئات الملايين خلف الشاشات تشاهد رابين نصف صاح وعرفات يتباهى بالحطة وكلينتون يتيه إعجابا بكيف عملها وجمع الأضداد فهذه أمور لا تعجب شارون ولهذا جاء بالبلدوز والجرافات ليجرف عرفات ومن معه ويتخلص منه. وبالطبع خفنا جدا، فأسرع عرفات إلى أعلى حيث طرت أنا وطار الفنجان، وأعلن موقفه وموقفنا بثلاث كلمات: شهيدا، شهيدا، شهيدا. وهذا يعني أن الفاتحة قد قرأت وعلينا السلام.

هل كان عرفات يناور؟ كيف أعرف وأنا ما زلت حارسا من حراسه، في الصف الثاني أو الثالث لأن المغاوير هم وقوات الأمن وال 17 وعشرة أنواع من الحرس كانوا يقفون على بابه ولا يدعون المجال لأمثالي من التحدث إليه ولو لحظة أعرف ماذا يقصد وكيف يفكر؟! ولهذا بدأت استمع للقيل وقال وأجمع القصص والأقوال لأعرف ما يقول هذا الرجل حتى ما حل بنا أو ما سيحل. وحين لمحت حطته وهو يصعد فوق الأدراج حيث طرت أنا وطار الفنجان لحقت به ووقفت موروبا خلف نصف جدار أتسمع، وسمعته يقول للصحافة في أول لقاء عبر الموبايل: شهيدا، شهيدا، شهيدا. وعرفت لحظتها أن

قد أزفت، وأنه قضي علينا وأن التاريخ لن يذكرنا. هذا ما ظننت أن الرجل يقصد فعلا. . . شهيدا، شهيدا، شهيدا، أي أن كل فرد من الثلاثة شهداء المذكورين مضروب بمئة، يعني 300 بالتمام والكمال، وهو عددنا، سيكون شهيدا حتى الموت. في يدي وحمدت الله لحظتها أني لا أمسك بالفنجان.

لكني فهمت، أو قالوا لي، أن الرئيس كان يناور. يعني ماذا؟ يعني معناه أن رسالته ذات أبعاد على ثلاث موجات لثلاث جهات. الموجة الأولى معناها أننا سنقاوم حتى الموت وأن شارون لن يدخل لنصف البناية المنسوفة إلابمجزرة حقيقية، وهذه المجزرة قد تجعل من عرفات شهيدا بطلا وتمد الناس بمثال عظيم. وهذا بالطبع لا يعجب شارون وبوش وبلير.

والموجة الثانية، أي كلمة شهيد من خلال البث موجهة لجهتنا نحن، أي من يصطادون في الماء العكر، وتخبرهم ألا مجال لعقد الصفقات من وراء الظهر، أي ظهره هو، ظهر الرئيس.

والموجة الثالثة نحو اميركا، وتعني خسئتم، أي قطع الطريق على بوش وبلير لأن الشهيد هو من يحكم، وهذا الشهيد ما زال هنا على قيد الحياة والناس معه.

وهذا بالفعل ما صار وجرى، إذ خرج الناس في الشوارع من أول شارع في رام الله حتى أسوان والسعودية وسينا وسودان وسومطرة. ولم يبق أحد في الدنيا إلا وقال يعيش عرفات، وأنا معهم.

أرأيتم شهيدا يناور!! أنا رأيت، في الطابق الثالث من نصف بناية منسوفة حيث طرت أنا وطار الفنجان وكنت مختبئا موروبا خلف نصف جدار وكانت قوات ال 17 ما زالت هناك ولهذا خرجت باستنتاج أن قرظاي لن يأتي هنا وأني سأعيش، وأن شارون سيلقطها ويلتقط البث.

51

بدأت أجمع الأقوال عن هذا الرجل إذ فاجأني وأعاد إلي ارتجاج المخ. ماذا يأكل، ماذا يشرب، كيف يصلي ولماذا يعيش؟ لديه حلم كالكابوس، أن فلسطين مهما صغرت، مهما كبرت، مهما شابت، مهما شاخت، لا بد تكون. يناور يداور يميل يسارا ثم نحو اليمين صعوداهبوطا حتى الموت، لا بد تكون. يلعب بالعقلة أو الإصبع، يلعب بالزهر أو الشطرنج، يلغب غماية وزقوطة، لا بد تكون. حتى على الموت، لا بد تكون. طيب إذن ماذا عنا؟ نحن المحاصرون في هذا السجن، في هذا الحصار وخلف الجدار بدون أكل بدون ماء وحمامات، في نصف بناية منسوفة والنصف الآخر كالغربال وحولنا مقبرة السيارت المسحوقة يحرسها جنود وقناصة فوق الأسطح وخلف الشبابيك وعلى البنايات،ماذا عنا؟ قالوا: غني. ماذا تقولون؟ قالوا: غني. لماذا؟ ما السر؟ أهذا وقته؟ قالوا: غني حتى تسلطن ويسمعنا اليهود ويسمع زيني ويتأكد أنّا سنغني حتى الموت وفي الليلة التالي جاء زيني ولم يسمع، ففقعنانحن. قال كلمات لقنها شارون. قال "القتلة" يعني أنا والمطلوبين، يجب ينالوا عقوبتهم على أيدي شارون. فقال عرفات: نحن السلطة، نحن وقعنا الاتفاقات، والسلطة تحكم وليس شارون. فخرج وجاءونا بباول. وباول غنى نفس الموال، أن "القتلة" الذين هم نحن، يجب أن ينالوا عقوبتهم علىأيدي شارون. فقال عرفات ثاني مرة : نحن السلطة، نحن وقعنا الاتفاقات، ونحن من يحكم وليس شارون. وخرج باول وجاءونا بواحد يقربنا، يعني مصري، يعني قبضاي ، فجاء محملا بالشوكلاتة، ثم قالوا الموز، ثم تبينت أنها لا كانت شوكلاتة ولا حتى موز ولا أي شيء نكهة، بل كانت رسالة من مبارك فيها تعاز حارة جدا، وقناني ماء. ثم علمت فيما بعد، أن مبارك بعث إلينا بعصير مانجا، لكن قوات ال 17 شربوا المانجا واعترفوا لنا بقناني الماء. هذا ما سمعت، وليس غريبا أن ما أسمع غير دقيق لأني أتلصص موروبا خلف جدار في نصف بناية مخرمة مثل الغربال. ألهذا قالوا فسدانة وحكومة فساد؟ أنا لا أعرف، لكني أعرف بالتأكيد، أن

عرفات لم يذق المانجا ولم يذق الماء، لكنه قرأ الرسالة واستمتع بهاوترك المانجا لبعض الحراس، وبما أني أنا من حراسه، في الثاني أو الثالث، فقد استمتعت برشفة ماء.

52

حاكموا "القتلة" من أول صف، وأنا للأسف وحسن الحظ لم أحكم، لأني مثلماكنت مع الحراس في ثاني صف أو ثالث صف، كذلك كنت مع "القتلة." هذا التصنيف هام جدا لأنه يعني أني لم أدخل في الصفقة. وتلك الصفقة، مع أنها لم تعجبنا، إلا أنها رغم الإجحاف، نفعت كتكتيك باتجاهين. فمن ناحية، نحن من حاكم وليس شارون. ومن ناحية ثانية، قامت بتنفيس المرجل، يعني الرجل، يعني شارون، فغض النظر عن أمثالي،وأجل موعده مع عرفات. وفي الأيام التوالي، حين علمت بما حل بهم، أقصد "القتلة" من أول صف، حزنت كثيرا على حالي، لأن القتلة من أول صف نزلوا في سجن خمس نجوم ينعم بالماء والكهرباء ونظافة عظيمة للحمامات وخدمة ممتازة درجة أولى من دول عظمى ولها صيت ولها أسماء رنانة مثل جورج وتوني وجون وبلير. أما نحن فلنا الأسماء التعبانة من ثالث صنف ورابع صنف مثل أبو ساطور وأبو ناضور وأبوجلدة، هذا عدا عن أن حرسنا في الخارج حول الأسوار وفوق البنايات وخلف الشبابيك من صنف لا أعرف كيف أصفه، فهم بلا أصل ولا فصل ولا لون ولا جنسية، فهذا من المغرب وذاك نيويورك والحبشة وروما ورومانيا وأستونيا. وعدا عن ذلك فالوضع سليم سوى أن الكهربا مقطوعة، والماء والهواء والحمامات ...طبعا مفهوم.

رغم ذلك فالوضع سليم سوى أن الماء – لا تتصور– بل افعل ذلك وتصور أنك بدونماء أو حمام لثلاثة أسابيع، ثلاثة أيام، ثلاث ساعات، يعني لا ماء يقرب وجهك، بطنك، ظهرك وما لا نذكره من الأعضاء. هل تتصور؟ أنا تصورت، وحتى الرئيس تصور معنا، 22 يوما ما اقترب الماء إلا لفمه، وباقي الأجزاء، أنت تعرف. لكن عتبي، عتبي على من كفروا من الحراس ممن شربوا عصير المانجا واعترفوا لنا بقناني الماء وعادوا ليستردوا قناني الماء من أجل الوضوء والاستنجاء. أهذا معقول؟ فقلت لهم، إذاكان الرئيس لم يذق العصير ولا شرب الماء، فلماذا الوضوءوالاستنجاء؟ فقالوا بالحرف: حتى نقابل وجه المولى ونحن نقاتل بوجه جميل، فالله جميل يحب الجمال.

53

ها أنا أعود لمفكرتي حتى لا أفقد ذاكرتي وتعود إلي الغيبوبة.

عاد شارون لأكاذيبه. إذ بعد خروج "القتلة" من أول صف لسجن عظيم درجة أولى في سيارات شيفروليت وكادلاك من أحسن صنف، وقفنا نلوح والدموع في أعيننا، ليس عليهم، بل علينا، لأنا ما زلنا نقبع في الأسر، هنا في الحصار، وسيادة الرئيس، وأنا والحرس من ثاني صف لأني ترقيت وأصبحت أقرب للمانجا وقناني الماء، ورغم ذلك وقفت ألوح وأنا مستاء جدا جدا، وكذا الرئيس جدا جدا، لأن شارون كان وعدنا بفك الحصار، لكن الحصار ما زال هنا حتى اللحظة، وكذا الحراس فوق البنايات، وكذا الأسماء من الوزن الثقيل ما زالت تثقل علينا داخل السجن وخارج السجن، إذ زادت نسبة أبو ساطور وأبو

وأبو جلدة حتى أن الأميركان عادوا ليجددوا نفس الطلبات حول ضبط الأمن. فصاح الرئيس: الله أكبر، معقول يا ناس وأنا محبوس، وأنا أسير، وأنا محاصر، يطلبون منى توفير الأمن؟! شيء غريب، شيء مدهش، ويدعون أنهم من أول صف، درجة ومن دول عظمى بخمس نجوم!

ألمهم الآن أن الأمور باتت أفضل، فالوضع سليم، وها أنا بجوار واحد صحفي يمسك بموبايل بدأ يعمل لأن اليهود أعادوا الخطوط وسمعته يقول لصاحبه: وينك ياكمال؟ فقال كمال: أنا في الإرسال عند الحمرا. فقال له: أوعى التفخيخ، أوعى الأسلاك. ولا يهمك، سأمشي في طريق الدبابات وسأدخل عليكم في لحظات. وهذا ماكان، إذ ما هي إلا لحظات حتى دخلوا من ألف باب وباب، من الثغرات المنسوفة والهدم والردم وفوق الأسلاك وجثث مقبرة السيارات. جاءوا بوفود ضخمة جدا من صحفيين وأجانب ومتظاهرين وأهالينا، وكذلك أهلي وأصحابي، إذ أني فوجئت بلورا وسعاد وستي الحجة، وكان اللقاء درجة أولى، من أحلى صنف.

54

لم يكن الانفراج كما تصورناه، إذ بقي الحال على حاله. الرئيس محشور في زاويته، محاصر ومحصور من كل والقناصة في أعلى البنايات حول المقاطعة بأكملها، ونحن المطلوبون لا نجروء على الخروج من موقعنا. ورام الله محاصرة عن كل قرية ومدينة، وكذلك الدنيا بأكملها. حاجز سردة، حاجز قلنديا، حاجز بيتونيا والبالوع، حاجز وحواجز لا تحصى من كل الجهات والمداخل. وازداد الحصار وتشدد فازداد عدد العمليات وردات الفعل. هذا يضرب وذاك يضرب حتى بتنا في تدور وتدور بلا توقف. ومع ذلك، مع كل ذلك، بدأت أندمج بالأجواء، أجواء السلطة ومن فيها. بدأت أعد خطواتي وخطوات الساسة والقادة وأحسب للمنصب ألف حساب. فالاقتراب من القائد يعني سلطة، يعني منصب، يعني رتبة، يعني راتب، يعني وكيل لوزارة، ثم وزارة. وكذلك السباق على الأخبار والتلفزيون. فهذا يقول وذاك يحلل وآخر ينتقد ويترفع مع قائمة المنتفعين تبدأ باسمه. وبدأت ألفاظ تتحفنا بما هب ودب من مصطلحات. وبدأت كلمات ديموقراطية وإصلاح الفساد وإعادة هيكلة الحكومة ونواب الشعب تغزو القنوات والجرائد. ووجدتني من حيث أدري ولا أدري أنجر وأنساق مع الموكب وأدخل سباقا محموما نحو محطات التلفزيون. بدأت المسألة بلورا. إذ ان لورا صاحبتي، أو خطيبتي كما ظن الناس وظنت أجرت معي لقاء حيا لل PBC . وكان أن جاد الله علي فجدت أنا. وبدوت معقولا في التلفزيون، بل محبوبا. إذ قالت لي في ثاني يوم أن المشاهدين أحبوني وأن زملاءها في الجزيرة والعربية وأبو ظبي وحتى البحرين سألوا عني وقالوا من هو؟ فقالت قائد تنظيم وله وزنه. وما هي إلا أيام حتى كنت أتصدر كل الأخبار وأبدو محترما مرموقا في التلفزيون. فبدل الكاكي لبست البدلة، وبدل السلاح حملت القلم ألوح به وأنا احكي وأشرح وأقول بملء الفم ديموقراطية وهموم الشعب وإعادة هيكلة حتى صدقت ما أدلي به من تصريحات. وحقيقة الأمر أني ماكنت على اتصال بأي من ذاك. فأنا في الحصار، في هذا الخم، بفلول القناصة وحطام المباني والسيارات مختبىء عن الأعين وإسرائيل فقدت الاتصال بنبض الشارع وبت لا أعرف عن ناسي ما اسمع من لورا والتلفزيون. وحتى لا أبدو غبيا، بدأت أقرأ مقالات أبي ثم أهاتفه بالخلوي حتى يشرح ما لا أفهم. فماذا بهذا وما يقصد بذاك ومن ثم أعودإلى الشاشات والقنوات لأتحفها بما يغنيها ويجعل نشرتها مدعومة بما لذ وطاب من الأقوال والتحليلات. وهكذا، بين يوم وليلة، أو فلنقل خلال أسابيع، صرت علما، بل نجما من نجوم التلفزيون. وهذا ما جعل لورا تفرح بي لأن جدتها أثنت علي وقالت بالحرف أني أذكرها بالمرحوم، أي بالوشمي. وهذا ما جعلني أتضايق لأن الوشمي طبعا

معروف... لكني مع الوقت، وحين فكرت في الموضوع، وجدت أن الوشمي ليس قبيحا وبذاك السوء كما كنت أظن، فأول آخر هو ابن البلد وابن الوضع. نوري شاذ من أصل نور؟ لكن النور ليسوا شذوذا، بل هم منا، منا وفينا. وإن كنا نحكي ونتلمظ ونخطب ونقول بملء الفم عدل وعدالة وروح الشعب، فأين العدالة إذا قلنا أن النور ليسوا من الشعب وأن النور ليسوا منا، وأن النور ليسوا قادة، وأن القادة ليسوا من الشعب؟وهذا ما جعلني أتساءل: أهم النور أم هو الشعب أم القادة؟ وقضيت أياما وأسابيع وأنا أفكر، ثم تخليت عن التفكير لأني ركزت على الخلوي والتلفزيون وبدأت صعودا للقمة حين تدرجت في المناصب وسباق الخيل وبت أحلم بوزارة لأن الوزراء ليسوا أفضل. فأنا بدخولي التلفزيون حققت إنجازا على كل صعيد. فشكلي مقبول، وقولي معقول، وعندي خبرة بفنون القتال أفادتني حين تدرجت، ولدي أب يشرح ويفسر كل عسير، فلماذا لا أصلح لوزارة فمعالي الوزير؟ ولماذا لا أعلو وأتطاول وأنا معقول وشكلي مقبول وبمنطق؟ أهناك شك؟ ما عاد هناك، إذ ان الطبيب في آخر كشف طمأنني وقال الكسور في جمجمتي باتت أصلب وأن الارتجاج ثبت أخيرا وبت طبيعيا عاديا مثل عادي جدا.

لكن سعاد تقول العكس. سعاد تقول أني أسوأ لأني أهتم بالمنصب والتلفزيون وأني لا أختلف عن الباقين ممن هزموا وهزموا معهم آمال الشعب والقضية. آمال الشعب والقضية؟ أهناك مجال لقضية؟ أهناك حق؟ أهناك عدل؟ أهناك ضمير في العالم؟ باعتنا الدول فبعناها وحملنا السلاح فدمرنا ولحقنا الناس ثم انفضوا وبتنا لا نعرف من نقتل، نقتل شارون أم يقتلنا ويقتلنا الوقت! الوقت مهم، مهم جدا، لأن الوقت يحمل معه عفن التاريخ. إذ مع الوقت، تذوي الأشياء وتتضاءل مثل الإنسان. يبدأ الإنسان طفلا حلوا يزحف ويدب نحو الأعلى، ثم شابا فجا يحلم بأجنحة للطيران، ثم كهلا يرضى بالمشي الهوينا وعلى قدمين، ثم عجوزا محني الظهر على عكازين، ثم العودة إلى زحف البطن ولكن بنزول، نحو الأسفل، نحو اللاشيء والتلاشي وسكون القبر. هذا الإنسان، وكذا التاريخ والقضية وهموم الشعب. كل الأشياء إلى آخر. كل الأشياء تذوي مع الوقت. أقول مثل هذا الكلام للشابتين لورا وسعاد فانفجرتا في وجهي كعش دبابير يقذف بآلاف الزبانات ولسعات القرص وما عدت أعرف كيف أرد وكيف أختبيء وأتوارى. فماذا أقول لمن لم يعرف معنى مواجهة الموت كل لحظة؟ ماذا أقول لمن لم يذق طعم الحرمان من رشفة ماء؟ ماذا أقول لمن لم يعرف ذل الانكسار أمام القوة والدبابة ونزيف الحصار؟ أهناك شك أن الإنسان مثل التاريخ؟ وأن التاريخ كالقضية؟ وأن القضية كخيوط الحب تبدأ حلوة، صلبة، قوية، ثم مع الوقت تذبل وتموت وتتلاشى؟ أي أن الوقت هو من يحكم، وليس الإنسان. فعن أي التزام نتكلم؟ عن أي وقت؟

55

وقفت سعاد في الساحة. ساحة المقاطعة ومقر الرئيس حيث الوفود تتوافد والسيارات والصحفيون والأجانب وشباب بسلاح والكاكي وحطام المباني والسيارات. هذا الزمن صعب جدا، فرغم أن الرئيس في معتقلة، إلا أن وجهاء السياسة وبعض الوزراء، بل معظمهم، ما زالوا يتسابقون على الشاشات والميكروفونات. فهذا يقول وآخر يشجب حتى امتلأ شريط التسجيل فقالت لورا باعتذار لطيف: انتهى الوقت، شكرا جزيلا. الPBC من أمام مقر الرئيس في رام الله. وأوقفت المسجل والكاميرا فتبعها مجيد وأخذ يناقش. رأتهما من بعيد وهما يؤشران ويلوحان ويهزان برأسيهما ثم يفترقان وهما ما زالا يهزان الأيدي بعنف وغضب. وجاءت لورا وهي تلهث. وحين وصلت أخذت تنعف: مجنون، مجنون، والله مجنون! وبدأت تبكي.

هذا المشهد كم تكرر! مجيد يريد أن يحتكرها، أو بالأحرى، يجعلها أداة من أدواته. قابلي هذا ولا تقابلي ذاك واسمعي من هذا ولا تسمعي من ذاك وهذا بلا عقل وذاك بلا فكر ولا يفهم، وأنا أفهم، وأنا أعرف، وأنا أشتغل من الداخل وأنت مراقبة بعيدة ولا تعرفين بما يجري تحت الأنفاق. في البداية كانت تسايره حتى تمادى وبدأت تمل من حصاره وأخذت تتساءل عن حقيقة مشاعره نحوها وحقيقة مشاعرها نحوه. أهذا هو الوضع في السياسة ومع الساسة ورجال الحكم؟ ونحن النساء ماذا نعرف؟ ماذا نحس وما نفعل؟ لا شيء كثير، قالت سعاد، بالنسبة لهم نحن ديكور لا أكثر. وتذكرت تلك الأيام، أيام كانت كالطفلة تقتات الوهم. وكانت عيناه، وكانت شفتاه، وكان صوته وتلك الكلمات وحنين الشعر والقضية ووهج الإحساس. لكن الآن، ما بقي الآن؟ لم يبق لها إلا الذكرى وصورة عينيه الفاهمتين الحانيتين وصدى الكلمات المشحونة وحنين الشعر. كان حنونا، كان رقيقا، لكن للحظات ثم يقسو، ويعود المقاتل إلى نفسه وينسحب العاشق والمعشوق. وتمر الشهور ولا يسأل، ثم يذكر، هكذا، فجأة، ويعود يتلفن كالسابق ويقول لها بلهجة عتاب وتساؤل: أين أنت؟ وكأنها المسؤولة عن غيابه وعن حرمانه وحرمانها هي من رفقته ودفء حضوره. وأخيرا قال لها كلمات جرحتها فأعلنت الثورة والعصيان، فانقطع الخيط. قالت لها تلك المرأة، زوجة قائد: أنا لا أراه إلا صدفة، بضع لحظات، ثم أنساه وينساني ولا أتذكر إلا أني زوجة رجل في مكان ما، وأني مرتبطة ومربوطة، وأني أعيش لشبح رجل، أم الأولاد، وفاتحة البيت. هذا قدرنا نحن النساء مع القادة ومع التنظيم. هذا قدرنا! همست سعاد: ليس قدري. أنا لست الأم ولا الزوجة. لست المرتبطة المربوطة بخيال رجل أو ظل رجل. إن كان القائد شبح رجل، فلماذا أكون؟ وانقطع الخيط.

وها هو الآن يمر هناك بين القادة والصحفيين فتحس حنينها يتجدد ونياط القلب تعزف أغنية مبتورة فينساب الحزن. وأخذت تتصور ما سيقول حين يراها بعد كل السنين. ثلاث سنوات، أربعة، خمسة، فقدت العد حين انغمست في بحث تائه عن معنى وعن حب كبير مثل فلسطين. ولم تجد إلا رجالا أشباه رجال. وظل هو في محورها ليس حبيبا، وليس قريبا، لكنه مثال لرجل حقيقي صامد مثل التمثال لا يتأثر بانهمار المطر واختلاف الجو.

56

رآها في الساحة بين الناس فلم يقترب. التفت للحظة ثم مشى وصعد الدرجات بين الحراس ورجال الأمن وكانت تخفق وتهمس وتقول: سيلتفت الآن، سيلتفت الآن! إن لم يلتفت يعني نسيني وإن التفت يعني ما زال يذكرني ويذكر ما كان. وحين وصل آخر درجة التفت ببطء لومضة صغيرة ورآها هناك تنظر إليه كالمشدوهة وهي تحملق. وعاد يلتفت بعيدا عنها ومشى خطوات للداخل ثم اختفى بين الحراس.

حين أحبته قبل سنين كانت مملوءة بالأحلام والعواطف، وجاء هو ليفجرها. شيء ما في شحنة عينيه ورنة صوته سيال يترقرق كخرير الماء يناديها فاندفعت إليه. بكل الإحساس وحنين الروح والعواطف وجنوح الجسدإلى شهوة فيها اندفاع لا تقوى على إيقافه، اندفعت إليه. ذكرها بكل المنسيات. بالبلد المنقسمة إلى نصفين، وهوية منقسمة إلى نصفين، وروح كطيارة في طرف الخيط تبحث عن أفق يناديها حتى تمخر. وكان اللقاء مثل الطوفان، فيضان الحس والشوق والحنان ومزيج الحزن واللهفة، وفرح طفولي غامر، ونغمة جميلة وصوت آسر. هل كان الحب وهم اللحظة أم كان حقيقة في واقع لا هي في الضفة وهو بعيد في أي مكان في المنفى حيث تنقل بين الجبهات والهزائم وقتال الموت. إن كانت دمشق أو بيروت تونس، كلها أسماء لعواصم كانت منفى، كلها هجران وتمزق وبعاد القرب. والآن البعيد أضحى قريبا لكنه ظل بعيدا لأنه هناك

في السلطة وهي هنا وسط الساحة وجموع الناس، تنتظر الآتي ولا يأتي، تنتظر الحل ولا يأتي، تنتظر الحب ولا يأتي، وتنتظر أن يصحو ويقول لها، ويقول لهم، أين وصلنا وكيف وصلنا وما هو السبيل لتحقيق الوصول.

التفت بعيدا وتركها وسط الساحة فأحست بضياع كالسابق وخوار البحث. أرادت أن تركض في الساحة وتصرخ خلفه وتقول له ما لم يسمعه أول مرة في ذاك الوقت. تقول له أنت مجنون مثلي أنا، لست بأفضل. أنت في البحث لم تلقني وأنا لقيتك وأضعتك مثل فلسطين. هل أنت لي؟ هل أنت لها؟ لو كنت لها لقلنا آمين وجد نفسه، لقلنا أعطته وأعطاها. أما أن تسرح في الدنيا وتنأى عني وتنأى عنها وتظل تدور مثل النحلة لكن بلا عسل ولا زهرة فهذا إهدار، هلالهيار، هذا تدهور!

مرت لورا وقالت: مجنون! يحلم بوكيل لوزارة ثم وزارة! أرأيت قيادة في الدنيا مثل هذه؟ وهو مطلوب، وهو محاصر، وهو المحبوس خلف الجدارن والقناصة يحلم بوزارة وسفارة!

همست بهمّ: هذا تعويض.

صاحت لورا: هذا تعويض عن ماذا؟ عن نسف البيوت؟ عن خراب المدن؟ عن صف طويل من الشهداء يصل جهنم؟ اسمعي هذا.

وأدارت المسجل وأسمعتها كلمات كبيرة وصغيرة لرجال كبار ورجال صغار ورجال بلا وزن ولا قيمة في هذا الركام والمستنقع ونفق يمتد بلا نهاية، طريق مسدود. نحل بلا عسل ولا خلية، عش دبابير.

57

قال: اقتربي. ونفخ الكلمة في جو الصمت فتلاشت وابتعدت عنه.

كانت تظن أن التاريخ انتهى أجله. وفجأة انطلق مثل المارد، فراش أبيض، قصاصات ورق، ثلج ينهلّ ويغمرها بشك وخوف وتشاؤم. وقالت: ضعنا، ضعنا يا حب وضيّعنا. أعطيتك قلبي وخيالي. جعلتك إحساسي وشعوري. كنت الرجل، كنت الساحر، كنت الآسر. ثم استهنت بإحساسي فحقدت عليك. أتكون الحب وتكون القيد؟ أتكون المحرر والنخاس؟ وأنا أكون مثل النعجة، ظل ممسوخ، نزوة صغيرة، رقم مفرغ من مضمونه، وأعيش لأتلقى ضرباتك وإهاناتك وأقول فلسطين عاشت حرة وأنا المرأة ارسخ في الذل ولا أقوى على رد الظلم وأنت الظالم، أنت القاسي، وما كنت تكون جلادي لولا خضوعي وما كنت عليه. أنا لن أخضع. فانفرط العقد.

والآن تراه في هذا الحال، نغم مشروخ، قلب تائه، وظلال البلد المهزومة تظلل عينيه. والطيارات، والدبابات، وشوارع مطحونة ومتاريس، وشعب تائه، وجموع مشاة في الطرقات وعلى الحاجز. ونافذة المكتب من خلفه تظهر رام الله والبيرة وحدود القدس. نظرت إليه، كان بعيدا، يغرق في الصمت والتأمل وينتظر الساعة أن تدنو حتى يخرج من هذا الكهف. ظلام الضفة وحدود القدس وجموع مشاة وطوابير على الحاجز، وهو العاجز أن يصل هناك ويتحرر ويخترق الحاجز والممنوع.

جلست قربه وألقت نظرة من نافذته ورأت أطراف الصنوبر كشموع المهد والقيامة وتحت الصنوبر في الشارع، ذاك الشارع، اثر الشارع، تراب الشارع والجرافات وأثلام الحفر والبلاعات، وهدم وردم ومواسير تنزف ماء وركام الحرب. وتذكرت تلك الأيام، أيام مشاعرها الأولى ودوار الحب. أيام كانت كفراشة تهفو مع الريح. وكانت عيناه كالنرجس والكشافات تكشف ما تحت ملابسها وما تحت العظم. لماذا الأشياء تتغير حين نرفرف ويصاب القلب؟! لماذا نتوهم في أن الدنيا جمال آسر؟ لماذا نئن ونتوجع من ذوب العشق ومن الأشياء الصغيرة، همسة، كلمة، نغمة، إشارة وكل الأشياء الرقيقة

حتى في الحرب. حتى في الحرب ودمار المدن وخراب البيوت ينطلق الحب مثل الزهرة، زهرة صبار بين الشوك. وتغدو أعمق معنى وأبعد أثرا، أحلى وأغنى وتؤلم أكثر. لماذا نغدو مثل الأطفال بلا رادع يردع نزوات مجنونة ودوار العقل؟! لماذا لماذا نسرح؟ لماذا نخفق ونناجي الريح؟! لكن الأرض، سحبات الأرض حين نهبط من ذاك الحلم! أية مأساة! أية غصة، شقوق عميقة في عمق الصدر تنفث نيرانا محمومة ونزيف القلب. يا جرح الأمس، يا جرح اليوم، آه يا بلدي.

قالت:

– تريد أن نرجع ونعود لزمن ولّى بنا؟ تريد أن نحيا بقايانا وبقايا العمر؟ مع كل الجراح وشظايا الحرب وحطام الروح المندثرة في بلد تقتات على الأوهام أهناك أمل؟ أهناك طريق؟

قال الطريق اقرب منا. نحن الطريق.

التفتت إليه ورأت عينيه بلا إقناع. كانت في الماضي، قبل سنين، تغفو وتنام على أمل في أن تلقاه، في أن يجيء ويحضنها ويضيء ليالي وحشتها ويبعث فيها إحساس الحياة. كان مخزون عواطفها مثل البركان، كانت أصغر. وكانت بحاجة لذاك الحب. لكن الخوف، وحدود الناس، وخوفه هو من أن يفقد ما اعتاد عليه، ثم حدوده، وصراع النفس بين الممنوع والمحرم واحتقار الجنس. شك مزروع في نفسه، في عمق العمق، ربما يدريه، أو لا يدريه، أن المرأة مجرد نزوة، حس مطلق، فتنة وإغراء وجنية تسحب أعصاب رجولته وتلقي به في ماء ضحل. المرأة نار، المرأة ظل، المرأة فرج لا أكثر وهو الخليل اقتربي فكساها الرعب من أن تعود إلى الماضي وما كان عليه ونظرة قبيحة للحب والجنس وجسد المرأة وجسده هو وما يهفو إليه ثم يهرب من تبعاته ويغدو كالتائه لا يقوى على فك اللغز، لغز المرأة، لغز الإحساس والحب النظيف والصداقة والفهم الحر.

هل تهفو إليه؟ هل تحضنه؟ هل تقوى عليه وعلى حزنه واختلاطه وفوضى الإحساس وتربيته وما هو مزروع في الداخل، في عمق العمق؟ هي لا تعرف. هو لا يعرف. ذاك هو اللغز.

58

رجعت لنابلس. مشت الطرقات الملتوية في شعاب الجبل بين الأشجار وأجمات الشوك. كان الحصار حول نابلس ما زال شديدا كالعادة. نابلس بالذات، أم التاريخ والهوية، كانت ما زالت تعاني هجمات الغزو كل ليلة، بل كل نهار، غزو وفتك واقتحامات تترك آثارا وحشية في المباني وحياة الناس. لكن لا بد من العودة فالوالد عاد، فكوا أسره، تبادل أسرى، فاختصروا الحكم، وأبقوا من بقي لديه نفس وبقايا شباب. أما أبوها فبات عجوزا قبل أوانه. سنوات السجن أكلت عمره وهدت جسمه وبات عليلا. قرحة في المعدة والأمعاء، أزمة مزمنة في الرئتين، التهاب المفاصل والغضاريف وعدد لا يحصى من البواسير.

قالت لها أمها بشرود: خليه نايم، أوعي تصحيه، مسكين ما نام إلا بإبرة، خليه يرتاح.

جلست في المطبخ تتأمل وتحاول الوصول إلي نتيجة. كان قد عرض عليها الزواج فقالت إصبر، دعني أفكر وأشاور بالموضوع. قال السنين تهرب منا والعمر يمر. قالت زواجنا لن يصمد من غير أساس. أتريد زواجا أم نزوة؟ نظر اليها بحزن وقلق فأحست بقلبها يتمزق. كانت تتمنى أن تبقى في رام الله وتعيش معه وتموت معه وتعطيه ما تملك من إحساس وقدرة الفهم والتصدي لعش الدبابير وأمثال مجيد. أمثال مجيد أكلوا الساحة، ملأوا الشاشات والمناصب فانفرط الناس وانفلت الأمن واختل الوضع أكثر من قبل. فالمعضلة أيضا في البنية ونظام الحكم والفصائل وعادات الناس. فوضى في الحكم، كبت في

سوء في التربية والتوزيع والعدالة وحقوق الناس، وقمع وضرب وتجبر من إسرائيل. كيف تبني دولة ذكية من هذا الجهل؟ تتخلص من الأمراض والجسم ضعيف؟ كيف تقاوم آفات القوة والاستيطان بشعب منخور؟ قال لها في آخر لقاء: سنكون نعمل معا ونقاوم معا ونبني المنهار. نظرت اليه ورأت عجزه أمام الصراعات والتفسخ وجبال الشك. ها نحن نقاوم اسرائيل خلفها أميركا وعلوم الغرب بشعب مضروب في بنيته وقيادته وحضارته ولقمة عيشه. فقر وجهل وتمزق وارتداد الناس إلى بانتظار الحل ان ينزل من عند الله. والآن نقاوم من هربوا من دنيانا وجاءونا ببدع وخرافات تودي بالعقل وتسحق ما بقي من المنطق وتزيد الهوة وتسحبنا لعصور الكهف. ردة للخلف مليون سنة، تركة عقيمة، نظام منخور من أساسه، فكيف تبني يهدم؟ قال لها كل هذا وقالت آمين، لكنها حين احتاجته لأمر ما، اختفى فجأة، غاب عن السمع والرؤية ولم تجده في أي حتى تلفونه لا يستجيب ، ولا الخلوي. وتذكرت تلك المرأة، زوجة القائد وما قالته وما نفثته وما احتملته. فهل تحتمل أن امرأة لشبح رجل؟

قال لها أبوها بوضوح،

– يا بنتي الواحدة ما الها إلا زوجها. الستر مطلوب وانت كبرت ولازم لك عريس وبيت وأولاد ورجل يرعاك ويرعى حياتك. وهذا الرجل ولا كل الرجال، دغري وشريف وقلبه نظيف وله مستقبل. قولي له هذا على لساني. أنا يسعدني ويشرفني اني أناسب واحد مثله. أضربي تلفون وقولي موافق. يا الله، مبروك.

همست أمها بصوت خافت،

– استني شوي. لازم نحكي.

سمعها الأب فقال بغلظة،

– لازم تحكوا؟ مع مين وعن شو؟ يا أم سعيد البنت كبرت. وانت وأنا يا الله الدايم. وولادك راحوا للغربة وما حدا سائل. بدك البنت تقعد وتبور وتصير عانس؟

البنت تبور وتصير عانس! اذن هكذا! هذا هو الوصف: عانس ومستورة وظل رجل. حتى أبوها، خريج السجن المتقدم يقول هذا، ماذا عن الناس؟

غمزتها الأم خلف ظهره وقالت همسا: بعدين نحكي. وأشارت لها إشارة خفية كي تتبعها، فخرجت من عنده وهو يقول: هاتوا الدوا، اعملوا لي شاي، وسكروا الشباك الهولبارد.

أخذتها وصعدت بها للسطح. نابلس ما زالت كعادتها. مداخن أفران، قباب أثرية وحمامات، ومآذن مرتفعة وقناطر لقصور الأمس. أين وصلنا! هذا الماضي، وهذا الحاضر، ماذا عن الغد؟

قالت الأم،

– شوفي يا بنتي، إذا كنت ناوية تعيشي معه مثل ما عشت أنا مع أبوك، روحي له اليوم قبل بكره لأن الزواج لا بد منه، ستر وولاد وأمومة وظل الرجل ولا ظل الحيط. لكن اذا ناوية تعيشي حياة، حياتك انت، حياة بلا حسرة وبال مشغول، شوفي لك واحد مش مربوط. هذا الرجل زي أبوك ويمكن أمر لأنه قائد. وأوعي تقولي لي بتحبيه لأن الحب ممكن يخدع ويخلي الواحدة تشوف الشوك ورد وريحان. أوعي، أوعي.

قالت همسا،

- طيب وقلبي؟

همست الأم بحزم وثقة،

- قوي قلبك. القلب الضعيف ممكن يضعف وتصير الواحدة ما بتسوى إلا دموعها. ناوية تعيشي بدموع الخوف؟ ناوية تعيشي بدموع الكبت؟ ناوية تعيشي وأذنك عالباب خايفة من العسكر والثوار ييجوا ياخدوه بظلام الليل وانت وحيدة مع كوم ولاد ومسؤولية وقلة وتعذيب وحيرة وغيرة وجسمك ينهد من الأعباء ومن الوحشة وانت شابة وعندك إحساس ومشاعر وبكره برميك ويظل داير بين الثكنات والاجتماعات ولما تناديه يقول مشغول، مسؤولية، هم فلسطين، أوامر تنظيم، أنا مش فاضي. طيب وانت؟ وقلبك وجسمك واحتياجاتك؟ وولاده هو مين يرعاهم؟ وبيته وأكله واحتياجاته؟ يعني بصريح العبارة، أنا من رأيي تعيدي التفكير وكوني قوية. ما تخلي قلبك يهرست بحيرة واستغراق،

- طيب وعقلي!

نظرت اليها بتأمل وهزت رأسها بحزن وأسف ومشت خطوات نحو الحافة ووقفت هناك ولزمت الصمت.

المسألة ليست عواطف وحب وأحلام، أعمق من ذاك، فهو بالنسبة لها مزيج الإحساس والعقل والفكر والعواطف. والمسألة ليست بالماضي حين أحبته وهي صغيرة، ولا بالحاضر وهي تحبه في هذا الحصار، لكن مستقبل ما ستكون مع أي رجل. أمن المعقول أن تتزوج من رجل مفرغ من الأحلام والاهتمامات والقضية؟ أمن المعقول أن تتزوج من رجل ثابت على الأرض بلا أجنحة وبلا أعباء إلا ذاته؟ هي بالتحديد، نوعها هي، فكرها هي، وثقافتها، وتاريخ أبيها وما عاشت في أجوائه، ثم الواقع وما نحن فيه وما نغرق في أوحاله. شر الهزيمة وهذا الفقر وهذا الدمار له وحده؟ وماذا عنها؟ ان كان الرجل لا يتحرك من أجل الناس ومن أجل البلد والقضية، أهو فعلا رجل؟ وهل يستحق أن تحبه وتعيش معه؟

مشت ببطء ووقفت بسكون خلف ظهر الأم ورأت السماء عند المغرب مضمخة بدم الشهداء والضحايا ودماء نابلس. وقالت نابلس هي مثلي أنا بحاجة لرجل، رجل حقيقي قادر أن يعطيها وأن يغنيهاويجعل دنياها لها معنى وعمق وأمل. ولكن، لكن! وتذكرت والدها وهو يقول: لازم لك عريس يرعاك ويرعى حياتك. ونسي الوالد أن الزواج من أمثاله ليس رعاية، بل عبء كبير ووحشة كبيرة وخوف وحرمان. إن كان الوالد قد نسي أو تناسى، فهل تنسى هي؟ من رباها؟ من علمها؟ من حمل هموم كل العيله وهم المشغل وهم الجيران والاقتحامات ومطبخ الحوش وأبن غزة؟ وحتى هذا، هذا الوالد، خريج السجن والمناضل، من حمل همه وهم السجن والمحامي ومرضه ودواءه وشفاءه؟ وكذا الأبناء رغم كبرهم، وقد أضحوا رجالا بشوارب، ما زالوا يرسلون لها المراسيل والمطالب: يمه الأولاد نخروا عظمي، عندك قرشين وأسددهم إذا الله فتحها علينا؟ والغريب في الأمر أن باب الله دوما مغلق، وإذا انفتح فليس علينا، ويقول الأب الواحده ما لها الا زوجها وانت بحاجة لرجل يرعاك ويرعى حياتك ونسي الوالد أن الراعي كان امرأته وهو غائب، وهو في السجن، وهو يناضل . نسي الوالد أن الراعي كان امرأته، لكن بصمت، وبدون دوي وشعارات وبيانات، بلا أوسمة، بدون مشاعل.

لمحت أحمد عند الدوار. رأته ينزل من الأمبولانس بسترته البيضاء والصليبالأحمر والهلال فوق صدره. نادته، مشى نحوها فامتدت الأيدي من الدكاكين والمتاجر تسلم عليه. هذا يقول "فنجان قهوة"، وآخر يقول "كباية شاي" وثالث يقول "صحن كنافة." ورأته يسلم مثل الكبار برفع اليد نحو رأسه ويقول بجدية ودون ابتسام: "نشرب قهوتكم بالأفراح."

قالت له وهي تحييه،

- ما شاء الله، صار لك شعبية ومعارف!

هز رأسه وقال بشرود،

- هذا الإسعاف.

نظرت اليه لتستفسر فأوضح باقتضاب،

- وقت الإجتياح أسعفت الناس وصرت أعرفهم.

ابتسمت مشجعة،

- قصدك عرفوك.

هز رأسه. سألت باهتمام، إذ كانت قد سمعت من أمها عن أحواله،

- طيب وبعدين؟

لم يجبها بل ظل يمشي بلا تحديد لوجهة سيره. فعادت تسأل بقلق وفضول،

- طيب وبعدين؟ والدراسة؟ وأمك وأبوك؟

لم يجبها، فمدت يدها وشدت بذراعه واعترضته ووقفت أمامه تحدق فيه وهو ينظر فوق كتفها لأبعد منها، ثم توقف. سألت بإلحاح،

- كيف مدرستك؟ وأمك وأبوك؟

لم يجبها وظل ينظر فوق كتفها. فعادت تلح،

- مع مين ساكن؟

التفت بعيدا ولزم الصمت. فشدت بذراعه وسحبته نحو مقعد خشبي طويل على طرف الرصيف وقالت "أقعد." فظل واقفا ينظر حوله مثل المذهول. شدته فنزل بارتطام وجمود وظل صامتا لا يتحرك.

قالت بحنان،

- إسمع يا أحمد يا حبيبي، انت صرت كبير.

وقعت كلمة "حبيبي" على أذنيه كما المطرقة فالتفت اليها يحدجها كما لو كان يعاتبها ويؤنبها. فاستدركت وقالت بتراجع،

- طيب، طيب، انت صرت كبير.

ونظرت اليه وإلى شكله ورأته أكبر من سنه طولا وعرضا وربما فهما. لكن مدرسته؟ وأمه وأبوه؟ سألت بأسف،

- معقول تظل من غير تعليم؟

استدار برأسه يتهرب. فشدت بذراعه وألحت،

- من غير تعليم؟

لم يجبها.

- أبوك موافق؟

لم يجبها. فعادت تلح،

- تطلع جاهل؟

استدار اليها ثانية يحدق فيها فقالت موضحة بتأن،

- من غير تعليم تطلع جاهل.

قال بجفاء،

- أنا في الإسعاف.

- بس انت صغير! كم سنة عمرك؟

همس بتذمر،

- مالك ومالي!

- طبعا مالي، أنا زي أختك، أنا زي مجيد ويمكن أقرب.

هز رأسه عدة هزات وتمتم بشرود،

- يمكن أقرب.

انتبهت للحركة والتعليق فتذكرت ما قيل لها أن مجيد ماعاد يسأل عن أهله وأنه مشغول بالمنصب والتلفزيون والوصول السريع، فقالت بأسف،

- طيب وأبوك؟

هز كتفيه هزة صغيرة فهمت منها أن الأوضاع ليست حسنة.

- أبوك موافق؟

- موافق على شو؟

- على هذا الحال ... من غير مدرسة وبدون تعليم وبعيد عن أهلك وعن البيت وناسي حالك!

قال ببرود،

- لأ مش ناسي.

- طبعا ناسي. معقول تعيش زي العمال؟ معقول تعيش كل يوم في بيت؟ معقول تظل داير سرحان كل يوم في مكان ومن غير تحديد لوجهة سيرك ومن غير تخطيط للمستقبل؟

سأل بسخرية سوداء،

- المستقبل؟!

- طبعا يا حبيبي المستقبل. معقول تعيش بلا مستقبل؟

استفزته كلمة "حبيبي" واستفزته كلمة "مستقبل" فقال بجفاف،

- أي مستقبل؟ مش شايفة الناس؟ شوفي اللي هناك.

نظرت هناك ورأت العمال وعشرات الشباب، شباب خريجون، شباب جامعات، رجال كبار ورجال صغار وكذلك أولاد بعمر الأطفال يجلسون فرادى وجماعات حول الدوار بانتظار عمل، وبدون أمل بإيجاد عمل، فقط يجلسون، وبدون أمل. لم تعلق، فقال مستطردا،

- على الأقل عندي شغلة أشتغل فيها، بس اللي هناك!

وصمت لحظة وعاد يفكر وينظر لبعيد، لبعيد بعيد،

- لو كنت هناك، أنا وانت هناك، ممكن نحكي عن مستقبل؟

ووقف فجأة، فسألت بقلق،

- على وين رايح؟

همس بذهول،

- أنا عندي شغل.

ورأته يغيب بين العمال.

61

بين العمال عاش حياته. ما كانوا عمالا ، بل أجراء. كانوا يعملون في البيارات في قلقيلية ثم انضربوا. السور الرهيب خطف اللقمة وقطع الأرزاق. حبس السكان داخل قفص فجاع الأهلون ودبت فوضى. ثار من ثار وهرب من هرب وبعض الشبان انضموا لحماس كي ينتقموا فانفجر باص وانطلق صاروخ على مستوطنة كريات شيبع فاشتد الحصار ونزح الألوف من العمال ولجأوا لنابلس. بعضهم عاشوا في الجوامع، وآخرون عاشوا في التسويات والتقعيدات، والمحظوظون ممن وجدوا أعمال مياومة أو بالقطعة عاشوا في الحسبة أو المنجرة أو في المعمل. أما أحمد، فقد سكن مع طالبين من قلقيلية كانا يأخذانه بعد ظهر كل خميس الى الجامعة ليحضر ندوات واجتماعات ويقرأ الكتب والمنشورات فيحس بدنياه اتسعت وأنه كبر وأصبح رجلا. الإجتياح هز كيانه وما عاد يطيق أن يعامل كولد قاصر. فها هو الآن وقد نبت الزغب حول ذقنه وفوق شفتيه واستطالت قامته حتى كادت أن تصل السقف واشتد ساعده لكثرة ما حمل من الأثقال والمصابين وجثث القتلى بات يحس أنه رجل، رجل كبير، رجل مسؤول، رجل قادر. ولهذا، حين عاد إلى الدار وبادره أبوه بأسئلته: رايح وين وجاي منين، عاد إلى العمل في الهلال والصليب ولبس الأبيض وأطلق الزغب في لحيته ليبدو أكبر وبدأ يتردد على الجامع ويقرأ ما تيسر من القرآن.

قال له شيخ الجامع أن النبي حين سألوه عن أحب الناس إلى قلبه قال هي الأم، ثم الأم، ثم الأم، ثم الوالد قال أحمد أن الطلبة في الإجتماع قالوا "فلسطين." قال فلسطين هي قلب الأم. فلسطين الأم وقلب الأم وصدر الأم ورحم الأم. أهناك أم بدون فلسطين؟ بالطبع لا. إذن فلسطين هي أم الأم. وقد قال النبي، عليك بأمك، وأمك، وأمك، ثم بأبيك. هذا ما قال، فما قولك؟ قال فلسطين هي أم الأم. فمسح جبهته بماء زمزم وقال له أنت مجاهد، فأحس بقامته تعلو واتسع الكون.

لكن الطلبة قالوا له أن سور العزل سيمر الآنفي بلدتكم عين المرجان فلم يصدق. إذ ان الجدار ما زال هناك على أرض الغير وليس علينا. الجدار الرهيب مثل السفلس، مثل السرطان وعقم الرجال، دوما بعيد، دوما يصاب به الآخرون وليس أنا، ولهذا تأخر في التصديق مثل كل الناس، وحين صدق، كان الجدار بامتداد الأفق وسور الصين. فأسرع يركض، وحين وصل كان الإشتباك بين المتظاهرين وقوات الجيش قد تبعثر ولم يبق من دعاة السلام إلا قلة يقرفصون بإحباط على الهضبة يلملمون البوسترات والمنشورات ويستعدون لمظاهرة جديدة واشتباك جديد. فوقف هناك ينظر حوله ورأى أسراب الفلاحين يجلسون بصبر واستجداء حول الأجانب ودعاة السلام، ورأى كهنة وبقايا يسار وخورى اللاتين، ورأى ميرا.

ميرا كبرت. طالت واستدارت وباتت أحلى، أحلى من قبل بعشر مرات، فدق قلبه. ما كان رآها منذ سنتين أو ثلاثة وربما أكثر، وحين رآها في ذاك الليل بعد القطة كانت بفستان نوم قصير وله كشكش. أما الآن فهي بالجينز وبلا ذيل فرس، حلقت شعرها كالفروة، فروة قطة، وبدت أجمل. أهناك حب يبقى للدهر؟ أخذ يفكر وهو يحس بخفقان القلب والدم يرتفع رأسه. استدار ومشى بضع خطوات وجلس على صخرة ليتأمل. أهناك حب يبقى للدهر؟ وهل هذا حب أم لعنة؟ وهل هذا

الحب مسموح به؟ وماذا يقول شيخ الجامع؟ وماذا يقول طلبة نابلس والمهجرون من قلقيلية؟ ثم تذكر ذاك الإحساس حين غدرت به وسرقت عنبر. ثم كان ما كان منذ ذاك الحين من سجن وعذاب واجتياحات واغتراب أخيه واهتزاز أبيه. أبوه عاد مثل السابق، وكذلك مجيد، ولا حتى هو، فلماذا القلب يدق يدق؟! وهل هذا حب أم لعنة؟

اقترب أبوه وقال له "يا الله عالبيت، تعال ساعدنا." فقال له أن اليسار ودعاة السلام يخططون لهجوم جديد على الجرافات. الجرافات؟ الجرافات؟ ! وابتسم بسخرية مرة. الجرافات؟ الجرافات؟ ! ظل يردد مثل المسطول. . . الجرافات!! ومشى قبله فمشى خلفه. ثم استدار ورأى ميرا تحمل لافتة عبرية وعليهاصورة الجدار فهمس: معقول؟! يمكن، ممكن. وأراد فعلا أن يكون "يمكن وممكن،" لأن قلبه ما زال يدق. لكنه حين وصل البيت ورأى أمه نسى ميرا ونسي الممكن لأن ما رآه أكبر حجما. رأى أمه وبعض الجارات يجلسن فوق أكوام الصناديق والكرتونات. كرتونة زجاج، كرتونة كتب، كرتونة ملاعق وطناجر، وكرتونة صور. وبدت الغرف عارية من كل المعلقات إلا البوستر، وكذا الأسرة بلا أغطية.

أمه قالت أن الجدار سيمر هنا فوق هذا البيت، وأبوهقال أن الجدار سيمر هنا فوق جسده. لكنه حين جد الجد وجيء بالبلدوزرات والجرافات ورصاص الجيش خرج من البيت وهو ينزف. وحين زاره آخر مرة كان يجلس مع أصحابه في المخيم يشرب الشاي بالميرمية ويقول بيأس "هاي آخرتها! روح قول لأخوك." لكنه حين ذهب لأخيه التفت مجيد حوله بقلق وقال بسرعة: أنا عندي اجتماع، استناني. ووقف في الساحة ينتظره فرآه يتحدث للتلفزيون ويقول الجدار، ويقول انفجار، ويقول انتحار ولم يقل الناس، لأن الناس باتوا بعيدين خلف الحاجز وجدار السلطة المحبوسة وهو مطارد. ولهذا ظل يقول الجدار ونسي أحمد، فانسحب أحمد بتباطؤ ثم بسرعة وأيقن ساعتها أن أخاه ما عاد لهم، وأن الوالد سيظل هناك في المخيم، وسيموت هناك، كما مات الألوف وماتت ميرا.

ميرا لم تمت، لكن قلبه بدأ يموت، وكذا عقله. ولهذا حين رأته سعاد يمشي بذهول عند الدوار كان يتمتم: جدار، انفجار، جدار، انتحار ، بكره تولّع.

مر به خوري اللاتين ورآه يقف على الهضبة وينظر للغرب والأمبولانس خلف ظهره. إقترب منه وقال بألفة: آ يا أحمد، سمعنا كثير عن أخبارك. سأل بخجل: أخبار مليحة أو عاطلة؟ مليحة، مليحة. انت شاب مليح، عقلك مليح، وقلبك مليح، وشكلك مليح مثل قلبك، أوعى تخلي الدنيا البشعة تبشّع قلبك.

هز رأسه وعلق بوجوم: آ يا أبونا. لكنه داخل قلبه أحس بهبوط. كان ما زال يتابعها بعدسة كاميرا، كاميرا ديجيتال. كانت قد كفت عن اللعب مثل الأطفال وصارت أكبر. رآها بالجينز، ثم بالشورت، ثم بمايوه مثل السمكة ونمش على الظهر. وهو يراقبها يشعر بالخوف، ثم بالحزن، ثم بفرح وهي تضحك وتعبث بالماء، ثم بالخوف مرة أخرى. ورأى الشباب من حولها كفراش الزهر، وهي زهرة. ثم باص كبير لدعاة السلام تحت الهضبة وهي معهم، ثم المايوه ونمش في الظهر، ثم الساقين من خلال المايوه.

قال الخوري،

– فاكر يا أحمد وانت صغير كيف كنت تلعب بمسبحتي وأغنيلك؟

همهم بخجل وهز رأسه،

- فاكر، فاكر.

جلس بجانبه على الصخرة ومد نظره عبر الأفق فوق القرميد وسياج المستوطنةوحدود الجدار وقال بثقة،

- أنا متأكد ان الإنسان أحسنبكثير من أعماله.

لم يعلق، بل مرت بذاكرته كل الأعمال وكل الأقوال والجرافات وعيسى ومجيد، ثم ميرا. هل ميرا أحسن من الإستيطان؟ هل عيسى أحسن من الخيانة؟ ومجيد أحسن من السلطة؟ من يصدق؟

قال الخوري،

- أنا كنت جاييلك أحكي معك.

نظر من زاوية أنفه ولم يعلق. إذن هكذا، مروره بالمكان ليس صدفة. أرسله أبوه.

قال بجفاء،

- أبوي بعثك؟

ابتسم الخوري وقال بصدق،

- طول عمرك شاطر وبتحزر. طبعا يا أحمد أبوك قلقان، خايف عليك. من حق الأب يقلق ويخاف. صح والا لأ؟

التفت إلى الخوري وقال بشك،

- وانت خايف؟

ارتبك الخوري ولم يعرف بم يجيبه. فإن قال "خايف" فهو بذلك يناقض نفسه وأقواله وما يدعو اليه ويعظبه. وإن قال "مش خايف" فهذا يعني أنه لا يحس بهموم الناس وهموم الحرب والخوف والرعب من القتلة وفنونالقتل. فأول على آخر هو من الناس، ودير اللاتين مثل دور الناس، وتلك الصواريخ حين تنزل لا تميز بين دير ودار، فلم يخاف؟ طبعا يخاف، ولكن أيقول؟ ولمن يقول؟ لمراهق تاه عن الواقع ونسي نفسه؟ والخوف الآن، كما قال أبوه، أن يقوم الولد بعمل طائش.

التفت إلى الخوري مواجهة وعاد يسأل،

- وانت يا أبونا كمان خايف؟

ابتسم بصبر،

- أنا خايف عليك.

- وعلى حالك؟

- طبعا خايف مثل كل الناس، هذا طبيعي.

- طب والمسيح ما كان خايف؟

- من مين يخاف؟

- من اليهود ومن الصليب ومنالتعذيب ومن قول الحق.

- طبعا ما خاف.

ابتسم بخبث ورمى حجرا كان بيده مسافة أمتار فتدحرج الحجر ووصل الحافة عندسياج المستوطنة وحدود الجدار. فانتبه الخوري وقال بخوف،

- بس المسيح ما كان قاتل.

- ومين القاتل؟

أحس أنه وقع في الفخ. فبدلا من أن يقوم بدور المرشد وقع في الفخ ووجد نفسه يدافع عنأقواله وردات فعل المسيح وفعاله. هل خاف المسيح؟ طبعا ما خاف ولهذا استمر وفجرثورة وتبعه الناس، فلماذا إذن ينتظر العكس؟ ولماذا إذن يخاف من القتل؟ وهل هذا الولد قد يصل القتل؟

قال بتفكير،

- انت مش كنت تحب الرسم؟ وين راح الرسم؟

ابتسم الولد وقال بوجوم،

- ذهب مع الريح.

- لأ مش ممكن. كل الأشياء ممكن تروح إلا الموهبة وإحساس الفن، وانت فنان، انت موهوب. أنا كنت أقول هذا الولد بطلع فنان، وين راح الفن؟

قال بإصرار،

- ذهب مع الريح.

- لأ مش ممكن، الفن ما بروح، ممكن ينام، ممكن يغفى، وممكن يصدّي مثل السكين، لكن بعدين بشوية جلخ وصبر وتمرين برجع يلمع. انت وين وصلت؟

- أنا بالإسعاف.

- مفهوم، مفهوم، بس الإسعاف مش كفاية. لازم ترجع للدراسة وتعيش في البيت بحضن أهلك. ولما تكبر وتصير ناضج ساعتها قرر على كيفك.

قال بجفاء،

- أنا صرت كبير.

- طبعا، طبعا، بس يعني الدراسة لابد منها. لازم تدرس، لازم تنجح، ولما تنجح لك عندي أدبر لك بعثة.

ابتسم بسخرية مرة،

- بعثة؟ بعثة!

وتذكر مجيد ووعد الوشمي. تذكر العنب والفقوسة. تذكر المشهد بكامله ثم بيرزيت والمهرجان وغناء مجيد. أين كان مجيد وأين صار مجيد! في هذا الظرف، في هذا الوضع، والضرب شغّال، نقول بعثة ونقول الرسم؟

قال الخوري،

- أنا متأكد أن الإنسان أحسن بكثير من أعماله. حتى اليهود، شايف اليهود؟ مش محتلين؟ مش مستوطنين؟ مش عنصريين وانتخبوا شارون؟ لكن فيهم ناس ممتازين. شايف البنت اللي واقفة هناك؟

- قصدك ميرا؟

- تعرف ميرا؟ عمرك قرّبت وحكيت معها؟

هز رأسه، وتذكر القطة وما تبعها، وتذكر عيسى وأبوها، ثم ميرا بفستان النوم وله كشكش. لكن الخوري لم ينتبه لهزة رأسه فواصل بحماس،

- حتى ميرا، حتى المستوطن أبوها أحسن بكثير من أعمالة. هيك الدنيا، غريبة الدنيا. هيك كل الناس. لو كنت مطرحهم شو بتعمل؟

قال بوجوم،

- بقتل وبدبح وبدمر دور.

- لأ مش قصدي. قصدي الإنسان مش دايما مسؤول عن أعماله. يعني المستوطن لما يعيش هذا الواقع، واقع لؤيه، واقع خربان، واقع معجون بالكراهية والرعب والخوف ممكن يصدق ان الإعتداء عالغير ممكن يحميه، لكن بعدين ممكن يصحى وممكن يندم. أنا متأكد ان الإنسان ممكن يندم. إذا صحيناه ممكن يندم.

- وكيف نصحيه؟

- بدعاة السلام. بالحب والسلام ممكن نخرج من هذا العنف. لكن بالقتل، بالعمليات، مش ممكن نخلص ونخلّص. عن طريق العنف ما فيه خلاص، هيك قال المسيح، وحتى الإسلام، وحتى بدينهم، السلام والحب هوهدف الكون. انت شو رأيك؟ - أنا رأيي نقوم قبل المغرب. الشمس غابت.

- لأ ما غابت، قرّبت تغيب، بدها نص ساعة أو ساعة وبتنزل هناك ورا هالتلات. شايف الشمس وألوان السما وقت المغرب ولون القرميد تحت الكينا؟ شامم الأرض وريحة الليمون وزهور الصيف؟ شم الريحة. شم الأعشاب وتراب الأرض لما يسقوه عند المغرب. شم الريحة، شوف الدنيا واسمع أصوات العصافير وهي بتزقزق قبل ما تنام. غريبة الدنيا، جمال مش معقول، لكن البشر مش فاهمينه. شوف الإنسان ما أقل عقله وما أقصر نظره، فاكر الدنيا مال وجاه وسلطة وتمليك وسياسة وناسي حاله، ناسي انه حياته رحلة، رحلة بهالكون، رحلة قصيرة من رحم الأم لتراب الأرض. رحلة قصيرة ومن بعدها سكون الأبدية ولقاء الرب. والرب هناك لما يلاقيه رح يحاسبه ويقول له أحببت؟ ويقول له كرهت؟ ويقول له قتلت؟ ايش ماخد معك يا بني آدم غير أعمالك وحفنة تراب وجمال الروح؟ هذا الباقي من دنيانا، حفنة تراب وجمال الروح. هذا الباقي. انت سامعني؟ طبعا سامع.

- وانت شو رأيك؟

لم يجبه، إذ بدأ يغلي من الداخل. بدأ يحس أنه مطوق من جميع الناس، جميع الأهل والأصدقاء وجميع الدنيا ومن فيها. ألا يكفي تعذيب الجيش؟ ألا يكفي حصار اسرائيل؟ ألا يكفي حاجز سردا وحاجز حوارة وقلنديا ومئة حاجز وحاجز يمر به في كل يوم من هذ ه القرية الى قرية ومن مدينة الى مدينة، ولولا الأمبولانس ما مر بها ولا تمكن من الخروج لشبر واحد خارج نابلس وعين المرجان. وها هم الآن يحيطون به وبأعصابه، حصار الأعصاب والقلب والروح، حصار الداخل. ماذا يقولون؟ لماذا يخافون؟ يخافون علي أن أتورط؟ ما أغباهم! وتذكرهم، تذكر صورتهم على الشاشة في التلفزيون. شباب صغار في مثل سنه أو أكبر ببضع سنوات، سنوات فقط، لكن بالقلب، لكن بالروح، لكن بالشجاعة والإقدام، يا نيالهم!

قال الخوري،

- أنا لما أقعد ورا الأرغون وأعزف أناشيد وأغاني الرب بحس بروحي طايرة لبعيد. روحي بتطير وتخرج مني وتخترق السقف وقزاز المذبح الملون فوق العذرا وصليب المسيح. فاكر يا أحمد لون القزاز؟ فاكر بإحدى الصيفيات قبل سنتين أو ثلاثة لما حضرت للدير تاخد دورة بدهان الزيت؟ فاكر رسوماتك ما أحلاها؟ وأحلى رسمة، أحلى لوحةكانت بألوان مثل الناضور، ناضور القزاز، الكلايدوسكوب. ولما سألتك منين هالألوان أشرت للقزاز فوق المذبح، فاكر؟ فاكر؟ أنا مش ناسي. وساعتها قلت هذا الولد لازم يطلع فنان كبير. وأبوك ما صدق اني بقول هذا الكلام غير لما شاف لوحة الألوان. وين اللوحة؟ وينها يا أحمد؟ أوعى تقول لي انك رميها أو نسيتها. أوعى تقول لي.

ابتسم بسخرية وهمهم بوجوم،

- ما رح أقول.

- وين اللوحة؟ شو عملت فيها؟

- امي خبتها في الصندوق مع صور الدارفي الكرتونة.

انتبه الخوري وتذكر أن دار القسام، رغم أنها لم تنسف بعد، إلا أن القرار لم يتغير. سيمر الجدار فوق تلك الدار وكل الدور في ذاك الحي، وستظل اللوحة الحساسة في الكرتونة مع صور الدار إذن فلنغير الموضوع. وأسرع يلتف على اللوحة وعاد للأرغون.

- أنا متذكر صورة المذبح وصوت الأرغون لما أعزف ويغنوا الناس. ترتيل الناس بخلي قلبي يرفرف ويطير. بخليني أحس اني طاير والناس بتطير. بشوف الدنيا مثل الجنة والناس عصافير. ما أحلى الناس لما يغنوا! أنا شفتك مرة عم تبكي، ولما سألتك قلت الترتيل. وقفت جنبك تحت الشجرة وسمعت الناس من بعيد لبعيد، ولما سمعتهم كنت رح أبكي لأني مثلك بحب الموسيقى وبحب الرسم وبحب الفن وجمال الروح وبقول الدنيا حلوة والناس حلوين والأحلى منهم نواياهم لما تصفى ويعم الخير. يا الله نبارك هذي اللحظة ونروح نسلم على الوالد. أبوك مشتاق لك يا أحمد.

- شفته امبارح.
- وتشوفه اليوم.
- بكره بشوفه.
- طيب وبعدين؟

لم يجب السؤال لأنه لم يفهم ما المقصود. طيب وبعدين، بعدين ماذا؟ أبوه يقول طيب وبعدين؟ وسعاد تقول طيب وبعدين؟ وأمه وأخوه، وهذا الخوري. ماذا يريدون؟ أن أقول لهم اني سأقتل أو لن أقتل؟أني أنوي أن أستشهد؟ وكأن الشهادة بسيطة. ما أغباهم!

- طيب وبعدين ايش رح تعمل؟
- أنا في الإسعاف.
- وغير الإسعاف ايش بتعمل؟ مع مين عايش وايش بتقرأ؟

هذا تحقيق وشك واضح، فأحس بروحه تفرفط مثل عصفور داخل قفص، لكنه حشر غيظوقال بوجوم.

- أنا ما بقرأ، ما عندي وقت.
- لأ مش ممكن، لازم تقرأ. طول عمرك كنت قارىء ممتاز، لازم تقرأ. القراءة بتساعد على تفتيح العقل وتهذيب النفس.

تفتيح العقل وتهذيب النفس؟ وابتسم بسخرية وتحد وقال بسرعة،

- أقرأ قرآن.

ارتبك الخوري وقال بسرعة،

- طبعا، طبعا، هذا مفهوم، بس لازم تقرأ شيء تاني.

ارتفعت وتيرة سخريته بسبب الغيظ وسأل متحديا،

- أقرا الإنجيل؟

التفت الخوري وقد لاحظ أن الولد بدأ يسخر وأنه يكاد أن يفلت منه. وحين لم يجب عاد يسأله،

- أقرا التوراة؟

لم يجب الخوري وبدأ يفكر بأسلوب جديد كي ينفذ منه إلى قلب الولد حتى لا يضيع لكن الولد وقد بدأ يضيق بحصار الناس بدأ يفلت وأصبح وقحا، فرفع صوته وهب واقفاهو يمسح قفاه،

– أقرا الحروب الصليبية؟ أقرا عن الهولوكوست والنازية وأفران الغاز؟ يا عمي خوتونا بالنازية وأفران الغاز وسور برلين. المسامح كريم، انسوا الماضي. لأ ما ننساه. أما الحاضر، طبعا ننساه. انسوا ما تنسوش أنا مش ناسي. كيف بدكم أنسى وأنا غاطس في الخرا والدم؟ خايفين علي؟ لأ ما تخافوا، أنا في الإسعاف. قل له لأبوي أنا في الإسعاف وما عندي شيء غير الإسعاف، وياريت عندي!

والتفت للخلف ورأى الخوري محملقا وقد فقد النطق فأحس بالخجل والأسف معا فقال بسرعة،

– أنا متأسف، سامحني أبونا، سامحني.

ومشى خطوات وهو يتمتم: ما عندي شيء، يا ريت عندي!

63

رأته ثانية عند الدوار فلحقت به وقالت تعال اليوم عاملين أكلة زاكية. وحين رأته لا يتجاوب قالت بإغراء: مسخن طابون مع لبن نعاج! فقفز قلبه لأن المسخن بالنسبة له عرس للبطن وكل الحواس. فعدا عن طعمه ورائحته، شكل الدجاج وهو محمر على خبز طابون يغرق بالزيت، زيت الزيتون، وبصل وسماق ولبن نعاج بدسامته لم يخلع بعد، الله الله! وأحس بوجدانه يتفتح وكأن الربيع هلّ فجأة في عز الصيف فقال بوجوم: طيب، أنا جاي. فوقفت قبالته تضحك وقالت بمرح: طيب إذن ليش مكشر؟ ابتسم لها فقرصت خده، فعاد ثانية لوجومه.

منذ أيام لم يأكل إلا نواشف. زيت وزعتر، ساندويش لبنة، خبزة وجبنة أو حمص وفول. وها هو الآن يتلقى دعوة مفتخرة على أكلة يحبها ويتغزل بها. فمضى يتسكع في الأسواق لتضييع الوقت ويرفض دعوات الدكاكين لكباية شاي وصحن كنافة حتى لا تفسد شهيته ويأكل بنفس. لكنه حين وصل هناك وجد أباه بانتظاره في دار سعاد. هل هذا فخ؟ لا ليس فخا بل صدفة. أبوه جاء ليسلم على أبو سعاد لأنه خرج من السجن وكذلك ليستأجر بيتا في نابلس بدلا عن بيت عين المرجان المهدد بالهدم.

بادره أبوه بكلمة " أهلا" ناشفة جدا لأنه طوّل لسانه على الخوري وقال كلاما غير مهذب. كما انه كان مشغولا بالحديث مع سعاد وأخيها سعيد الذي جاء خصيصا من عمان ليسلم على أبيه ويقول لأمه ان عمان غالية جدا، وعندك قرشين وأسددهم؟

أخو سعاد يعمل محاميا غير ناجح. فرغم انه تخرج من الشام بتقدير جيد وتدرب على يدي محام من الوزن الثقيل، إلا تربيته في البيت والشارع وتاريخ أبيه جعلوه عصبيا متوترا ويحب النقاش المفلسف فابتعد الناس. ولهذا ظل يجرجر في مهنته بإحباط مضاعف بسبب فشله المهني وضيق اليد، وهذا انعكس على طبعه، وربما العكس فأصبح لحوحا متشنجا ويدعي الفهم كل شيء. وهذا بالطبع يضايق سعاد وأم سعاد، وكذلك يضايق زائرهم فضل القسام الذي أثبت جدارته على مر السنين كصحفي لامع وله قراء. فهو عدا عن أنه يتمتع بأسلوب سلس جدا ويصل الناس بكل سهوله، فهو أيضا يعيش الأجواء من الداخل. ولهذا يصعب عليه أن يسمع أحدهم يأتي من الخارج ويقول لهم يأهل الضفة إعملوا كذا وسووا كذا أو أن يفسر لهم أسرار اللعبة السياسية وأصول النضال. وهكذا حين سمع الشاب يقول بحماس وتشنج: لازم تستمر العمليات وما نخلي باص طيارة ولا قهوة صغيرة ولا مطعم التفت لأحمد وسأله: انت شو رأيك؟ فانسدت نفس أحمد على الفور وأحس أنه سيدفع ثمن تلك الأكلة اللذيذة من أعصابة وشهيته وبالتالي يقوم وهو جائع. فاستمر يمضغ ببطء كسول وهز كتفيه ولم يعلق. فالتفت أبوه

لأبي سعاد خريج السجن وسأله عن رأيه في الموضوع، وكان ذاك ما زال ينعم بتقدير الناس وتعظيمهم بعد كل السنين التي في السجن بعيدا عن الأهل وأعباء الناس، ولهذا كان رده مشابها لتعليق ابنه ساكن عمان. فسأله الصحفي بلباقة،

- يا أبو سعيد، مين أحسن للناس والقضيةنفقد النص أو نفقد الكل؟

صاح المحامي بعصبية،

- يعني الوطن ذبيحة تنباع بالرطل والكيلو والوقية؟ الوطن الغالي ما بنباع. لكن قادتنا البياعين قاعدين يفصلوا على مقاسهم. ومقاسهم نص وربع وخمس. وبعد سنتين أو ثلاثة يمكن ما يظل ولا شيء ينباع.

هز الصحفي رأسه وقال بأسى،

- هو في الحقيقة ما ظل ولا شيء، أخذوه كله. لكن لو تعلمنا نشتغل مظبوط ونتكتك صح كان ممكنناخد شيء منهم.

صاح المحامي محتدا،

- لأ ما أخذوه. احنا واقفين لهم بالمرصاد. حتى لو ظل طفل بيرضع مش ممكن نسلّم ولا نركع.

ابتسم الصحفي ونظر حوله ليرى تأثير مثل هذا الكلام الذي سمعوه مئات وآلاف المرات من الشعراء والقادة وخطب الجامع، ورأى سعاد تبتسم بخبث، ورأى أم سعاد تحدج ابنها بغيظ مكتوم، ورأى ابنه يحدق في الأكل ولا يأكل. فقال له بلهجة مازحة كي يبتعد بالنقاش عن الحدة ويلطف الجو،

- كيف هالمسخن يا أحمد؟ مسخن عظيم مثل اصحابه، صح والا لأ؟

والتفت الى أم سعاد يجاملها،

- تسلم ايديك يا أم سعيد، مسخن عظيم من أعظم أم.

هز زوجها رأسه وقال مؤيدا،

- فعلا، فعلا، هي أعظم أم وأعظم ست وأعظم طباخة في العالم. يا سلام على أكلك يا أم سعيد! هذي اللحظة شو حلمت فيها! سنين وسنين وأنا مرمي هناك أحلم بهاللمة مع الأصحاب والحبايب والأكل الزاكي من ايدك يا ست الكل.

لم يهن على المحامي تغيير الجووبعثرة النقاش فعاد يسترد الموضوع وقال بحدة،

- يعني اللي بقولوا ننسى الكل وناخد النص ناس انهزاميين.لو قرأوا التاريخ قراءة صحيحة لشافوا وعرفوان الظلم ما بستمر والإستعمار آخرته يزول.

همست سعاد،

- بس يا سعيد خلينا ناكل.

ونظرت الى الصحفي العتيق نظرةاعتذارية وقالت بأسف،

- يا أبو مجيد، سعيد ما بقرأ مقالاتك. جريدة القدس ما بتوصلهم. لو كان قرأك لقال كلام غير هذا الكلام.

التفت اليها سعيد وقال زاجرا،

- وانت مالك؟! أنا بحكي معه.

تدخلت الأم حتى تحول دون اشتباكبين الأخ وأخته،

- بس يا سعيد، خلينا ناكل مبسوطين، لازم نقاش وأخذ ورد وكلام ما يودي ولا يجيب؟ خلينا ناكل زي الناس.

هز المحامي رأسه وقال بأسف،

- أنا مستغرب! أنا في الحقيقة مستغرب! في التلفزيون كنا نشوفكم حاملين سلاح والعمليات كل يوم والثاني عملية. لكن هلقيت أنا شايفكم ولا على بالكم! قاعدين تاكلوا وما شاء الله وتجاملوا بعض وتضحكوا لبعض وناس منكم يقولوا ناخد النص وناس يقولوا ناخد الربع وإحنا اللي بره مش عارفين نصدق مين، نصدق صورتكم في التلفزيون أو صورتكم بأرض الواقع؟

قالت سعاد بغيظ مكبوت،

- ليش ماله واقعنا يا أستاذ؟

قال بحدة،

- واقع تعيس، واقع مهزوم، واقع مش ممكن يحررنا. أنا كنت فاكر ان الشباب، كل الشباب الصغار والكبار حاملين سلاح ونازلين بالمعركة لشوشتهم.

ونظر الى أحمد مواجهة وقال بقرف،

- بس أنا شايفكم مش سائلين، قاعدين تاكلوا والوطن يضيع.

حدجته الأم بنظرة حادة وهمست للأب: مين قال القرد بعين أمه غزال؟! فهمهم الأب خريج السجن بصوت متعب،

- لا حول ولا قوة إلا بالله. بس يا سعيد خلينا ناكل!

قال الصحفي بصبر وهدوء وهو يرمق ابنه الذي توقف عن الأكل تماما،

- طيب معلش خليه يقول ويفش قلبه. بالك يا سعيد احنا قاعدين نضحك ونلعب؟ احنا قاعدين بالهم والغم وما حدا سائل. لا العرب سائلين ولا هيئة الأمم ولا أوروبا ولا حتى انتوا يا أهل الدار يا اللي بره. وعشان احنا صغار وظهرنا ضعيف كان لازم نتكتك بشطارة مش نركب موجة مش قدها لا أنا ولا انت ولا السلطة. السلطة غلطت وقادتنا لهذي المأساة. حملنا سلاح أكبر منا، وطرحنا شعارات أضخم منا، وعملنا عمليات أعطتهم غطاء لكل فظاعاتهم. ولو كنا شاطرين كنا فهمنا ان حمل السلاح والعمليات بهذا الواقع مش هو السلاح المناسب.

سأله أحمد مطأطئا وهو يلوك لقمة صغيرة بدون شهية،

- طيب إذن كيف نقاوم؟

رد المحامي بسخريته الفوقية،

- أكيد رح يقول بالحجارة.

قالت سعاد،

- ومالها الحجارة يا أستاذ؟ على الأقل نلنا تعاطف كل العالم مش زي اليوم.

صاح وهو ينبش أكوام الدجاج لينتقي أحسن قطعة،

- حيلك، حيلك، شو اللي بتحكيه! انت لو تشوفي ايش بيصير لما نسمع عرعملية! الإذاعات والفضائيات والشارع العربي في أي مكان من مراكش حتى لبنان كله بوقف يصفق ويقول: هيك الأبطال، هيك الشجعان، هيك النضال وهيك التحرير. واحنا طبعا نرفع راسنا ونقول مظبوط احنا قدها، احنا اللي ندافع عن العرب ونرفع راسهم.

علقت سعاد بتهكم،

- وانت طبعا رافع راسك.

نظر اليها بحقد وغضب، إذ ان لسان هذه البنت وتحديها تستاهل عليهما مليون صفعة. ففي أي عرف، في أي دين، تتطاول البنت على أخيها، أخيها الكبير، وتعيره بديون لم يسددها بعد؟ هي تستغل هذا الموقف وأي موقف مهما كان حتى بديونه. وها هي تقول "رافع راسك" على اعتبار ان الديون تطأطىء الرأس ولا ترفعه. لكن فشرت، فالدين دين وسيسدده في

أقرب وقت. وحتى لو لم يسدده، ماذا فيها؟ حتى في الدين وفي القانون دين الأبوين ليس دينا ولا سرقة الأبوين تعتبر سرقة. فلتأكل هوا وتسكت في الحال. والتفت الى أبيه وقال مازحا،

- أنا من رأيي نجوز هالبنت ونخلص منها.

قال الأب ساهما،

- تقدم لها عريس.

صاح بفرح،

- هِه هِه هِه هِه، قولوا من الصبح. ومين المنظوم سعيد الحظ؟ مين المسكين؟

- واحد مسؤول من السلطة، النصراوي،ها شو رأيك؟

- أنا رأيي نعجل قبل ما يطير ويروح منا.

ابتسم الجميع الا سعاد والصحفي لأن الصحفي قال بوجوم،

- لأ ما نعجل، أنا من رأيي تعيدوا التفكير لأن السلطة حالها مايل.

سألت بضيق،

- قصدك لأنهم مضروبين؟

- قصدي لأنهم فسدانين وحالهم مايل.

قال أحمد بحيرة ووجوم،

- بس يابا مجيد واحد منهم!

هز الأب رأسه عدة هزات وعلق بأسى،

- مجيد، مجيد، خلص خسرناه.

قال المحامي بشماتة،

- مجيد القسام صار سوبر ستار. في التلفزيون والاذاعة مجيد القسام صاروتصور. صار يحكي مليح. لكن صدقوني كان يغني أحسن بكثير. أحسن له يرقص أو يغني.

قالت سعاد مدافعة،

- مجيد يا سعيد كان مناضل.

ضحك بسخرية واستهزاء،

- كان يا ماكان.

تململ أحمد وهو يتذكر أخاه وهو شبه ميت تحت البالة في بكب الغاز وتلك الرحلة. وأثناء الضرب همس في أذنه: قوي قلبك، ما تخاف، ما تخاف. فقال مهمهما،

- أخوي تصاوب. كان يناضل وبعدين صابوه. قعد مشلول مدة طويلة.

سأل المحامي باستخفاف،

- واليوم مشلول والا تحرك؟

نهرته الأم وهي ترمق زائرهم المصاب بابنيه وبيته،

- بس يا سعيد، مالك اليوم؟

ونظرت اليه مباشرة تحدق في وجهه كي يفهم، لكن الشاب كعادته يحب النقاش ويعتبر أن النقاش نوع من أنواع النضال، والنضال من حقه وحق الجميع فهو فلسطيني حتى العظم، وله الحق، كل الحق، أيقول الحق على السلطة وعلى أهله وعلى البلد والناس والأرض وكل العالم، إذن فلماذا درس الحقوق؟

قال بلهجة حاول أن تبدو لطيفة،

- أنا بقصد السلطة يا أمي وما بقصدمجيد.

قالت سعاد مدافعة،

- ومالها السلطة؟ يعني السلطة جايه من بعيد؟

هزت الأم رأسها وبلعت غصة. تذكرت أبو رامي وأقواله. تذكرت شروال ابن غزة. تذكرت تلك الأيام حين كان الجميع قلبا واحدا بجسد واحد. وكان الحصار. وكان الاجتياح. وصواريخ أباتشي ودبابات، ونيران الضرب تدك تدك. فأين كان ابنها في ذاك الوقت؟ وهل كان أقرب اليها من أبو رامي وابن غزة؟

قال ابنها بحماس شديد،

- يا أمي السلطة فسدانة ولازم تروح.

صاحت سعاد،

- على وين تروح؟

قال بعناد وحقد موتور،

- لازم تروح وييجي بدلها.

سألته سعاد مواجهة،

- ومين بدلها؟ أكيد مش انت.

حملق من وراء نظارتيه وقد تشنج وجهه وأخذ يلهث. ورأت الأم ابنيها يكاد الواحد منهما أن يلتهم الآخر فشدت بذراع سعاد لتسكتها. ومدت كفها في وجه الابن وقالت بصوت متوتر،

- إسمع يا سعيد. جاي من عمان وراسك حامي وم ش عاجبك شيء. شوف لأقول لك. هذا الرجّال . . . (وأشارت لأبو مجيد) هذا الرجّال خربوا بيته وشتتوا ولاده كل ولد بواد. وهذا الولد . . . (وأشارت الى أحمد) هذا الولد الإجتياح طير عقله ومن يومها وهو داير حيران مثل الضايع. وهذا الرجّال . . . (وأشارت إلى زوجها المعلول المنهك) هذا الرجّال ضيع عمره وصحته وشبابه وأعصابه وخرج من السجن نص بني آدم. وهذي البنت . . . (وأشارت إلى سعاد) هذي البنت شافت الموت بعينيها وما قالت أخ. وأنا يا سعيد يا سند ظهري، أنا أمك وأمها وأم الكل، أنا بصراحة تعبانة لأني انهديت. فاهم شو بقول؟ أنا انهديت. وأوعى تقول لي عمان غاليه. أوعى، أوعى.

وحملت صحنها الفارغ واتجهت به نحو المطبخ. ففز أحمد عن كرسيه وخرج من الباب فصاحوا خلفه يستوقفونه لأن صحنه ما زال مليئا ولم ينقص إلا لقيمات. لكنه نزل الدرجات وهو يركض. وقفت سعاد في أعلى الدرج تنادي خلفه، فلوح بيده وصاح بدوره،

- خلص تغديت.

في الطريق الى رام الله وقلبها يخفق لنداء الحب كانت تتخيل ما ستقول وما سيقول وتذكر عينيه وتذكر شفتيه ولمساته. في ذاك الوقت، حين أحبته وهي صغيرة كانت تحس أنها زهرة وهو فراشة والدنيا ربيع. وكانت تدوخ، تحس مفاصلها ذابت، ويصير لها بدل الأرجل اجنحة بيضاء تحملها فوق الأشجار وهضاب القدس إلى تونس ثم بيروت فأعمدة جرش. ويختلط الحاضر بالتاريخ وبالآثار والقضية ووهج الإحساس. شيء غريب، شيء رائع، أن تحس العالم مختزل في شخص ما. أهذا هو الحب؟ بل أكثر. فهو الرجل، وهو الإنسان والقضية وبلد محتل. وبالنسبة لها وبموقعها على سطح الأرض، كان الرجل هو هذا الرجل، رجل يحب، رجل يعشق، رجل يدافع حتى الموت عن إيمانه. ثم ماذا حدث؟ لماذا انفصلا؟ اكتشفت فيه وجها آخر، وجه الرجل حين يزمجر وتطفو على السطح أعماقه ويقول لها أنت حريمي وأنا السلطان. ما قال ذاك بلسانه، بل بفعاله، نظرة، حركة، لمسة، إشارة، تجميع الأجزاء في صورة فكانت مرآة. وها هي الآن تعيد الكرة، وتقع في حبه ثانية وللمرة الألف. ولو بعد الحياة ومماته، إذا بعث حيا ثانية، ستحبه ثانية وثالثة وتنفصل عنه، ثم تحبه وتنفصل عنه، لأنه في الصورة يجذبها، وحين يزمجر ويطفو على السطح، تهرب وتخاف وتتراجع. وها هي الآن تعود اليه، تعود إلى الصورة بلا أبعاد، بلا تعمق، [illegible] به فقيل لها ذهب لعمان. اتصلت به فقيل لها عند أبو عمار. اتصلت به فقيل يجتمع مع الوزراء. مرت أيام، ثم أسابيع. وهج الإحساس بدأ يبرد. عادت اليها كوابيس الشك. ما عاد الحب يهدهدها. ما عادت تتلهف للقائه لتقول له أن دنياها لهامعنى حين تحبه. ما عادت تسمع أغنية وتقولهنا هذا المقطع وتلك الكلمات وهذا الإحساس هو ملك له. باتت خائفة مشغولة وتحس بدنياها ضاقت وبلا ألوان. فأين ستكون في حياته؟ ما موقعها؟ وه ل ستكون شريكة حياة أم ركن في البيت واستراحة محارب؟ وهل ستظل بلا عمل إلا الأمل في أن تلقاه، ولن تلقاه، بل تنتظره، تنتظر رجلا ليس لها، هو ملك عام، مثل التمثال وسط الساحة لشهيد الوطن ونصب الشهداء. هو ليس لها. هو ملك عام.

خرجت من عنده تتعثر. كانت تعرف أن العلاقة قد انتهت، أو على الأقل، قد تجمدت بضعة أشهرأو بضعة سنين، أو الى ما لا نهاية. لن يسأل عنها، ولن تسأل عنه، ويضيع الحب، ويضيع الفرح واخضرار الربيع، وتعود الأيام لكآبتها وصرامتها ولن يظل بين الأشياء ما تنتظره. وأحست ببرودة دنياها وفراغ الكون. لا شيء مهم. لا شيء سعيد. لا شيء يحقق أمنية أو يحمل وعدا أو أملا. كله مهزوم. كله مطحون، كله محبط. واختلط الخاص بالألم العام وركام الحرب وشظايا البناء المتصدع في مقر الرئيس. مقر الرئيس حيث القادة وعش الزعماء ما زال مهلهلا مثل الأحلام المندثرة ووعودالغد. لم يبق لها ما تفرح به. لم يبق شيئا تنتظره.

ناداها مجيد. ورأته ببدلة أنيقة ورباط عنق. وبدا منظره وهو يسير وسط الساحة محاطا بالهدم والتصدع وجبال بقايا السيارات وجثث الأنقاض مثل الزفة في مأتم ضخم. صورة شاذة أو نغمة نشاز. كله مهدوم متصدع إلا البدلة ورباط العنق! وبدت مشيته موزونة على دقة ونص مثل المسرح، وهو ممثل من أردأ نوع. فأين الصخب؟ أين الفنان؟ أين جنونه؟ ضاع الفنان والثائر وبقي المتسلبط على السلطة ومشروع زعيم. وغدا سيسير نحو القمة، أو نحو الجرف، فوق سجادة بلون الدم، ونحن نجرجر في أذياله.

أدخلها مكتبه الواسع وسط الأنقاض. مكتبه واسع كالقاعة، وأثاث جديد وستائر ومكتب ضخم وتلفونات وفيديو وشاشة من أكبر مقاس. ما هذا الترف؟ ما هذا الجو! أهذه أجواء هزيمتنا وهم فلسطين؟ أهذه أجواء المخيم والمنكوبين وشعب مهزوم ذاق الأمرين وعاش منبوذا كالشحادين بانتظار الإعانة والإحسان؟! شعب شحاذ بربطة عنق وبدلة أنيقةمن أغلى صنف!

قال لها أنه مشغول جدا جدا، لكنه يريد منهلخدمة. فهو بسبب المسافات وحصار المدن لميسمع من أهله إلا القليل. وقد سمع مؤخرا أنها تمكنت من دخول نابلس ورأت أباه ورأت أحمد. فهل هذا صحيح؟ هزت رأسها وقالت: صحيح. وهل صحيح أن الوالد يبحث عن بيت في نابلس بدل بيته بعين المرجان؟ هزت رأسها وقالت: صحيح. وهل صحيح أن أحمد ترك المدرسة نهائيا وانغمس في الإغاثةوالإسعاف؟ هزت رأسها وقالت: صحيح. وهل صحيح أن جدته ماتت في آخر هجوم؟ قالت: صحيح. صاح فجأة:

- ومجيد آخر من يعلم؟!

حملقت عينيها بعدم تصديق. فلماذاكل التلفونات والموبايلات وفيديو وشاشة من أكبر مقاس؟ إن كانت أجهزته لا تنفع فلماذا اشتراها وأسسها وصرف عليها من دم القلب؟كي يعرضها؟ كله للعرض!!

قال بحرقة،

- يعني أنا، أنا الإبن الكبير، الإبن البكر، آخرمن يعلم أو يستشار.

قالت ببرود،

- وهل أنت سألت؟

نظر اليها ورأى وجها عابسا ممتقعا ودموعا كانت قد جفت منذ دقائق لكن آثارها باقية والصوت كئيب. فقال بسرعة،

- مالك؟

هزت رأسها وهمست باكتئاب،

- ابدا، لا شيء.

- قولي مالك.

همرت بغضب،

- قلت لا شيء.

- طيب، طيب. إذن هذا هو الحال. الجدة تموت، وأحمد يغيب عن مدرسته والعيلة تهجر عين المرجان وأنا لا أسمع عن هذا إلامن الناس؟!

نظرت اليه وهزت رأسها بحزن وأسف. إذ ما هذا؟ أهذا ما تفعله السلطة بشاب واعد؟ أهذا ما يفعله المنصب بروح الفنان؟ وتذكرته وهو يغني في ستاد الحرم والناس ترد. وتذكرته وهو مطارد ويأتيهم خلسة ليتعشى في جنح الليل. وتذكرته وهو شبه ميت تحت البالة في بكب الغاز. أهذا ما بقي من الفنان والثائر وابن القسام؟مكتب وبدلة ورباط عنق!

قال ساخرا، وبلهجة أقرب للتكذيب،

- وسمعت عن مشروع زواج.

قالت ببرود،

- غير مؤكد.

ابتسم ابتسامته الواسعة وقال بمرح فجائي،

- وأنا خطبت.

علقت باكتئاب،

- طبعا لورا.

صاح ضاحكا،

- لا لا أبدا.

حدقت فيه فقال بإباء وهو يضع يده على صدره،

- لورا الوشمي؟! لا لا يمكن.

هبت عن المقعد واقفة فوقف هو وراء المكتب وقال مدافعا،

- لورا لا تصلح للزواج.

لم تعلق، بل مشت خطوات نحو الباب. صاح خلفها،

- ولا النصراوي يصلح لك.

التفتت اليه لتحدجه فقال بسرعة،

- هذا مسكين، على باب الله، حامل السلم بالعرض، وكأن العالم يتغير!

همست بجفاف،

- أنت تغيرت.

إدعى أنه لم يسمعها وقال بسخرية فظة،

- النصراوي؟ ما لقيت إلا النصراوي! هذا مسكين. وبيني وبين، كلهم مساكين، إسأليني أنا، أنا عارفهم، أنا عارف كل واحد مرهم.

سألته بيأس،

- وعارف نفسك؟

حدق ليستوعب ما تقصد، فخرجت من المكتب وأغلقت الباب.

أمسك بكاميراته وبدأ يصور. في البداية كان يتكىء على مقدمة الأمبولانس،ثم أخذه الحال وبدأ يقترب من الأحداث ونسي الإسعاف. كانت حشود المتظاهرين ودعاة السلام من كل لون وجنسية تقترب من الجدار الضخم بهدوء شديد. المسيرة كانت كجنازة بدون هتافات، بدون استفزاز للدبابات وأفراد الجيش، وبدون تشنج أو فوضى. كانت مسيرة مثالية، والطقس جميل. سماء زرقاء صافية ونسيم عليل، ورائحة الأعشاب البرية وتراب الأرض. كل شيء بدا حالما، شبه خرافي. صخور بيضاء لبنية، ومروج الزيتون الفضية وتراب أحمر كالحناء. أيام الصيف الشفافة فوق هضاب خارقة الجمال. وألوان القمصان والكنزات كزهور الربيع. أحمر، أخضر، أصفر، أزرق، على خلفية مثل اللوحات.

"لبنان يا قطعة سما، إسمك على لساني صلاة." راودته الأغنية وهو يصور ويدندن اللحن الممدود ويتساءل إن كانت بمثل هذا الجمال. لم يزر لبنان ولا سوريا ولا حتى الأردن ولا قطع الجسر. طوال حياته عاش سجينا في هذا القبو أو ولد هنا وتربى هنا وعاش الأحداث من داخلها وحلم بالهرب الى خارج. كان أخوه قد قال له أن عمان مثل السينما، قصور

وجسور وملاهي وشوارع واسعة ومنتزهات. وهناك أوتيلات بخمسة نجوم ينزل فيها عرب الإمارات والسعودية يقطر منهم أسود. ذهب أسود؟ ذهب البترول يا أهبل. ذهب البترول! ذهب البترول وجواهر وسيارات مثل السينما. فلل وبنات بالشلحات مثل السينما. وطقش وفقش ورقاصات مثل السينما. ونحن هنا في هذا الخم مثل الصيصان في قفص دجاج. هذا قال أو كان يقول. لكن الآن بات بعيدا. سحبه المنصب والكرسي. آخر مرة رآه يوقوق في التلفزيون تمتم بأسى: مثل مثل عمان وذهب البترول والخمس نجوم. مثل السينما. لكن هنا، في هذا الجو، وهضاب اللوز والزيتون، وتراب الأرض، الصافي ينطبق هنا، على هذا الجو على هذا المخمل في اللوحات، نحن على الأرض.

فلسطين يا قطعة سما، إسمك على لساني صلاة. وانتابته حساسية مفرطة ضربت قلبه وهزت أوتارا ساكنة جففها الخوف. كانت أيام الإشتباكات والإجتياحات وصيحات القتلى والجرحى قد ابتعدت خلف ظهره. ولم يبق في هذا الجو، في ذاكرته، إلا لحن بامتداد الأفق كصلاة زرقاء صيفية خارقة الحنان. هل للصلاة لون أزرق؟ هل لون الله هو الأزرق؟ هل لون الحب هو الأزرق أم هو أحمر؟ ولو كان الله سيتصور هل يتصور في هذا الجو أم في مكة؟ مكة صحراء، أما بلدنا، بلد الزيتون، بلد الأعشاب البرية وشومر وزعتر، فهي بلد الله. هذا ما قال خوري اللاتين. لكن الشيخ قال مكة، فمن الأصدق؟

اقتربت منه. رأى وجهها عبر العدسة كبيرا جدا. النمش البني على الأبيض وأنف صغير كالفستق وشفاه حمراء طبيعية مثل الشقيق. ما أجملها! لكنها سرقت عنبر.

لمست كتفه وقالت: آهمد. فادعى أنه لم يسمعها. وسمعها ترطن بالانكليزي مع أخرى شقراء أجنبية. الأجنبية مدت يدها وأغلقت العدسة وقالت: هاي! انت آهمد؟

التفت اليهما وابتسم بخجل. لم ينظر لميرا مباشرة وصب اهتمامه على الأخرى. كانت شقراء بشعر قصير ناعم جدا، مثل ميرا. وكانت نمشاء، مثل ميرا. وكانت قصيرة ونحيفة من القطع الصغير، مثل ميرا. وحين نظر اليها كان ينظر من عليائه كما لو كان يخاطب طفلة فأحس براحة وثقة بالنفس لأنه أطول منها، وأطول من ميرا ومن الكل. أطول من مجيد، أطول، أطول. قال له أبوه وهو يداعبه: طول المارد، أطول تلميذ بمدرستك! وكان يقصد ان يذكره بمدرسته فقال بعناد: أنا بالإسعاف. سألته الفتاة ان كان يفهم عليها فقال بإنكليزية متوسطة الحال: طبعا أفهم.

فسألته ميرا مداعبة،

- إذن ليش ما بترد؟

قال بسرعة ودون تفكير،

- لأنك سراقة حرامية.

ضحكت ميرا وقالت بدلال،

- أنا سراقة؟

قال بجفاء،

- سرقت عنبر.

التفتت الفتاة وسألت ميرا،

- من هي عنبر؟

قالت ميرا وهي تحدق فيه وما زالت ابتسامتها تتسع،

- عنبر قطة.

- عنبر قطة؟

- قطته هو.

التفتت اليه وسألت بفضول،

- عندك قطة؟

لم يجبها. أحس أنها تستكثر عليه هو العربيأن تكون لديه قطة أوكلب. أليس العرب غلاظ أفظاظ؟ أليس العرب بلا حس وذوق؟ أليسوا الإرهاب وبن لادن؟

قالت بألفة وحميمية،

- أنا عندي قطة سيامية. تحب القطط؟

لم يجبها. أحس أنها تتقرب منه بسبب الفضولوليس أكثر، أو ربما حقوق الإنسان، أو ربما ثورة مراهقة على أهلها ونظام الحكم، أو المجتمع، أو بوش وبلير وحرب العراق، أو العولمة وكريستيان ايد والكاثوليك رليف وما شابه. يعني صدقة، يعني إحسان، يعني الأقوى ونحن الأيتام مثل أميركا والهنود الحمر، ونيوزيلاند، وسكان استراليا الأصليين يعني ماذا؟ يعني صدقة، شوالات طحين، حليب ناشف، وجيوشتسحقنا في بغداد وهيئة الأمم وفي كل مكان.

لمست ذراعه ونظرت مباشرة في عينيه،

- انت فاهم علي؟

هز رأسه وتمتم بجفاف،

- فاهم، فاهم.

لمست كاميرته وقالت"واو! كاميرا عظيمة!" فسحب الكاميرا وشد عليهابتلقائية فضحكت الإثنتان وتبادلتا النظرات وكانهما تتآمران عليه فاحمر وجهه.

قالت الفتاة،

- تشرب قهوة؟

ومدت يدها بتيرموس صغير مثل البطحة فهز رأسه علامة النفي فسألت ميرا،

- ماله؟ زعلان؟ زعلان منك. اعتذري له.

قالت ميرا بخبث ضاحك،

- آسفة جدا.

نظر اليها ولم يتجاوب. آسفة جدا؟ هذا ما ننال في النهاية: آسفة جدا. أخذت عنبر، آسفة جدا. جرحت قلبه، آسفة جدا. سحقوا ماكان من براءة، آسفة جدا. أخذوا كل شيء، أخذوا عقله، هل بقي عقل؟ أبوه قال: بلا مدرستك تطلع بلا عقل. وسعاد تقول: بدون التعليم تطلع جاهل، يعني بلاعقل. لكن بلا عقل هذا أفضل. وما نفع العقل في هذا المكان؟ حتى ننجن حين نراهم مثل المجانين؟

قالت الفتاة،

- أنا اسمي راشيل.

ومدت يدها لمصافحته. فمد يده ببرود شديد. كان اسم راشيل قد أوحى اليه باسم عبري. يعني راحيل، يعني سارة، يعني يعقوب وهاجر وليئا. ماذا نفعل بذاك التاريخ؟ نبشوا التاريخ ونبشونا. ونحن من أين؟ هم من سارة ونحن من أين؟ وهذه الراشيل جاءت من أين؟ جاءت من لندن أو نيويورك؟ جاءت هنا باسم التاريخ لتأخذ مابقي من التاريخ، وتأخذ ما بقي لنا من عقل.

سأل بوجوم،

- ما معنى راشيل؟

ضحكت بمرح،

- يعني راحيل، اسم قديم من التوراة، أنا لا أعرف.

- يعني يهودي؟

نظرت الفتاتان في عيني بعضهما وضحكتا وهما تخبئان فميهما بكفيهما وتتلويان فهتف بوجوم،

- بلا سقاعة!

فازدادتا ضحكا وقرقرة وتلويا وهما تعفران الأرض بأقدامهما كلما نظرتا اليه والى بعضهما وكأن سرا بينهما أو حديثا سابقا أو تعليقات. فقال بغضب،

- أنا لازم أروح.

شدت به الفتاة وقالت برجاء،

- لأ لأ خليك.

حدج الإثنتين بنظرة غاضبة وقال بحيرة،

- ليش الضحك؟ على شو وعلى مين؟!

اكتسى وجه ميرا بتعبير جاد وقالت بصدق،

- لأنك قلت "يعني يهودي" وكأن اليهود شيء مخيف.

نظر اليها وهز رأسه بدهشة وعجب، إذ حتى الآن، بعد كل القتل، بعد كل الكذب والجرائم يقولون اليهوهشيء لا يخيف؟ طبعا مخيف، مخيف جدا.

قالت راشيل،

- أنا مسيحية، كنت مسيحية، يعني بلا دين.

رأته يحملق فأشارت إلى ميرا مؤكدة،

- وميرا بلا دين.

قال بدهشة،

- طب وأبوها؟

لوت ميرا شفتيها وهزت كتفيها فقالت راشيل هازئة،

- ما لها وماله؟

لم يجبها لأنه مذ تعرف على الخوري، أو بالأحرى، استعاد علاقته بالخوري وخاضا المواضيع، مواضيعالعلم والرسم والفن وعزف الأرغون وصحراء مكة وأرض التوراة وجبل الزيتون ما عاد يعرف من الأقرب مكة أم القدس.

عادت تلح،

- انت متدين أو بلا دين؟

قال متهربا،

- ان كنت بدين أو حتى بلا دين تفرق عندك؟

قالت بوضوح،

- طبعا تفرق. يعني الشباب عندنا في الغرب مش بالوارد، لا همهم كنيس ولا كنيسة. لكن عندكم في الميدل ايست الدين مهم وحاجة كبيرة. بدك رأيي؟ الدين تاريخ، بس مش أكثر.

هزت ميرا رأسها وقالت موافقة،

- الدين تاريخ.

قال بحيرة وفضول شديد،

- وأنا بتاريخ أو بلا تاريخ؟

نفضت راشيل يدها وقالت بملل،

- الدين، الدين، ما لنا وماله؟!

قال بحرارة وشبه اقتناع،

- الدين مهم. الناس بلا دين زي الضايعين.

قالت بتأن لتوضح له،

- الدين منطق، الدين إنسان. حقوق الإنسان، حقوق الحيوان، حقوق التعليم والهوا والماء وحتى الأوزون. الدين تاريخ، ما لنا وماله؟ خلي التاريخ للأكاديميين ورفوف الكتب. الدين انسان.

نظر اليها بشك واضح، إذ ان الغرب بعد كل الشبع، بعد التخمة، جاء يبشرنا الأوزون. نحن بلا أرض، بلا سماء ولا حق. نحن بلا بيئة ولا انسان. وتقول الدين لرفوف الكتب؟ إذا أخذوا الدين ماذا يبقى؟ يبقى الأوزون؟

قال بعناد،

- انت بلا دين؟ أنا متدين. أنا عندي الدين أهم من الأكل.

- أهم من الأكل؟1

صاحت راشيل بعدم تصديق،

- انت فاهم معنى كلامك؟

قال بعناد،

- الدين ايمان. الدين هوية وقومية وكمان تاريخ. إذا راح الدين ماذا يبقى؟

قالت الإثنتان معا بصوت واحد،

- يبقى الضمير.

هز رأسه وابتسم بشك. اذ ما هذا؟ البنت اليهودية تقول "الضمير"، والبنت الغربية تقول "الضمير"! يعني الشبعان ينصح الجوعان باتباع رجيم.

حملق فيها وقال بجفاء،

- انت شو أصلك؟

سألت بعجب،

- أصلي؟ شو قصدك؟

- يعني، يعني، من أي بلد؟

- من بريطانيا.

ابتسم بسخرية مرة،

- يعني أصل البلاء.
- أنا أصل البلاء؟!

أشار الى ميرا وقال بجدة،

- انتوا اللي جبتوهم عندنا. وعد بلفور وغيره وغيره. راجعي التاريخ.

حملقت هي بعدم تصديق وقالت بغضب،

- أنا مالي ومالهم ومال بلفور ومال التاريخ؟! أو أقول لك؟ انت تاريخ.

وضع يده على صدره وقال بحرج،

- بتقولي عني أنا تاريخ؟
- أيوه تاريخ.
- يعني قصدك أنا متخلف؟

لم تجبه، بل استدارت عنه ومشت خطوات ونظرت الى المسيرة المبتعدة وشدت ميرا،

- يا الله نمشي، سبقونا كتير.

ومشت الإثنتان وتركتاه واقفا يسائل نفسه عما قصدته، فما هو مقصود بالتاريخ وما هو مقصود بالأوزون وما هو مقصود باللادين؟ بعد خطوات التفتت اليه وصاحت تناديه،

- تيجي معنا؟

فهز كتفيه وقال بجفاء: أنا بالإسعاف.

كانت مسيرة مثالية ثم انتفضت واندلع الرصاص فأخذ يصور. صور شبابا يتطايرون فوق الأشجار وتحت الأشجار ويقذفون الحجارة وقناني الزجاج وأفراد الجيش في أثرهم ككلاب الصيد.واحد يقفز من فوق السور وآخر يزحف تحت الدواليب وثالث يتعمشق دبابة وعشرة وعشرون هنا وهناك مثل العفاريت بينهم أطفال لم يتعدوا الابتدائية وما زالت حقائبهم على الأكتاف.

لطمت فلاحة وهي تصيح "الزيتونات! يا شقى عمرك يا صبحية!" فدفعها الجندي عن الشجرة ومشت جرافة لتقلعها من عمق الجذر. الجرافات مثل الدناصير، لها أفواه كالحيتان تلتهم الشجر والحجر والصخر وبطون الأرض فتبقرها تأكل ما انزاح وما تكسّر وتلقي ما بقي على الجانبين وتغطس وتغور في عمق الأرض. الفك يغطس والرأس يدور مثل حرباء خرافية والدواليب تحفر أثلاما وحشية وتسحق ما بقي من الأغصان والحجارة والصخرالجميل. الصخر الجميل! كبطون الحوامل والولاّدات وأثداء ضخمة حليبية ياما احتضنت أعشاش الطحلب والشقّيق وعطللراعي. الصخر الجميل! ياما احتضن احلى أيام طفولتنا وتذكرناه في غربتنا وتأملناه عند المغرب وهو يصطبغ بلون الشمس ويلمع في المطر كما المرآة.الصخر الجميل! واندفع الفك الحيتاني وقضم الصخرة كقطعة سكر وزعقت أنياب ومفاصل. صوّر، صوّر، هذا تاريخ. صور، صور، أحزان الأرض. صور، صور، آلام الناس. صور، صور. ووديع الصافي يتغنى بجمال الأرض وجمال السما ونسيم البحر.وتلك الشبعانة الغربية ابنة تاتشر تقول البيئةتقول الأوزون، تقول الإنسان. في هذا الجو لا فيه بيئة ولا فيه أوزون ولا فيه إنسان. فيه جرافات تجرف ما بقي من الصحة وبقايا العقل. وإن ضاع العقل ماذا يبقى؟ يبقى التاريخ؟

قالت الدين هو تاريخ. فلتتفضل ابنة تاتشر وترينا ضميرمن خلفها وهو يدمر متحف بغداد والبني آدمين ولون الأوزون. يقولون الدين بلا رحمة، أي ديننا نحن بلا رحمة. ولكن يا راشيل، ماذا عنكم؟ هل لكم دين؟ قالت: بلا دين.

ورأى والده في العدسة. كان الوالد ضمن مسيرة ثم أسرع ليحتضن الدار. جلس على العتبة وتربع. قال الجرافة لن تمر إلا فوقي، فوق جسدي. هذا ما قال تلك المرة ثم تراجع. أما هنا، هذي المرة، فنفذ ما قال. الإندفاع، وصراخ الناس، والدبابات، ورصاص الجيش والحجارة، أمده بالقوة ففقد العقل. أمسكه الجندي من عنقه وجره كالكبش وهو يقاوم. رآه يرفسه بالبسطار فتذكر رحلة نابلس في بكب الغاز. ضرب الشلاليت موجع جدا خصوصا في المعدة والأمعاء.ورأى والده يتقيأ. فأسرع يركض نحو الحادث لكن الجنود مثل الحاجز. ورأى الفتاة ابنة تاتشر تركض للدار لتحميأباه. فتحت ذراعيها مثل الصليب وأخذتتصرخ .Stop. Stop . لكن الجرافة تتقدم .Stop .Stop ... مثل الزلزال تدك الأرض فتفلقها وتمشي كالرخ وتترنح مثل الغيلان. مشت لتتلقاها مثل الصليب بذراعاها مفتوحان والشعر الأشقر يتطاير من حم الوهج والجرافة تقترب ببطء وترنح وذاك السائق في أعلى الرأس، رأس زجاجي يلمع من وهج الشمس، وذاك السائق يلمع أيضا، يلبسنظارة زجاجية مثل الضفدع وغطاس البحر. ذاك السائق لا يتزحزح، لا يتحرك، لا يبدي حركة أو نأمة توحي بالفهم. قطعة معدن، رجل آلي، إنسان حديدي، والنظارات مثل الضفدع.

صاحوا: وقّف! ولم يتوقف. رشقوا حجارة، ولم يتوقف. لطمت فلاحة وصاح الشباب: الله أكبر، لكن الله كان يحدد مسيرة تاريخ. ومشى التاريخ مثل العقرب وساعة بيج بن نحو فتاةتحلم بالحب وضمير الناس. ابنة تاتشر تحت الدواليب. صور، صور. ابنة تاتشر كانت بلا دين. صور، صور. ابنة تاتشر صارت منا. صارت قديسة مسيحيةحين نعاها خوري الطابق.الفتاة ووضعوها خلف ظهره. كانت ميرا تبكي وتنوح وأبوه يصيح: أوعى يا ولدي. ما زال يصيح: أوعى يا ولدي! بعد كل الضرب والإهانات والدار تنسحق كقشر البيض وفتوت العيد، أوعى يا ولدي. وميرا تصيح وهي تولول: Go on. Hurry up. رآها تبكي وتذكر كم بكى هو حين اعتقلوه بعد القطة. كم تمنى لو أبكاها بدل الدمعة آلاف الدموع. لو عذبها مثل عذابه. لو غدر بها كما غدرت به وأعطته فريسة للعسكر وحراس الليل. كانت تبكي وهي صغيرة. بكت من الخوف لا من ألمه. لم تبك عليه ولم تبك منه. والآن تبكي من العسكر، عسكرهاهي ومن خلفها. يا بنت الكلب كم أحببتك! تبكين الآن؟ دموع التماسيح. أنت جميلة، وكم أحببتك، وحملتك صورة على صدري تحت الكنزة وتأملتك مثل العصفور وبرعم مشمش وأنا أتأمل ذاك الشعر في المرجوحة ينعف ويطيفي طيارة، طيارة ورق وروحي في الأفق تداعبها أنسام الصيف وشوق مراهق يحلم بالحب، يحلم بالطيش، يحلمبالصورة والقطة وجمال الشعر. أنت جميلة، لكن الجو، في هذا الجو، لا فيه بيئة، ولا فيه جمال، ولا فيه إنسان.هنا فيه عسكر، فيه دبابة، وأبي يبكي مثلالأطفال ويقول أوعى، وأم سعاد قالت أوعى، وأم الغزاوي قالت له أوعى يا ولدي لكنالحاضر فاجأها بضربة صاروخ.

ورأى السائق في الجرافة يحدق من خلف النظارة مثل الضفدع، انسان الغاب، مثل الآلة، لا يتحرك ولايبدي فهما أو عطفا، فقط يمشي. يقترب بآلته الضخمة، فصاح الشباب: إرجع رفيرس، إرجع، إرجع. نظر لجانبه في المرآة ورأى العسكر، خمسة، سبعة، عشرة وأكثر.

صاحت ميرا: إرجع رفيرس. إرجع، إرجع. والجرافة تقترب منه. رجع للخلف ثم استدار فرأى العسكر في مواجهته. رأوه يقترب من الحاجز. صلية رشاش على الأمبولانس فانكسر الزجاج وتطاير. إدعس، إدعس، صاح الشباب. إدعس، إدعس. داس البنزين وهو يتمتم مثل المجنون: يا ولاد الكلب!كان الغضب قد نزع الخوف والدنيا تموج خلف دموعه. لم تلويح أبيه وميرا تصرخ: Hurry up, hurry up. صلية رشاش ثانية فطار صوابه. صور الأحداث مثل السينما. شاشة سريعة.

فيلم معطوب. وهو يصور من غير صور، داخل عقله، إن بقي عقل. واندفع بكامل اجنحته مثل الصاروخ نحو العسكر. سبعة، عشرة وأكثر. لم يميز، اختل العقل، ثم تأرجح، والروح تطير كطيارة مثل الأوزون. فصاح الوالد: أبني استشهد في اليوم التالي سمعنا الخبر. قالوا: إرهاب.

اعتراف وشكر وتقدير

- أعترف بفضل سيدات حوش العطعوط في نابلس القديمة اللواتي فتحن لي ذاكرتهن كنافذة أطللت منها على التجربة ووقع الأحداث. فلولا رواياتهن المفعمة بالتفاصيل وعمق الإحساس لما تمكنت من التقاط الجو وتصوير المأساة.
- كما أعترف بامتنان عميق أن المشاهد التي صورت فيها حصار مقر الرئيس عرفات في ربيع 2002 ما كنت لأتمكن من روايتها لولا الاستعانة بكتابات وشروحات الأخ الزميل رشيد هلال: المرافق الصحفي لأبو عمار. فكل ما جاء في تلك الفصول مستمد أو مستوحى أو مستعار من تجربة الأستاذ هلال التي نشرها في صحيفة الوطن الكويتية في العام نفسه. والفقرات المطبوعة بالبنط الأسود مقتطفة حرفيا – مع تنقيحات بسيطة كي تنسجم وتندمج في النص – من مذكرات الأستاذ هلال.

الروائية الدكتورة سحر خليفة:

من أهم الروائيين الفلسطينيين. كرست حياتها بعد التحرر من زواج تقليدي فاشل للكتابة والدراسة والعمل الميداني في شئون المرأة.

نالت العديد من الجوائز العربية والعالمية أهمها: جائزة «ألبرتو مورافيا» للأدب المترجم للايطالية. جائزة «سرفانتس» للأدب المترجم للاسبانية. جائزة «نجيب محفوظ» عن روايتها «صورة وأيقونة وعهد قديم». جائزة «سيمون دي بوفوار» التي رفضتها لأسباب وطنية، وجائزة محمد زفزاف للرواية العربية. ترجمت رواياتها إلى أكثر من خمس عشرة لغة عالمية.

صدر لها حتى الآن: لم نعد جواري لكم، الصبار، عباد الشمس، مذكرات امرأة غير واقعية، باب الساحة، الميراث، صورة وأيقونة وعهد قديم، ربيع حار، أصلٌ وفصل، حبي الأول، أرضٌ وسماء.

مشروعي الروائي هو رصدُ تأثير تجربة الاحتلال على المجتمع الفلسطيني في تحوّلاته المختلفة، وبالتالي فإنّ رواياتي هي حكاية مجتمع بأسره. أردتُ أن أصوّر الناسَ كأحياء من لحم ودم، وأن أستعيرَ لغتهم وتعبيراتهم، وأنْ أصفَ معاناتهم وإحباطاتهم، وأيضا تضحياتهم، وصدّقوني، لقد رأيتُ ما قدّمه الناسُ من تضحيات تفوقُ الوصفَ. أنتم في الخارج تسمعون وتعرفون عن تضحيات الشهداء والمُقاتلين، لكنّي أنا كباحثة، وروائيّة، ومواطنة، رأيتُ بعيْني كيف أعطى الناسُ كلّ ما لديهم: أموالهم، أبناءهم، بيوتَهم، مصادر رزقهم، أقول كلّ شيء، خصوصا في الانتفاضة التي عشتُ حذافيرها وعبّرت عنها في رواية «باب الساحة» و أيضا في رواية «ربيع حار».

سحر خليفة